

محمد أبو زهرة

محاضرات في النصِّ شرانيَّة

تبيح في الدُّور التي مرت عليها عقائد النصاري
وفي كنهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم

حقوق الطبع محفوظة للؤلف

الطبعة الثانية

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الثانية

الحمد لله الذي خلق فقدر ، وخلق آدم من طين ، وعيسى بن مريم من غير أب ليكون حجة على العالمين ، فيثبت أن الخلق بالإرادة لا بالعلوية ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وسائر النبيين ، المبعوثين رحمة للناس أجمعين .

أما بعد فقد جاء في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعنتها فتزوجها فله أجران . وبقبسة من هذا الروح السمع - كتبنا كتاب محاضرات في النصرانية ، نرجو به مع إحقاق الحق الهداية ، لانهاجم اعتقاداً ، ولا نبطل عقيدة ، بل نثير السبيل ونضع المصباح أمام الجادة فيسلوكها من يريد الرشاد ، ومن يرجو السداد . ولسكننا في عصر فهم الناس فيه الدين منزعاً جنسياً ، ولم يفهموه حقاً اعتقادياً ، ولا تهذيباً نفسياً ، ولا خلاصاً روحياً ، فكان ذلك حاجزاً دون أن تصل الهداية إلى القلوب ، وأن تُشرق النفوس بنور الحق . ولقد كان الناس في الماضي يوجد من بينهم من يقول : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ، أما الآن فالناس جميعاً غلقوا على أنفسهم باب النور باعتبارهم الدين جنساً ، والاستمسك به من القومية ، أو ما يشبهها ، فيكون العار على من خالف ، وإن كانوا يعلمون أن فيما يعتقدون ما ليس بمفهوم .

وبسبب هذه النزعة الجنسية ، في التدين ظهر نقد لكتابي هذا من بعض بنى وطنى غير المسلمين ، وكنت (علم الله) مستريحاً لظهوره ، فجمعت النقد ، وشكرت للناقد ، وتغاضيت عن عبارات فالتى بها ، لأنها من

فلتات القلم ، ولقد أخذت أدرس ذلك النقد حرفاً حرفاً ، لأصحح به خطأ جرى في الكتاب ؛ أو سوء تفسير فسرناه ، أو تخريجاً بعيداً عن المعنى خرجناه . ولكنني وجدت النقد خالياً من ذلك في جملة ، بل هو مهاجمة لمقصد الكتاب ، يثير اعتبار الدين جنساً ، ويدفعه التعصب الشديد ، ويحاول توهين المكتوب ، حتى أنه في سبيل ذلك ليعتبر الكلام المقيد بوصف متناقضاً ، والمعلق على شرط متضارباً ، لأن صدر الكلام غير الوصف ، ومقدم القضية الشرطية غير تاليها . وإن كان في النقد ما يفيد فهو أنه أثبت أن بعض إخواننا تألم من عبارات جاءت في كتابنا ، فغيرناها ، إن لم يكن في التغيير ما يمس الجوهر ، ويفسد المعنى .

وقد كنا بسبب التألم نحجم عن إعادة طبع الكتاب ، مع الإلحاف من الكثيرين ، وبعضهم من إخواننا المسيحيين ، وأحجمنا عن ذلك نحو ست سنوات ؛ ولكن اشتد الطلب من البلاد الشرقية والمصرية ، وزكوا الطلب بأنه لا يليق أن تحول الاعتبارات النفسية دون ظهور ثمرات الفكر ، وإن عند إخواننا من سعة الصدر ما يتسع لذلك ، وخصوصاً أن الكتاب معروف في أمريكا وأوروبا والهند ، فقد ترجم إلى الإنجليزية ، ولخصته بعض المجلات الأمريكية تلخيصاً كاملاً ، وترجم إلى الفرنسية والأردية . فإذا كانت هذه الأمم المسيحية تطوع بعض المسيحيين فيها بترجمته تسجيلاً للآثار العلمية ، وإن خالفوها — فإنه من نقص الحرية الفكرية في مصر أن يضيق صدر بعض أبنائها حرجاً بإعادة طبع كتاب سجله المسيحيون في لغاتهم .

لهذا أقدمت على إعادة طبع الكتاب بعد طول الإحجام راجياً من المولى جلت قدرته الهداية والتوفيق والسداد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

٦ من رجب المحرم سنة ١٣٦٨

الموافق ٤ من مايو سنة ١٩٤٩

محمد أبو زهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتاحية الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأُمى ، وعلى آله وصحبه وسلم . أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى بن مريم من النبيين الصديقين ، ومن عباد الله الصالحين وأولى العزم من الرسل .

أما بعد فقد عهد إلى تدريس تاريخ الديانات بقسم الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين ، فالقيت محاضرات في النصرانية ، هذه خلاصتها ، وتلك لبابها . ولقد عنيت ببيانها في أدوارها المختلفة متبعا في بيان المسيحية الحاضرة سلسلة أسنادها المتصلة ، فكان أول السلسلة بجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ، وتنتهى بعصرنا الحاضر ، هذا مبتدأ السند وهذا منتهاه ، فالسند اذن ينقطع بين المسيح عليه السلام ، والمجمع الأول من المجامع المقدسة ، وإن انقطاع السند في هذه الفترة الطويلة سببه الاضطهاد الذى لحق النصارى فيها ، حتى كانوا يستخفون ، ويتعبدون فى السر ، فلا يعلنون دينهم الذى ارتضوا ، ويفرون به فرارا إن كشف أمرهم ، وقد ينطقون بكلمة الكفر يتقون بها حر السيف أو نار العذاب ، وقد اعترف بقطع السند مجادلوهم واختاروا ذلك السبب علة لهذا القطع .

وإنا إزاء ذلك العجز ، أو عدم توافر أسباب العلم ابتدأنا بحثنا فى دينهم بكتبهم التى ألزم المسيحيون بها بعد قرار المجامع بالالزام ، ثم تتبعنا فى البحث سير المجامع ، نسير فى مسارها . ونتجه فى اتجاهاتها ، ولكننا لانكتفى بدراسة قرارات المجمع من المجامع ، بل ندرس البواعث التى بعثت الى انعقاده ، ونفصل بعض التفصيل الخلاف الذى سبقه ، والذى جاء المجمع لحسمه ، ثم انتهى الى تشعيه ، وتوسيع زاويته .

وإن عنايتنا بتفصيل البواعث التي أدت إلى انعقاد المجمع الأول ، وبيان قراراته ، وكيف تلقى جمهور المسيحيين ، وخاصة رجال الدين تلك القرارات قد أزال الستار عما أكنته غياهب التاريخ في الفترة التي كانت بين المسيح ، وهذا المجمع ، بل إن تلك العناية جعلتنا نخترق حجب الظلام التاريخي ، لنصل إلى ضوء نعيشو إليه لنعرف حقيقة دعوة المسيح ، وعقيدة المسيحيين في عصر الاستخفاء أو عصر الاضطهاد ، ولقد ساعدنا على الاستضاءة بذلك الضوء موازنات تصدينا لها وازنا فيها بين المسيحية الحاضرة ، وفلسفة الرومان واليونان في تلك الفترة ، وما حاولنا أن نفرض ما استنبطنا على القاريء أو نسبقه إلى الاستنباط ، بل ألقينا إليه بالمقدمات ، وتركنا له استخراج نتائجها ، ليشاركنا فيما وصلنا إليه باقتناعه ، ولكيلا نملا عقله ، وهو خال ، فينقص تقديره للدليل ويضعف وزنه للبرهان .

ولقد كانت عنايتنا متجهة إلى بيان العقيدة ، لجلبنا أدوارها ، وبيننا ما قام حولها من مناقشات وخلافات ، وبيننا عقيدة كل فرقة ، ومنبعها والمجمع الذي انشعبت من بعده ، وما أحصينا فرقهم عدا ، ولا فصلنا آراء كل فرقة تفصيلا ، بل عطينا بالفرق الكبرى ، وعطينا بتفصيل العقيدة دون سواها . وعلم الله اني لبست رداء الباحث المنصف ، وتخلت عن كل شيء سواه لأصل إلى الحق وصول المجتهد الحر ، لا المقلد التابع المأسور بسابق فكره والمأخوذ بسابق اعتقاده ، ولكنني انتهيت كما ابتدأت ، مؤمنا بالله الواحد الأحد ، الذي ليس له والد ولا ولد .

وإني لأهدي كتابي هذا إلى كل مسيحي طالب للحقيقة يسير في مسالكها لا أبغى به غلبا في جدال ، ولا سبقا في نزال ، ولكن أبغى به الحق المجرد . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله . .

تمهيد

١ - عسير على المرء أن يكتب، في رأى يخالف رأيه، ويتحرى مع هذه المخالفة أن يصور الرأى، كما يجول بخاطر صاحبه، وينبعث في نفسه، فيبين دوافعه وغاياته، وإذا كان ذلك واضحاً في رأى مخالف يرتأى، فكيف تكون الحال إذا كانت المخالفة في عقيدة تعتق، وتتغلغل في أعماق النفس، وتستكن في أطوائها !! ان الطريق حينئذ يكون أوعث، ومسالكه أضيق، لذلك كان الطريق غير معبد أمام الباحث الذى يريد أن يكتب في النصرانية، كما يعتقد النصارى، ويصورها أمام القارىء كما تجول بخاطر معتنقيها، ويفرض من نفسه ناظراً غير متحيز، يبين العقيدة، كما هي في نفس أصحابها، لا كما ينبغي أن تكون، أو كما يعتقد هو، لأن الباحث لا يستطيع خلع نفسه عما تعتق موثوم به، ويجردها تجرداً تاماً مما قد صار منها بمنزلة الملكات، وخالط الأحساس والمشاعر، واستولى على كل مسالك الآراء اليها، وتصوير المسيحية كما يعتقد أصحابها ليس فقط عسيراً على الكاتب غير المسيحي، بل انه عسير على الكاتب المسيحي أنفسهم، يستوى في ذلك المختصون بالدراسات الدينية وغير المختصين؛ ولذلك يستعينون في تصويرها، وإدنائها إلى العقول بضرب الأمثال، والتشبيهات الكثيرة، لتأيس غريبها بالقرب المألوف، والمشاهد المحسوس، ولأدخالها في العقل من الباب الذى يألوه ويعرفه، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٢ - ولكن البحث العلمى يتقاضى الباحث الحر المنصف أن يدرس المسيحية

إن أراد أن يعلنها كما يعتقد أهلها مجرداً من نزعاته السابقة على الدراسة، غير جاعل لعقيدته سلطاناً على حكمه، حتى لا تسيره في دراسته، وتتحكم في اتجاهاته، لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيد على القوم، والتزيد ليس من شيمة العلماء، أو يدفعه لأن يتأول كلامهم بغير ما يريدون، وذلك لا يجعل العقل يدرك الأمور كما هي في ذاتها، بل يدركها كما انعكست في نفسه، وكما رسمت على قلبه، وقد يباعد ذلك الأمر في ذاته.

ولذلك سنحاول داعين الله، مبتهلين إليه أن يلهمنا التوفيق — دراسة المسيحية مجردين من أنفسنا ناظرين غير متحيزين عليها، لنصورها كما هي وكما يعتقد أهلها، ولنتمكن من أن نسكتها بروح الانصاف، ولقد نضطر في سبيل ذلك الانصاف أن ننقل عبارات كتبهم المقدسة عندهم، وغير المقدسة من غير أن نتصرف بأي تصرف، حتى ما يتعلق بالأعراب، وأساليب البيان لكيلا يدفعنا التصرف في التعبير إلى تغيير الفكرة، أو تحريف القول عن مواضعه، وسنجهد ما استطعنا في تصوير تفكيرهم بضرب الأمثال، إن لم نجد بداً من ذلك.

ولكن مع عنايتنا الشديدة بتفهم ما عند القوم، وتعرف غاياته ومراميها، لا نترك النقد العلني للنزيه، الذي يستمد قوائمه من بدائه العقل، واحكام المنطق، وخصوصاً ما يتعلق بكتبهم، لأنه إذا كان الانصاف قد طالبتنا بالانزید على ما عندهم، أو نحرفه عن مراده ومرماه، فالانصاف أيضاً يطالبنا بالانهمل العقل، وإلا خرج بحثنا عن معناه العلني التاريخي؛ وصار بحثاً لاهوتياً صرفاً؛ وذلك ما لا نريد، فلا يصح أن يدفعنا حرصنا على انصافهم إلى ظلم العلم والحق والعقل.

المسيحية كما جاء بها المسيح عليه السلام

٣- وقبل أن نخوض في المسيحية كما هي عند المسيحيين نتكلم في المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام، وإنا إذا تصدينا للمسيحية التي جاء بها المسيح نجد التاريخ لا يصفنا بها، إذ بعد العهد واضطربت روايات التاريخ بالأحداث التي نزلت بالمسيحيين، ويجوز أن تكون قد عملت يد المحو والاثبات عملها، حتى اختلط الحابل بالنابل؛ وصار من العسير أن تتميز الحديث من الطيب، والحق من الباطل والصحيح من غير الصحيح، وإنا معشر المسلمين لا نعرف مصدراً صحيحاً جديراً بالاعتماد والثقة من المسلم غير القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف فهما المصدران المعتمدان للمسلم في هذا، وما نكتب هذا لنلزم به المسيحيين، ولا على أنه هو المعتبر عندهم، ولكن نكتبه، ليتسقى البحث؛ ولتتم السلسلة.

ينص القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح هي التوحيد الكامل، التوحيد بكل شعبه، التوحيد في العبادة، فلا يعبد إلا الله، والتوحيد في التكوين، خالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له، والتوحيد في الذات والصفات، فليست ذاته بمركبة، وهي منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه وتعالى. فالقرآن الكريم يثبت أن عيسى مادعا إلا إلى التوحيد الكامل، وهذا ما يقوله الله تعالى عما يكون من عيسى يوم القيامة من مجاوبة بينه وبين ربه:
«وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لي أن أقول، ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم؛ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد.»
فهذا نص يفيد بصرحه أن عيسى مادعا إلا إلى التوحيد، فغير التوحيد إذن دخل

النصرانية من بعده ، فما كان عيسى إلا رسولا لله رب العالمين .

ولقد نزل على السيد المسيح عليه السلام كتاب هو الانجيل ، وهو مصدق للتوراة ، ومحيٍ لشريعتها ، ومؤيد الصحيح من أحكامها ، وهو مبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، وهو مشتمل على هدى ونور وموعظة للمتقين ، وأنه كان على أهل الانجيل أن يحكموا بما أنزل فيه ، ولذلك قال الله تعالى «ويلحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» ٤ — ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام تقوم على أساس أنه لا توسط

المسح

بين الخالق والمخلوق ، ولا توسط بين العابد والمعبود ، فالأحبار والرهبان لم تكن لهم الوساطة بين الله والناس ، بل كل مسيحي يتصل بالله في عبادته بنفسه ، من غير حاجة إلى توسط كاهن أو قسيس أو غيرهما ، وليس شخص مهما تكن منزلته أو قداسته ، أو تقواه وسيطا بين العبد والرب في عبادته ، وتعرف أحكام شرعه مما أنزل الله على عيسى من كتاب ، وما أثر عنه من وصايا ، وما اقترنت به بعثته من أقوال ومواعظ .

ودعوة عيسى عليه السلام كما ورد في بعض الآثار ، وكما تضافرت عليه أقوال المؤرخين ، تقوم على الزهادة والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط يكفي لأن تقوم عليه الحياة ، وكان يحث على الإيمان باليوم الآخر ، واعتبار الحياة الآخرة الغاية السامية لبنى الانسان في الدنيا ، إذ الدنيا ليست إلا طريقاً ، غايته الآخرة ، وبداية نهايتها تلك الحياة الأبدية .

ولماذا كانت دعاية المسيح عليه السلام إلى الزهادة في الدنيا ، والابتعاد عن أسباب النزاع والعكوف على الحياة الروحية ؟ الجواب عن ذلك أن اليهود الذين جاء المسيح مبشراً بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية ، وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بنى الانسان ، بل إن التوراة التي بأيديهم خلت من ذكر اليوم الآخر ، ونعيمه أو جحيمه ، ومن فرقههم من

كان يعتقد أن عقاب الله الذى أوعده بالعاصين ، وثوابه الذى وعده المتقين إنما زمانه فى الدنيا لا فى الآخرة . وقد قال ربنا الفيلسوف الفرنسى فى كتابه حياة المسيح : والفلسفة اليهودية كان من مقتضاها السلطة الفعلية فى نفس هذا العالم؛ فإنه يؤخذ من أقوال شيوخهم أن الصالحين يعيشون فى ذاكرة الله والناس إلى الأبد ، وهم يقضون حياتهم قريبين من عين الله ، ويكونون معروفين عند الله ، أما الأشرار فلا ؛ هذا كان جزاء أولئك ، وعقاب هؤلاء ، ويزيد الفرنسيون على ذلك أن الصالحين ينشرون فى هذه الأرض يوم القيامة ليشتروا فى ملك المسيح الذى يأتى لينقذ الناس ، ويصحبوا ملوك العالم وقضاة ، وهكذا يتنعمون بانتصارهم ؛ وانخزال الأشرار أعدائهم ؛ وعلى ذلك تكون مملكتهم فى هذا العالم نفسه ، فجاء المسيح عليه السلام بشرأ بالحياة الآخرة ؛ وأنها الغاية السامية لهذا العالم بين أولئك الذين أنكروها ، ومن لم ينكرها بقوله منهم أنكروها بفعله ، فكانوا فى ذلك الإنكار سواء .

مريم والمسيح فى القرآن الكريم :

هـ - وإذا كانت شخصية المسيح هى اللب فى المسيحية الحاضرة ، وأساس الاعتقاد فيها ، وجب أن نبينها كما جاءت فى القرآن ، كما سنبينها كما جاءت فى المسيحية ، ليستطيع القارىء أن يوازن بين الشخصيتين ، ويعرف أيهما أقرب إلى التصور ، والعقل يتقبلها بقبول حسن ، ولنبدأ بأمه .

يذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليه السلام ، فيقص خبر الحمل بها وولادتها وتربيتها فى سورة آل عمران ، فيقول تعالى كلماته : إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما فى بطنى محرراً ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما دخل

عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله ؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

هذه هي الأحوال التي اكتنفت الحمل بالعذراء مريم ، وولادتها ، وتربيتها ولاحظ القارىء أن العبادة والنسك أظلاها وهي جنين في بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء ، واصطفها الله لأمر جليل خطير ، فأما وهي حامل بها نذرت أن يكون ما في بطنها محرراً خالصاً لخدمة بيت الله وسدائته ، والقيام بشئونه واستمرت مصممة على الوفاء بنذرها ، فلما وضعت ، وكان نذرها على فرض الذكورة ، كما يبدو من إشارات النصوص القرآنية ، جددت العزم على الوفاء بالنذر ، وقد وجدت ما تسوغه النفس للتحلل من النذر ، فكان ذلك الأصرار عبادة أخرى ، إذ وجدت في النفس داعيات التردد ، والرجوع والتحلل من الوفاء ، فكان كفها والقضاء عليها عبادة أخرى ، ثم انصرفت الفتاة الناشئة منذ طراوة الصبا إلى النسك والعبادة ، وقام على تنشئتها وهدايتها وتعليمها نبي من أنبياء الله الصديقين الصالحين ، فكفلها زكريا ووجهها إلى العبادة الصحيحة ، وتنزيه القلب من كل أدران الشر والأثم ، وكان الله سبحانه وتعالى يدر عليها أخلاف الرزق من حيث لا تقدر ولا تحسب ، ومن غير جهد ولا عناء حتى أثار ذلك عجب نبي الله كافلها ، فكان كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

٦ - ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة التي تتكون في ظلمة بريئة من دنس الرذيلة ، لا يجد الشيطان سبيلاً أو منفذاً ينفذ إلى النفس منها — تمهيداً لأمر جليل قد اصطفاه الله له دون العالمين ، ولذا خاطبتها الملائكة وهي الأرواح الطاهرة باجتماع الله لها : « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ، ولقد

كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أما لمن يولد من غير نطفة آدمية ، وكان ذلك لكي تكون آية الله مشهورة تحمل فيما حلف بها من أحوال القرآن التي تقطع ريب المرتاب ، وألسنة كل أفاك ، وتنير السبيل أمام المؤمنين إذ أن ولادته من غير أب ، من أم كانت حياتها كلها للنسك والعبادة ، والعكوف على التقوى ، وتحت ظل نبي من أنبياء الله تعالى ، لم تزن بريبة قط يجعل المؤمن يعتقد بآية الله الكبرى في هذا السكون ، ولا يجعل شيئا يقف أمام مرید الهداية من تظن بالأم أو ريبة فيها ، فحياتها كلها من قبل ومن بعد تنفي هذه الريبة ، وتبعدها عن موطن الشبهة .

﴿ (٧) حملت العذراء مريم بالسيد المسيح عليه السلام ، وهو الأمر الذي اجتنابها الله له ، واختارها لأجله ، ولقد فوجئت به ، إذ لم تكن به عليمه . فبينما هي قد انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، أرسل الله إليها ملكا تمثل لها بشرا سويا ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ، ولم يمسنى بشر ، ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك : هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا ، فحملته ، فانتبذت به مكانا قصيا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة . قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، حملت السيدة مريم البتول بعيسى من غير أب ، ثم ولدته ، ولم تبين الآثار النبوية مدة الحمل ، فلم ترد في الصحاح آثار تبين تلك المدة ، ولو كانت مدة الحمل غريبة لذكرت ، فليس لنا إذن إلا أن نفرض أن مدة الحمل كانت المدة الغالبة الشائعة بين النساء ، وهى مدة تسعة أشهر هلالية .

ولما ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم ، سواء فى ذلك من يعرف نسكها وعبادتها ، ومن لا يعرف ، لأنها فاجأتهم بأمر غريب ، وهى المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل ، فكانت المفاجأة داعية الاتهام ، لأنه

عند المفاجأة تذهب الروية ، ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضى والحاضر وخصوصاً أن دليل الاتهام قائم ، وقرينته أمر ماضى ، لا مجال للريب فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها في هذه المفاجأة ، فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام ، لينقض الاتهام من أصله ، ويأتى على قواعده ، ويفجأهم بالبراءة وبرهانها الذى لا يأتیه الريب ، ليعيد إلى ذاكرتهم ما عرفوه في نسكها وعبادتها . ولذلك نطق الغلام ، وهو قريب عهد بالولادة ، أشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صديا . قال إني عبد الله آتاني الكتاب ، وجعلني نبيا . وجعلني مباركا أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرأ بوالدتي ، ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا .

(٨) نطق السيد المسيح في المهد ، ليكون كلامه إعلاما صريحا ببراءة أمه ، وأنه لم يكن إلا عبدا لله ، ولد من غير أب ، ويروى ابن كثير : « عن ابن عباس أن عيسى بن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا ، حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ، ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان ، فأكثر اليهود فيه ، وفي أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية ، وذلك قوله تعالى « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » . ولم يذكر في الآثار الصحاح حال عيسى عليه السلام في مرباه ونشأته ، وكيف كان منه مما يكون أرهاضا بنبوته . فليس لنا إلا أن نقول إنه قد تربى بما كان يتربى به أمثاله الذين ينشئون على التقى والمعرفة في بنى إسرائيل ، ويغلب على الظن أن يكون قد ظهر منه ، وهو غلام ما يدل على روحانيته ، وما يدعو إليه بعد ذلك من حياة روحية ، وسط قوم سيطرت عليهم المادة ، وغلبت عليهم نزعتها ، والاتجاه إليها .

(٩) ولا بد من أن نشير هنا قبل أن ننتقل إلى بعثته عليه السلام إلى السبب الذى من أجله ولد عيسى عليه السلام من غير أب ، فإنه لا بد أن يكون ذلك

في كون
ولد من غير
أب

لحكمة يعلمها الله جلت قدرته . وقد أشار إليها في قوله تعالت كلماته ، ولنجعل له آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضياً ،

وإنا نتلص تلك الآية الدالة في ولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، فنجد أنه يبدو أمام أنظارنا أمران جليان : أحدهما : أن ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى وأنه الفاعل المختار المريد ، وأنه سبحانه لا يتقيد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نرى العالم يسير عليها في نظامه الذي أبدعه الله ، والذي خلقه ، فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله ، لأنه خالقها ، وهو مبدعها ومريدها فإن الأشياء لم تصدر عن الله جلت قدرته ، كما يصدر الشيء عن علته ، والمسبب عن سببه ، من غير أن يكون للعلة إرادة في معلولها ، بل كانت بفعله سبحانه وإرادته التي لا يقيدها شيء مهما يكن شأنه ، وخلق عيسى من غير أب هو بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الأزلية ، بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية ، وفي عصر ساد نوع من الفلسفة أساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول ، كالعلة عن معلولها ، فكان عيسى آية الله على أنه لا يتقيد بالأسباب السكونية ، وأن العالم كان بأرادته ، ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

الأمر الثاني : أن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب إعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها ، حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم لا روح فيه ، وأنه ليس إلا تلك الأعضاء والعناصر التي يتكون منها ، فلقد قيل عن اليهود إنهم كانوا لا يعرفون الإنسان إلا جسماً عضوياً ، ولا يقرون أنه جسم وروح ، فقد قال ريتان في بيان سبب الحق الذي تغلغل في النفس اليهودية : « لو كان الشعب الإسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الإنسان عنصرين مستقلين : أحدهما الروح ، والآخر الجسد ، وأنه إذا تعذبت الروح في هذه الحياة ، فإنها تستريح في الحياة الثانية ، لسرى عنه شيء كثير من عذاب

النفس ، واضطراب الفكر ، بسبب ذله وخضوعه ، مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الأدبي والديني عن الشعوب التي كانت تذله .

يقرر رينان في هذا أن اليهود ما كانوا يقولون كاليونان إن الانسان جسم وروح ، ولقد يؤيد هذا ما جاء في التوراة التي بأيديهم في تفسير النفس بأنها الدم فقد جاء فيها : « لا تأكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هي دمه » . إذن لم يكون اليهود يعرفون الروح على أنها شيء غير الجسم ، فلما جاء عيسى من غير أب ، وكان إيجاده بروح من الله ، كما قال تعالى « والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين » كان ذلك الإيجاد الذي لم يكن العامل فيه سوى ملك من الأرواح نفخ في جيب مريم ، فكان الانسان من غير بذرة الانسان وجرثومته . كان ذلك إعلانا لعالم الروح بين قوم أنكروها ، ولم يعرفوها . فكان هذا قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح ، وكان آية معلة لمن لم يعرف الإنسان ، إلا على أنه جسم لا روح فيه ، وهذه آية الله في عيسى وأمه عليهما السلام .

بعث عيسى عليه
السلام ومعجزاته

(١٠) بعث عيسى عليه السلام ، ولم يرد في القرآن الكريم ، ولا في الآثار الصحاح بيان للسن التي بعث عند بلوغها عليه السلام ، ولكن ورد في بعض الآثار أنه بعث في سن الثلاثين ، وهي السن التي تذكر الأناجيل المعتمدة عند النصارى أنه بعث على رأسها ، ويصح لنا أن نفرض أنه بعث في هذه السن على هذا الأساس .

بعث عيسى عليه السلام يبشر بالروح ، وهجر الملاذ التي استغرقت النفوس في تلك الأيام ، واستولت عليها ، ويبشر بعالم الآخرة ، ولقد أيدته الله بمعجزات وإن ولادته نفسها معجزة ، كما جاء في الملل والنحل للشهرستاني ؛ فقد قال رحمه الله في ذلك : « كانت له آيات ظاهرة ، وبينات زاهرة مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه . وذلك

حصوله من غير نطفة سابقة ، ونطقه من غير تعليم سابق ، .
ومعجزاته التي ذكرها القرآن الكريم تتلخص في خمسة أمور ، جاء ذكر
أربعة منها في سورة المائدة في قوله تعالى : « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكري
عليك وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهد وكهلاً ،
وإذ علمك الكتاب والحكمة ، والتوراة والإنجيل ، وإذ نخلق من الطين كهيئة
الطير باذن فتنفخ فيها ، فتكون طيراً باذن ، وتبرئ الأكمة والأبرص باذن ،
وإذ تخرج الموتى باذن ، ... إلى قوله تعالى كلماته : « إذ قال الحواريون يا عيسى بن
مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء . قال اتقوا الله إن كنتم
مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا
ونسكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة
من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا ، وأنت خير
الرازقين . قال الله إني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإني أعذبه عذاباً
لا أعذبه أحداً من العالمين ، .

ويستبين من هذه الآيات الكريمة أربع معجزات .

الأولى : أنه يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فيكون طيراً باذن
الله ، أى أن الله سبحانه وتعالى خلق على يديه طيراً من طين . فالخالق هو الله
سبحانه وتعالى ، ولكن جرى الخلق على يد عيسى ، وبنفخ من روحه عليه
السلام .

الثانية : إحياءه عليه السلام الموتى باذن الله جلّت قدرته ، والمحى في
الحقيقة هو الله العلى القدير ، ولكن أجرى الأحياء على يد المسيح عليه
السلام ، ليكون ذلك برهان نبوته ، ودليل رسالته .

الثالثة : إبراؤه عليه السلام الأكمة والأبرص ، وهما مرضان تعذر على
الطب قديمه وحديثه العثور على دواء لهما ، والتمكن من أسباب الشفاء منهما ،

واسكن عيسى بقدره الله شفاهما ، ويرى المريضان برقيته عليه السلام ، فكان ذلك دليلاً قائماً على رسالته عليه السلام .

الرابعة : إنزال المائدة من السماء بطلب الخواريين ، لتطمئن قلوبهم ، وليعلموا أن قد صدقهم .

وهناك خامسة ذكرت في سورة آل عمران ، وهي إنباءه عليه السلام بأمر غائبة عن حسه ، ولم يعاينها ، فقد كان نبي صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله تعالى حاكياً عنه : « وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

١١ — هذه معجزات عيسى عليه السلام ، وهنا يتساءل القارىء لماذا

الحكمة في كون معجزاته عليه السلام من ذلك النوع

كانت معجزاته عليه السلام من ذلك النوع ؟ يجيب عن ذلك ابن كثير في كتابه البداية والنهاية بقوله : « كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته بما يناسب أهل زمانه ، وكانوا سحرة أذكى ، فبعث آيات بهرت الأبصار ، وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه ، وعانوا ما عانوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عن أيده الله ، وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له - أسنوا سراعاً ، ولم يبلعثوا . وهكذا عيسى بن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ، ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراهيم الآفة الذي هو أسوأ حالا من الأعمى ، والأبرص والمجنون ، ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ، وغير هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به ، وعلى قدرة من أرسله ، وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من

حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدى به الأنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرُونَ ، لافى الحال ، ولا فى الاستقبال ، فلم يفعلوا ، ولن يفعلوا . وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله لا يشبهه شيء لافى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ،

مازاه حكمة
صحيحة

١٢ - من هذا الكلام يستفاد أن معجزة المسيح كانت من نوح إبراهيم المرضى الذين يتعذر شفاؤهم وإحباء الموتى ، لأن القوم كانوا على علم بالطب الطبيعى وكانوا فلاسفة فى ذلك ، فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون ، ليكون عجزم حجة عليهم ، وعلى غيرهم من هم دوسهم فى معرفة الطب ، واسكن ريتان الفيلسوف المؤرخ الفرنسى يقرر أن اليهود ما كانوا على علم بالطب الطبيعى فيقول : وكانت صناعة الطب فى المشرق فى ذلك الزمان كما هى اليوم ، فإن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التى وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ . وكان قد ظهر قبل ذلك بأربعة قرون ونصف كتاب لأبقراط أبى الطب موضوعه العلة المقدسة يعنى الهستريا ، وفيه وصف هذه العلة ، وذكر دوائها إلا أن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب ، وكان فى اليهودية فى ذلك الزمان كثيرون من المجانين ، وربما كان ذلك ناشئاً من شدة الحماسة الدينية ،

فاليهود الذين بعث المسيح بين ظهرانيهم لم يكونوا على علم إذن بالطب الطب الطبيعى على رأى ذلك الفيلسوف المؤرخ وفى الحق ان الذى نراه تعليلاً مستقيماً لكون معجزات السيد المسيح عليه السلام جاءت على ذلك النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه ، لا لأنهم أطباء ، فناسبهم أن تكون المعجزة مما يتصل بالشفاء والأدواء ؛ بل لأن أهل زمانه كان قد سادهم إنكار الروح فى أقوال بعضهم ، وأفعال جميعهم ، فجاء عليه السلام بمعجزة هى فى ذاتها أمر خارق للعادة ، مصدق لما بآتى به الرسول ، وهى فى الوقت ذاته إعلان صادق للروح ، وبرهان قاطع على وجودها ، هذا طين مصور على شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيكون حياً ، ماذاك

إلا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه ؛ فكانت معه الحياة ، وهذا ميت قد أكله البلى ، وأخذت أشلائه في التحلل ؛ وأوشكت أن تصير رمياً ، أو صارت ، يناديه المسيح عليه السلام ، فاذا هو حي يجب نداء من ناداه ، وما ذاك إلا لأن روحاً غير الجسم الذى غيره البلى حلت فيه بذلك النداء ، ففاضت عليه بالحياة ، وهكذا ، فكانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته ، وتناسب أخص رسالته ، وهو الدعوة إلى تربية الروح ، والايان بالبعث والنشور ، وأن هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن بأحسانه ، إن خير أفخير ، وإن شر أفشر . وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى إنكاره ، أو تسمح لجاحد البعث والنشور أن يستمر فى جحوده ، وقد أسلفنا لك القول أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة ، وعدم الايمان باليوم الآخر ، إن لم يكن بالقول ، فبالعمل ، فكان إحياء الموتى ، صوتاً قوياً يحملهم على الايمان حملاً ، ولكنهم كانوا بآيات الله يحدون .

١٣) بعث عيسى عليه السلام بتلك البيّنات ، وأيد رسالته بتلك المعجزات وإنها باهرة تخرس الألسنة ، وتقطع الطريق على منكرى رسالته ، لو كان الدليل وحده هو الذى يهدى النفوس الضالة ، والقلوب الشاردة ، ولكن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظ الرقاب ، قساة القلوب ، فكانت مهمة شاقة ، إذ حاول هدايتهم ، لأن منهم من علم الديانة رسوماً وتقاليد يتجهون إلى الأشكال والمظاهر منها ، دون الاتجاه إلى لبها وغايتها . حتى لقد كان منهم من يحجم عن عمل الخير فى يوم السبت زاعماً أنه داخل فى عموم النهى عن العمل فيه ، فاذا جاء المسيح داعياً اليهود إلى أن ينظروا إلى إصلاح القلب ، بدل الأخذ بالمظاهر والأشكال فإنه لاشك يصدم هؤلاء فيما بالفون ، وفيما وجدوا عليه سابقهم .

واليهود قوم عكفوا على المادة ، واستغرقتهم ، واستولت على أهوائهم ومشاعرهم ، حتى لقد كان نساكهم وسدنة الهياكل عندهم ، وقد فاتهم العمل على

كسب المال من أبوابه الدنيوية — يجمعون المال من نذور الهياكل، والقرايين التي يتقرب بها الناس، ويحرصون على ذلك أشد الحرص، فكانوا يأخذون القرايين من أشد الناس حاجة وأفقرهم، فجاء المسيح، وندد بهذا.

ولقد اتخذ بنو إسرائيل من تدينهم بدين موسى والأنبياء من بعده، وزعمهم أن لهم منزلة دينية لا يسامهم فيها أحد — اتخذوا من هذا ما يصح أن يسمى أرستقراطية دينية، فزعموا أن لهم المكانة السامية، ولغيرهم المنزل الدون، ولو اعتنقوا الديانة اليهودية، وآمنوا برسالة موسى، فكانت هناك طائفة يقال لها السامرة، كان الاسرائيليون يعملون آحادها، كأنهم المنبوذون، فلما جاء عيسى عليه السلام. وسوى بين بني البشر في دعايته أنكروا عليه ذلك وناصبوه العداوة.

ولقد كانوا يعملون لأخبارهم وعلماؤ الدين فيهم المنزلة السامية والمكانة العالية، دون الناس، فجاء المسيح، وجعل الناس جميعاً سواء أمام ملكوت الله.

مناوأة اليهود له

(١٤) لكل هذا تقدم اليهود لمناوأة المسيح، وقليل منهم من اعتنق دينه وآمن به، وأخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعايته. فلما أعييتهم الحيلة، ورأوا أن الضعاف والفقراء يحبون ندامه، ويثفون حوله مقتنعين بقوله — أخذوا يكيدون له، ويوسوسون للحكام بشأنه، ويحرصون الرومان عليه، ولكن الرومان ما كانوا يلتفتون إلى المسائل الدينية، والخلافات المذهبية بين اليهود، بل تركوا هذه الأمور لهم يسوونها فيما بينهم، واليهود يريدون أن يغروا الرومان بعيسى كيفما كان الثمن، فبثوا حوله العيون يرصدونه، ويتسقطون قوله بشأن الحكومة والحكام، عساهم يجدون كلمة له يتعلقون بها وينقلونها للحاكم الروماني، فلم يجدوا، لأن المسيح ما كان يدعو إلا إلى إصلاح الجانب النفسى الخلقى؛ ولم يكن قد اتجه إلى إصلاح الحكومة بعد، ولما ضاقت بهم الحيلة كذبوا عليه، وانتهى الأمر بهم إلى أن تمكنوا من حمل

نهاية المسيح
في الدنيا

الحاكم الروماني على أن يصدر الأمر بالقبض عليه، والحكم عليه بالإعدام صلباً. (١٥) وهنا نجد القرآن الكريم يقرر أن الله لم يمكنهم من رقبته، بل نجاه الله من أيديهم، فما قتلوه، ولـسكن شبه لهم، وبعض الآثار تقول إن الله ألقى شبهه على يهوذا، ويهوذا هذا هو يهوذا الاسخريوطي الذي تقول الأناجيل عنه إنه هو الذي دس عليه، ليرشد القابضين إليه، إذا كانوا لا يعرفونه، وقد كان أحد تلاميذه المختارين في زعمهم.

ولقد وافق هذا إنجيل برنابا موافقة تامة، ففيه: «ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشرين يوماً، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأدرييل^(١) سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من المائدة المشرفة على الجنوب فخلعوه، ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد... ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه، وصار شبيهاً بيسوع، حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم؛ لذلك تعجبنا. وأجبنا أنت يا سيدي معلينا، أنسينا الآن... الخ،

والأناجيل المعتمدة عند المسيحيين لم تختلف في شيء، كاختلافهم في قصة الصلب، فلكل رواية بشأنها.

المسيح بعد نجاته

(١٦) لم يصلب المسيح بنص القرآن؛ ولـسكن شبه على القوم، لقوله تعالى: «وما قتلوه وما صلبوه، ولـسكن شبه لهم، وقوله تعالى: «وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه». وإذا كان المسيح عليه السلام لم يصلب، فما هي حاله بعد ذلك. اختلف في هذا الشأن مفسرو القرآن الكريم، فجلهم على أن الله سبحانه وتعالى رفعه

(١) يريد إسمرا فيل، وعزرائيل.

بجسمه وروحه إليه، وأخذوا بظاهر قوله تعالى في مقابل القتل « بل رفعه الله إليه، وبعض آثار قد وردت في ذلك وفريق آخر من المفسرين، وهم الأقل عددا قالوا إنه عاش، حتى توفاه الله تعالى، كما يتوفى أنبياءه، ورفع روحه إليه كما ترفع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، وأخذوا في ذلك بظاهر قوله تعالى : « إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ومن ظاهر قوله تعالى : « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد » ولكل من المختلفين وجهة هو مولها، ولا نريد أن ندخل في تفصيل حجج الفريقين وترجيح إحداهما على الأخرى، فلذلك هو وضع ليس هذا مقامه .

(١٧) ويزعم بعض الناس أن المسيح عليه السلام قد هاجر إلى الهند، وأنه عاش فيها، حتى استوفى أجله، ومات هناك، وله قبر . ولقد جاء في تفسير المنار ما نصه : « وجد في بلدة سرى نكرا مقبرة فيها مقام عظيم يقال إنه مقام نبي جاء بلاد كشمير من زهاء ألف وتسعمائة سنة ويسمى يوز آسف ويقال إن اسمه الأصلي عيسى، وإنه نبي من بني إسرائيل، وإمام ابن ملك، وإن هذه الأقوال مما يتناقله أهل تلك الديار عن سلفهم، وتذكر في كتبهم، وإن دعاة النصرانية الذين رأوا ذلك المكان لم يسعهم إلا أن قالوا إن ذلك القبر لأحد تلاميذ المسيح أو رسله، هذا ما جاء في تفسير المنار، وقد ذكر أنه نقله عن غلام أحمد القدياني الهندي، وهو راو يشك في صدقه .

هذا وإن القرآن لم يبين ماذا كان من عيسى بين صلب الشبيه، و وفاة عيسى أو رفعه على الخلاف في ذلك، ولا إلى أين ذهب، وليس عندنا مصدر صحيح نعتمد عليه، فلنترك المسألة، ونكتفي باعتقادنا اعتقاداً جازماً أن المسيح لم يصاب، ولكن شبه لهم .

يتخذ من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمراً ، أن يقول له كن فيكون ، وتلك ديانته كما جاء بها ، ودعا إليها ، فما الذى عرض لها من بعده ، وما الذى أدخل عليها بعد أن رفع إلى ربه ؟ .. أول ما أدخل على هذه الديانة هو ما يتعلق بشخص المسيح عليه السلام ، ولنسارع فى بيان اعتقادهم فى المسيح بإيجاز ، ثم بعد ذلك نبين الأدوار التاريخية التى مرت بتاريخ المسيحيين ، محاولين ما استطعنا أن نبين مصادر هذه الاعتقادات التى تتعلق بالمسيح ، ثم بقوانينهم الكنسية .

يعتقد المسيحيون أن الله سبحانه وتعالى أوصى آدم بالأكل من الشجرة ، فأكل منها بإغواء إبليس ، فاستحق هو وذريته الفناء ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بعباده جسد كلمته ، وهى ابنة الأزلى تجسد أظاهراً ، ورضى بموته على الصليب ، وهو غير مستحق لذلك ، لئكى يكون ذلك فداء الخطيئة الأولى وعدتها ، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يقوم بذلك الفداء سوى ابن الله وابن الإنسان معا ، وكان ذلك الابن ، وهذا الفداء هو المسيح عيسى ولد مريم العذراء .

أرسل الله إليها ملاك جبريل ، وبشرها بأن المسيح مخلص الدنيا يولد منها ، وأن الروح القدس يحل فيها ، فتلد الكلمة الأزلية ، وتصير والدة الإله ، وقد ولد بيت لحم ، إذ كان قد ذهب إليها يوسف النجار خطيب مريم الذى لم يتركها بعد أن حملت ، لرؤيا رآها فى منامه تمنعه من ذلك ؛ لأن بيت لحم بلده ، فذهب إليها ومعه مريم ليقيده اسمه فى الإحصاء العام الذى أمر به الرومان .

ولد المسيح فى خان قد نزل فيه يوسف ومريم ، ولفقرهما لم يجدوا مأوى لها فى الخان سوى مكان الدواب ، ولقد قمتها وأضجعتة فى مذود البقر .

وفى ليلة ميلاده ظهر ملاك لجماعة من الرعاة كانوا يحرسون قطعانهم فى الحقول المجاورة لبيت لحم ، فرأوا بغة جمهوراً من الملائكة مسبحين قائلين : « المجد لله فى الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة » ، فترك الرعاة القطعان ، وذهبوا إلى المكان الذى دلهم عليه الملائكة ، فرأوا الطفل فى المذود

وعادوا ، وهم يمجّدون الله ، ويسبحونه على كل ما سمعوا ورأوا ، كما قيل لهم
وقد ختن المسيح لما مرت ثمانية أيام من وقت ولادته ، وسمى يسوع ، أى المخلص
فى زعمهم كما سماه الملاك عند التبشير به .

ولقد حدث بعد ولادته بأيام أن وفد إلى أورشليم جماعة من حكماء المجوس
وعلمائهم ، قالوا إنه لاح لهم فى السماء نجم عرفوا من مرآه بما أوتوا من العلم
وما عندهم من آثار ونبوات أنه نجم مولود جديد ، هو ملك اليهود المنبأ به
فعزموا على الرحيل إليه ، ليسجدوا له . وحملوا معهم هدايا من الذهب واللبان
والمر ، وكانوا فى مسيرهم يسرون والنجم الذى رأوه يهدهم إلى الطريق هم
ومن معهم من خدم ، حتى جاءوا إلى المدينة ، وسألوا عن مكان الملك المولود
فلما علم هيرودس ملك اليهود بأمرهم دعاهم إليه ، واستطلع طلعمهم ، وتعرف
أمرهم ، فقصوا عليه قصصهم ، وما ابتغثهم إلى الضرب فى الأرض ، والمجئ إلى
أورشليم ، فسرى إلى نفسه الخوف على ملكه من هذا الوليد ، ثم دعا إليه كهنة
اليهود وكتبهم ، وسألهم أين يولد المسيح ؟ فقالوا فى بيت لحم اليهودية حسب
النبوءات ، فقال لهجوس اذهبوا إلى بيت لحم ، ومتى وجدتم الصبي فاخبرونى
لأسجد له ، قال ذلك ، وأخفى فى نفسه أمراً لم يبده ، فذهبوا ، والنجم يتقدمهم
ووجدوا الصبي يسوع وأمه ، فسجدوا له ، وقدموا هداياهم ، وفى هذا الوقت
ظهر ملاك الرب فى الحلم ليوסף ، وقال له قم وخذ الصبي وأمه ، واهرب إلى
مصر ، لأن هيرودس يطلب الصبي ليقتله ، ففعل كما أمر ، وخرجت الأسرة
المقدسة إلى مصر ، وسافر المجوس إلى بلادهم من غير أن يعرفوا على هيرودس
لأنهم نهوا عن العودة إليه بوحي أوحى إليهم فى حلم ، فأخذ الغيظ ، واندفع
فأمر بقتل جميع أطفال بيت لحم والبلاد التى تجاوره ممن لا يتجاوز سنه سنتين
زاعماً أن يسوع لابد أن يكون أحدهم .

رحلت الأسرة المقدسة إلى مصر ونزلوا حيث يوجد الدير المحرق ، كما

يعتقدون ، وبعد أن قاموا بضعة أشهر اعترموا الرحيل ، لأن ملاك الرب ظهر ليوسف في الحلم ، وقال له : قم وخذ الصبي وأمه ، وعد إلى اليهودية ، لأن هيرودس الذى كان يطلب نفس الصبي قد مات ، فقاموا واتجهوا إلى فلسطين ومروا في طريقهم بالمطرية ، واستظلوا بشجرة هناك ، تسمى شجرة العذراء وفى الآثار أنه لما دخلت مريم وإبناها ، ويوسف أرض مصر ، انكفأت أصنامها وتحطمت ، وذلك إتماماً لنبوة أشعياء القائلة : « هو ذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر ، فترتجف أوثان مصر من وجهه ، ويذوب قلب مصر داخلها » سفر أشعياء — ١٩ : ١ —

ولما عادوا إلى فلسطين أقاموا فى الناصرة ، ولما بلغ يسوع الثلاثين من عمره عمد فى نهر الأردن ، عمده يوحنا المعمدان ، ثم صام أربعين يوماً ، ولما شرع فى التبشير ظهر له الشيطان كي يجربه . وقال له أعطيك هذه الدنيا ، إن خررت وسجدت لى ، فأجابہ يسوع ، وقال : اذهب يا شيطان ، ثم تركه إبليس ، وإذا ملائكة قد جاءت وصارت تخدمه ، وبعد هذه التجربة صار فى طريق التبشير ، فلزمه حوار يوه الإثنا عشر ، واختار معهم سبعين أرسلهم مثنى مثنى إلى قرى اليهود والجليل للتبشير ، ثم أقام ثلاث سنوات يبشر ، ويأتى بالمعجزات المثبتة لألوهيته فى زعمهم ، يشفى المريض ، ويفتح أعين العميان ، ويخرج الأرواح النجسة ، وينهر الرياح إذا ثارت ، والبحر إذا أصخب بالأذى ، وقذف بالزبد ، فيهدأ . ولما رأى اليهود أن الأمر كاد يفلت من أيديهم تشاوروا لى يصطادوه ، وتآمروا عليه ، وشكوه ظلماً ، وكذبوا عليه ، ثم أمسكوا به ، وأسندوه إلى بيلاطس حاكم فلسطين من قبل الرومان ، فقضى عليه بالموت صلباً . فصلب ، ودفن ، وبعد أن مكث فى القبر ثلاثة أيام قام فى الفصح ، ومكث أربعين يوماً ارتفع بعدها إلى السماء أمام تلاميذه الذين عينهم لنشر ديانته إذ قال لهم اذهبوا إلى العالم ، واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها ، وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس . .

المسيحية بعد المسيح

ما نزل بالمسيحين
من اضطهاد

(١٩) هذا هو المسيح كما جاء في كتبهم وتعاليمهم ، ولا نريد أن نخوض في بيان خلافاتهم حوله ، ولا بيان اختلافهم في تفسير هذه العقيدة ، ولا في تفصيل مجملها قبل أن نبين ما نزل بالمسيحيين بعد المسيح ، ولسكننا سارعنا إلى بيان اعتقادهم الذي استقروا عليه في المسيح . ابوازن القارىء بين ما جاء في القرآن وما جاء في أناجيلهم وتعاليمهم ، ونعود بعد ذلك إلى ما يوجهه البحث العلنى ، وهو تتبع العقيدة في نموها ، وفي استقامتها أو انحرافها بعد صاحبها . وتمهيداً لذلك نبين ما نزل بالمسيحيين بعده ، لى يستبين القارىء مقدار قوة السند بين الديانة وصاحبها مع هذه الأحداث ، وليعرف الفاسفة التى عاصرت المسيحية ومقدار اتصالها .

اتفقت المصادر شرقية وغربية ، دينية وغير دينية على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بالايا وكوارث ، جعلتهم يستخفون بدياتهم ، ويفرون بها أحياناً ويصمدون للمضطهدين مستشهدين أحياناً أخرى ، وهم في كلتا الحالتين لا شوكة لهم ، ولا قوة تحميهم ، وتحمى دياتهم وكتبهم ، وإنه في وسط هذه الاضطهادات يذكرون أنه دوت أناجيلهم الأربعة التى يؤمنون بها ، ورسائلهم ١١

وأول اضطهاد نزل بالمسيحيين كان في عهد المسيح ، وانتهى بالخاتمة التى بناها ، ولقد نزلت من بعده الشدائد بالمسيحيين بما يتفق مع هذا الابتداء فلقد جاء قيصران بعد طيباروس الذى عاصر المسيح ، كانا شديدين على تلاميذه ، وقتلا منهم قتلاً ذريعاً . وفي زمن ثانيهما دون متى انجيله بالعبرية ، وترجمه يوحنا صاحب الانجيل إلى اليونانية على رواية ابن البطريق كما سنبين ولم يكن الاضطهاد في عهد هذين القيصرين من الرومان فقط ، بل كان من اليهود أيضاً ، وإذا هم أمكن ، وتنقيهم عن العقيدة أدخل ، لأنهم من الشعب ومخالطوهم ومعاشروهم ، فهم بداخلهم أعرف .

وأشد ما نزل من أذى كان في عهد نيرون (سنة ٦٤ م) وتراجان سنة ١٠٦ م وديسيوس (٢٤٩ — ٢٥١ م) ودقلديانوس ، فنبيرون هاج الشر عليهم ، وأنزل البلاء والعذاب بهم ، واتهمهم بأنهم الذين أحرقوا روما ، فأخذهم بجريرتها ، وكانت السنوات الأربع الأخيرة عذاباً أليماً لهم ، فقد تفنن هو وأشياعه في هذا العذاب ، حتى لقد كانوا يضعون بعضهم في جلود الحيوانات ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم ، وصلبوا بعضهم ، وألبسوا بعضهم ثياباً مطلية بالقار ، وجعلوهم مشاعل يستضاء بها ، وكان هو نفسه يسير في ضوء تلك المشاعل الانسانية .

وفي عصر نيرون هذا دون انجيل مرقس سنة ٦١ على رواية ، وكان بمصر ، وقد كتبه عنه بطرس وهو برومة ، وكتب أيضاً لوقا إنجيله في عهد هذا القيصر ، وفي ابتداء هذا الانجيل ينص على أنه يرأسل به تاوفيلس ، ليؤكد به صحة الكلام ، وتاوفيلس هذا رجل من عطاء الروم وأشرافهم ، وفي عصر هذا القيصر ، أو بعده دون يوحنا إنجيله .

وفي عهد تراجان نزلت بهم آلام ، لأنهم قد جرت عادتهم بالصلاة في الخفاء هرباً من الاضهاد ، وقد أمر تراجان بمنع الاجتماعات السرية ، فأنزل بهم الذل والعذاب لذلك ، ولأنهم مسيحيون لا يدينون بدين القيصر .

جاء في كتاب تاريخ الحضارة : قد كتب بلين ، وكان والياً في آسيا إلى الامبراطور تراجان كتاباً يدل على الطريقة التي كان يعامل بها المسيحيون ، قال : « جريت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية ، وهو إنى أسألم إذا كانوا مسيحيين فإذا أقرروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهدداً بالقتل ، فإن أصروا أنفذ عقوبة الأعدام فيهم مقتنعاً بأن غلطهم الشنيع ، وعنادهم الشديد ، يستحقان هذه العقوبة ، وقد وجهت التهمة إلى كثيرين يكتب لم تزيل بأسماء أصحابها فأنكروا أنهم نصارى ، وكرروا الصلاة على الأرباب الذين ذكرت أسمائهم

أمامهم، وقدموا الخمر والبخور لتمثال أيت به عمداً مع تماثيل الأرباب، بل إنهم شتموا المسيح؛ ويقال إن من الصعب إكراه النصارى الحقيقيين، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى، ولكنهم كانوا يثبتون بأن جريمتهم في أنهم اجتمعوا في بعض الأيام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على أنه رب، وعلى إنشاد الأناشيد إكراماً له، وتعاهدوا بينهم لاعلى أو تكاب جرم، بل على ألا يسرقوا، ولا يقتلوا، ولا يزنوا، وأن يوفوا بعهودهم، ورأيت من الضروري لمعرفة الحقيقة أن أعذب امرأتين ذكروا أنهما خادمتا الكنيسة، بيد أنى لم أقف على شيء سوى خرافة سخيفة مبالغ فيها.

وهذا الكتاب كاشف كل الكشف عما كان يحدث للنصارى في عهد ذلك القيصر من اضطهاد وتعذيب وتنقيب عن القلب، وخبيثة النفس.

ولم ينقطع الاضطهاد بعد موت تراجان، بل استمر، وإن أخذت الرأفة بعض القياصرة، خلف من بعده خلف ينزلون عذاباً أمر آيزيل أثر رحمة سابقه النسبية حتى جاء ديسيوس فأنزل بهم من البلاء ما تقشعر من هوله الأبدان، ولنذر القلم لبطريك الأسكندرية، يصف بعض ما عاين من ديسيوس بعد أن ذاق بعض الرحمة من سابقه، فهو يقول: «لم نكد نتنفس الصعداء، حتى حاق بنا الخوف، وحققنا الخطر، عندما بدل ذلك الملك الذى كان أرق جانباً، وأقل شراً من غيره، وجاء مكانه ملك آخر، ربما لا يجلس على كرسي المملكة حتى يوجه نظاره نحونا، فيعمل على اضطهادنا، وقد تحقق حدسنا، عندما أصدر أمراً شديداً لوطأة، فعم الخوف الجميع، وفر بعضهم بدينهم، وقد أبعد كل مسيحي من خدمة الدولة، مهما يكن ذكاؤه، وكل مسيحي يرشده عنه يؤتى به على عجل ويقدم إلى هيكل الأوثان، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم، وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة، بعد أن يجتهدوا في حمله بالترهيب... ومن ضعاف الإيمان من أنكر مسيحيته، واقتدى به البعض، ومنهم من تمسك

بأذيال الفرار أو من زج به في غيابات السجون ،
وهكذا يقص ذلك القسيس منازل بهم مما انتهى به الأمر إلى فراره هو ،
وقد كتب يعتذر ^(١) عن ذلك إلى بعض من أبلوا بلاء حسنا ، ولم يلودوا
بالفرار ، ولم يكن البلاء مقصورا على مصر ، بل كان يتبع المسيحيين في الدولة
الرومانية حيثما ثقفوا ، وأينما كانوا .

ولى بعد ديسيوس من أوقع البلاء وأنزله بالمسيحيين ، ولسكن كان أشده ولام
وأبلغهم أذى ، وأنكاهم بطشا — دقلديانوس الذى جاء اليهم ، بعد أن خف العذاب
عنهم قليلا ، وقد رجوا فيه خيرا ، وأملوا منه أن يكون عوننا ، لأن مدير
خاصته مسيحي ، ولسكنه كان أشد من غيره على المسيحيين ، وخصوصا المصريين
وذلك لأن المصريين راوا أئما تحملت من حكم الرومان ، وفسكوا أغلاله ،
فاقتدوا بهم ، ونزعوا إلى السير في طريق الحرية والاستقلال ، وساروا فيه ،
وعقدوا الأمر لواحد منهم ، فجاء دقلديانوس إلى مصر ، وأنزل بها البلاء ، وأزال
استقلالها ، وأعاد فتحها ، وكانت كثرتها في ذلك الأبان مسيحية ، وقد أمر
يهدم الكنائس ، وإحراق الكتب ، وأصدر أمرا بالقبض على الاساقفة
والرعاة ، وزجهم في غيابات السجن ، وقهر المسيحيين على إنكار دينهم ، وقد
استشهد في هذا الوقت عدد كبير من الاقباط تجاوزت عدتهم أربعين ومائة ألف
وعدهم بعض المؤرخون ثلاثمائة ألف ، وللكثرة ما استشهد من شهداء وما
نزل من بلاء كانت ولاية دقلديانوس حادثا ذا خطر في شأن مصر ، فجعلوه
مبدأ تقويمهم ، وذلك في سنة ٢٨٤ ميلادية .

وقد استمر البلاء ينزل من قياصرة الروم ، حتى جاء عهد قسطنطين فكان
مينا وبركة على المسيحيين ، لا على المسيحية كما سنبين .

(٢٠) هذه هي الاضطهادات التي قارنت المسيحية في نشأتها وفي تكونها
وليدأ ، وفي تدرجها وفي عصر تدوينها ورواية كتبها ، وهي مع أسباب أخرى

أثر الاضطهادات
في الديانة

(١) راجع هذا في كتاب تاريخ الامة القبطية الجزء الاول ص ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦

جعلت، بعض العلماء يبحثون عن قيمة هذه الكتب ، وجعلت بعض علماء المسيحيين أنفسهم يعتذرون عن بعض الاضطراب في الأناجيل بأنها دونت في عصور اضطهاد المسيحية الأولى ، بل إن مناظرهم يقررون بأن تلك الاضطهادات كانت سبباً في فقد سندها المتصل بصاحب الشريعة ، يقول الشيخ رحمه الله الهندي في كتابه إظهار الحق : وطلبنا مراراً من علمائهم الفحول السند المتصل ، فما قدروا عليه ، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم ، فقال : إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة ، وتفحصنا في كتب الاسناد لهم ، فما رأينا فيها شيئاً غير الظن ، يقولون بالظن ، ويتمسكون ببعض القرائن ، وقد قلت إن الظن في هذا الباب لا يغني شيئاً ، فما داموا لم يأتوا بدليل شاف ، وسند متصل ، فمجرد المنع يكفيننا ، وإيراد الدليل في ذمتهم لا في ذمتنا . وفي الحق إن تلك الاضطهادات جعلت كل عمل يقومون به في شئونهم الدينية ، وخاصة ما كان متصلاً ببيان الشريعة يقومون به سرّاً لا جهراً ، وفي خفية من العيون المتربصة ، والاعداء المتربصين ، والسرية يحدث في ظلمتها ما يجعل العقل غير مطمئن إلى ما يحكى عما يحدث فيها ، فيتظن في كل ما يروى عنها ، ولا مانع من أن يدس على اجتماعاتها ما لم يجر فيها ، وينقل عن أشخاصها ما لم يقولوه ، ويتسامع الجمهور أموراً — ما حدثت في تلك الاجتماعات ، ولا قالها حاضروها ، فاذا جرى الشك والريب فيما دون من كتب المسيحية التي فقدت سندها بسبب هذا الاضطهاد ، والتي كتبت في ظلمة السرية ، يكون قد وقع حيث وجدت دواعيه ، وقامت شواهد .

(٢١) ولقد كان من المسيحيين من يفرون بدينهم ، ومنهم من يظهر الوثنية ويبتطن المسيحية ، ومنهم من دخل النصرانية ، وفي رأسه تعاليم الوثنية لم تخلع منه ولم تزيله ، وإن زایلها بعقله المدرك ، فعقله الباطن لا زال مستقرها

وممكننا تكمن فيه ، وهؤلاء لا شك أثّر تفكيرهم في المسيحية التي لم يكن لها قوة تحميها ، ولا شكيمة تعقل النفوس إلى حظيرتها .

وإن التاريخ يروى لنا أنه في القرن الثاني ، والثالث ، والرابع الميلادي قد دخل الرومان والمصريون أفواجا أفواجا في المسيحية ، فمن حق العلم أن نحكي ما كان يسيطر على هذه الأمم من أفكار ، وما كان يسود تفكيرها من منازع عقلية ودينية ، ولا نعتمد في ذلك إلا على ما أثبتته تاريخ العلم والفلسفة ، وما أجمع عليه المؤرخون .

يحكي التاريخ أن مدينة الرومان لم تكن متناسقة تناسقا اجتماعيا ، فلم يكن توزيع الثروة فيها توزيعا يتحقق معه العدل الاجتماعي ، فبينما ترى ترفا ورخاء لمن أفادت عليهم الدولة بالنعم والغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية ، ترى ألوف الألوف من الناس قد حرموا ما يتبلغون به في حياتهم ، فاستولى عليهم الاحساس بالظلم ، والسخط على الحياة ، والتملل بها ، والناس لا يشقون لآلامهم وحرمانهم بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التي امتنعت عليهم ، وكذلك كانت آلام سواد الرومان ، ولولا إيمان بحياة مستقبلية ، يستمتعون فيها بما حرموا منه في هذه الحياة ، لضاقت الصدور بما يجلجل في القلوب ، ولا انفجرت في ثورة اجتماعية ، لكن توجهت هذه النفوس إلى الإيمان بعالم علوي ، واعترف الانسان بعجزه التام عن معرفة نفسه وإسعادها ، إذا اعتمد على تفكيره فقط ، لذلك رجعوا إلى الدين .

وفي هذا الوقت أراد الفلاسفة أن يحلوا فلسفتهم محل الأديان ، إذ أخذت التماثيل والأوثان تفقد قوة تأثيرها ، ولم يعد لها سلطان في تصريف سلوك الإنسان ، وفقدت معابدها ما كان لها من روعة وقوة ، فاعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان ، كلاهما فيه قوة وبأس . فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم في حاجة إلى عزاء من الدين ، وسلوى باليوم الآخر ، وملاذ إلى حياة روحية ،

والفلسفة بما لها من سلطان العقل — لما وجدت الأوثان تسقط قيمتها أرادت أن تحل محلها . حينئذ انجذبت الفلسفة بالشعور الدينى ، أو التقت الفلسفة والدين ، ولم يكن التقاؤهما عداوة وخصاماً ، بل كان محبة وسلاماً ، فكانت تلك الحال داعية اتصال بينهما ، لا داعية افتراق

قال فندلابند فى ذلك : وإن الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهديب الآراء الدينية ، وترتيبها والتقدم إلى الشعور الدينى اللجوج — فمكرة فى العالم تقنعه ، فأوجدت نظماً دينية من قبيل ماوراء المادة تتفق مع الأديان المتضادة اتفاقاً يختلف قلة وكثرة ،

هذه كلمة ذلك الفيلسوف نقلها عنه صاحب كتاب المبادئ الفلسفية ، فهاهنا الأديان المتضادة التى ألقت بينها الفلسفة ، وجعلت من نغائهما المختلفة نغمة واحدة مؤلفة ؟ إن التاريخ يقص علينا أن الأديان التى كانت فى بلاد الرومان ثلاثة الوثنية الرومانية ، واليهودية ، والمسيحية الناشئة ، فهل عملت الفلسفة على إيجاد ديانة يجمع بين المسيحية ، واليهودية ، وفيها وثنية ؟ وهل المسيحية التى تؤمن بالتوراة التى عند اليهود على اختلاف هين ، وتؤمن بالتثليث والوهية المسيح وتقدس الصليب ، هى النظام الدينى الجامع بين الأديان الثلاثة !!! لنترك ذلك الآن ، وقد وضعنا أمام القارئ المصباح الذى يرى به الطريق .

(٢٢) ولنتجاوز رومة والرومان ولنعبّر البحر الأبيض ، ولنيمم شواطئه الجنوبية ، فهناك نجد مدينة الاسكندرية ومدرستها ، وفلسفتها التى كانت تشع على العالم كله بنور الحكمة ، وقد آوى إليها فلاسفة اليونان ، وتابعوا الفلسفة اليونانية ، والى نراها تتجه اتجاهاً واضحاً إلى النواحي الدينية ، والبحث فى منشى الكون .

كان شيخ هذه المدرسة امنيس المتوفى سنة ٢٤٢ . اعتنق فى صدر حياته الديانة المسيحية ، ثم ارتد عنها إلى وثنية اليونان الأقدمين ، وجاء من بعده تلميذه أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ . وقد تعلم فى مدرسة الاسكندرية أولاً ، ثم رحل إلى فارس والهند ، وهناك استقى ينباع الصوفية الهندية ، واطلع

على تعاليم بوذا وديانته، وبراھمة الهندو ديانتهم، وعرف آراء البوذيين في بوذا والبراھمة في كرشنه . وقد عاد بعد ذلك إلى الاسكندرية ، وأخذ يلقى بآرائه على تلاميذه، وجعلها يتجه إلى تعرف ما وراء الطبيعة ، ومنشئ السكون . ويتلخص اعتقاده في منشئ السكون في ثلاثة أمور: (أولها) أن السكون قد صدر عن منشئ أزلي دائم لا تدركه الأبصار ، ولا تحده الأفكار، ولا تصل إلى معرفة كنهه الأفهام. (ثانيها): أن جميع الأرواح شعب لروح واحد، وتتصل بالمنشئ الأول بواسطة العقل — (ثالثها): أن العالم في تديره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة ، وهو تحت سلطانها ، فأنه منشئ الأشياء ، وهو مصدر كل شيء ، وهو معاده لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث ، فليس بجوهر ولا عرض، وليس فكر أكفكرنا، ولا إرادة كإرادتنا، ولا وصف له ، إلا أنه واجب الوجود يتصف بكل كمال يليق به ، يفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود، ولا يحتاج هو إلى موجود، وأول شيء صدر عن هذا المنشئ في نظر أفلوطين هو العقل صدر عنه كأنه يتولد منه ، ولهذا العقل قوة الانتاج ، ولكن ليس كمن تولد عنه ، ومن العقل تنبثق الروح التي هي وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالث يصدر كل شيء ، ومنه يتولد كل شيء .

٢٣ — هذه هي فلسفة المعاصرين لنشأة الديانة المسيحية، وترى أن فلسفة الرومان ترمي إلى إيجاد ألفة بين الوثنية واليهودية، ومسيحية المسيح عليه السلام كما ترى أن فلسفة الاسكندرية ترجع العالم في تكوينه وتديره إلى ثلاثة عناصر، أو إلى ثالث مقدس: المنشئ الأول، والعقل الذي تولد منه كما يتولد الولد من أبيه، والروح الذي يتصل بكل حي ومنه الحياة . فاذا عبرنا عن المنشئ الأول بالآب ، وعن العقل المتولد عنه بالابن ، وعن الروح بروح القدس، كما هو ثالث النصارى الذي أخذ ببعضه مجمع نيقية، وبكله المجامع التي جاءت من بعده لما خرجنا في التسمية عن الصواب ، وما كان فيها أي تسامح، فلذلك

ما يستنبط من التوافق بينهما

الثالوث في معناه هو ثالوث النصارى ، وإذا لم يختلف المسمى ، فلماذا يختلف الاسم . وهنا يرد على النفس سؤال أيهما استقى ، وأيهما كان ينبوع ؟ أخذت الأفلاطونية الحديثة من النصرانية ، أم النصرانية الحاضرة هي التي أخذت عن الفلسفة ؟ إن الجواب عن هذا يقتضى تعرف السابق منهما ، فالسابق بلاريب أستاذ اللاحق ، والزمن هو الذى يحكم ويفصل ، وسنجد فيما يلي من البحث أن مجمع نيقية هو الذى سار فى تقرير هذا الثالوث ، ووضع الأساس لمن بعده ، أو بعبارة أدق قرر ألوهية الابن ، وأن جوهره هو جوهر الآب ، وقد جاء فى قراره وإن الجامعة المقدسة ، والسكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء . أو من يقول إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الآب ، وكل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول إنه قابل للتغيير ^(١) .

(١) اطلع زميلنا الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى الأستاذ بكلية أصول الدين على هذا الاستنباط التاريخي فقال : إنه يوافق ما استنبطه بعض المستشرقين ، ثم ترجمه ، وتفضل فأرسل إلينا نص الترجمة وهامى ذى ، ننشرها مع بحثنا شاكرين له فضل تعاونه :

التثليث ليس من المسيحية بل من الفلسفة الاغريقية

(١) كانت المشكلة الفلسفية التي واجهت أولا الاغريق هي : « ما مبدأ كل شيء ؟ » . وباجتهاد الفلسفة في الاجابة عن هذا السؤال [جاية محدودة ومقتنة شيئا فشيئا كان لنا تلك المذاهب الفلسفية التي تناهت في تاريخ الفلسفة الاغريقية . هذه فلسفة بدأت طبيعية مع الفلاسفة الايونيين ، ثم أخذت فكرة التوحيد في الظهور على أيدي سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، بحيث رأى هؤلاء أن المبدأ الذى صدر عنه العالم هو الله الواحد الذى لا يتغير ، على غرض في تعيين هذه الصفات ونحوها بما يصح أن يتصف بها ص ٦٩ .

(٢) ولكن بمقدار تعيين هذه المعارف والمعلومات عن الله كانت تكبر الصعوبة الأساسية التي اصطدمت بها المذاهب التي سبقت سقراط : كيف تصدر الأشياء عن مبدئها ؟ كيف يمكن أن يخرج —

وهذا المجموع كان في سنة ٣٢٥ بعد الميلاد ، والمسيحيون قبله كانوا

الكثير — أى العالم — من الواحد ، والمتغير من الذى لا يتغير ؟ وأنه كذا قرب المبدأ الأول من الوحدة الحق بصيرورته روحيا ، ومن عدم التغير الحق بصيرورته كاملا ، تتسع الهوة التى تفصله عن العالم وكثرته ، وتصير أكبر عمقا ، كما يصبح عميرا فهم كيف يبرز الله العالم للوجود ويحركه ص ٦٩-٧٠ (٣) إذا كان الله واحدا وحدة مطلقة كيف يمكن أن يخلق الكثرة المختلفة دون أن يقبل في ذاته كثرة بأى وجه من الوجوه ؟ وإذا كان كاله المطلق يقتضى عدم التغير ، كيف تفهم أنه في وقت ما أوجد العالم دون أن يلحقه تغير ، مع أنه انتقل من حالة عدم العمل إلى حالة العمل ؟ هنا تظهر عبقرية العقل الأرى الواحد البرى من التغير لا يمكن أن يصدر عنه العالم المتكثر المتغير مباشرة ، يجب إذن أن تنوسط بينهما وسائط أزلية متدرجة حسب نظام ميتافيزيقى ص ٧٠

(٤) كان أفلاطون أول من أدرك تلك المشكلة وأول من أدرك هذا الحل الذى وجب على العقل الاغريقى فيما بعد — بعد إنضاجه طويلا — أن يجمع نهائيا عليه ، أعنى عقيدة ثلاثة الأقانيم أو عقيدة الثليث ص ٧٠-٧١

(٥) هذا المذهب أو هذه العقيدة التى تمثلها عقل أفلاطون ، وإن كان أدركها إدراكا ، فيه نوع غموض ليس الا عقيدة الثليث المشهورة ، ومن السهل ادراك الغرض منها : الاحتفاظ لله بالسكالات المطلقة والبرادة من التغير ، جعله يضع بينه وبين العالم وسيطين — يعتبران دونه وخارجين عنه ، وعلى نحو ما داخلين فيه أى تتضمنهما ذاته — صادرين عنه ، دونه في السكالات ، ويجعلانا يمكننا أن يصدر عن الله العالم الكثير المتغير ، أول هذين الوسيطين العقل وثانيهما الروح الالهية ص ٧٣ - ٧٤

(٦) وهكذا كان التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الاغريقية لم ينتج فلسفة فقط ، بل أنتج ممها دينيا أيضا ، أعنى المسيحية التى تشربت كثرأ من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان . ذلك أن اللاهوت المسيحى مقتبس من نفس المعين الذى كانت فيه الأفلاطونية الحديثة (يريد فلسفة أفلاطون التى كانت المعين الأصل للفلسفة الافلاطونية الحديثة) ولذا نجد بينهما (أى اللاهوت المسيحى والافلاطونية الحديثة) مشابهاة كثيرة ، وإن اختلفا أحيانا في بعض التفاصيل ، فأنهما يؤسسان على عقيدة الثليث ، والثلاثة الأقانيم وأحدة فيهما ص ٩٣

(٧) أول هذه الأقانيم هو مصدر كل كمال ، والذى يحوى في وحدته كل السكالات . وهو الذى دعاه المسيحيون الأب . والثانى أو الابن هو الكلمة — والثالث هو دائما الروح القدس ص ٩٣ - ٩٤ —

على اختلاف كبير جداً، ويكفى للدلالة على هذا الاختلاف أن الذين حضروا المجمع نيف وأربعون بعد الألفين، وهم على آراء مختلفة، ولم يجمع على قرارته إلا ثمانية عشرة وثلاثمائة كما سنبين، إذن ففكرة البشوة بمعنى أنه تولد عن المنشئ من غير زمن بينهما كما يقول الفلاسفة، وأنه من جوهر أبيه، كما يقولون لم تسد إلا بعد ذلك المجمع، وسيأتى لذلك فضل بيان إن شاء الله تعالى، وعلى ذلك يكون تثليث المسيحية كحقيقة مقررة متأخراً عن أفلوطين، لأن أفلوطين توفي سنة ٢٧٠ بعد الميلاد كما علمت، والمتقدم أستاذ المتأخر كما يرجع العقل، وكما يوجب الظن الذى لا يعد من الائم. ولقد قوى ذلك الظن عند بعض علماء أوربا، حتى شكوا فى حياة المسيح، وقالوا إنه شخص خرافى لم يوجد، أراد بعض فلاسفة الأفلاطونية الحديثة أن يفرضوه، ليجعلوا من آرائهم ديانة يعتنقها العامة، وتسود الكافة، وقد تم لهم ما أرادوا، ولـكننا نحن المسلمين نباعد ذلك، لما فيه من إنكار وجود المسيح الذى نؤمن به، ونزل بخبره الوحي الأمين.

== على أنه يجب أن يلاحظ (وهذا بعض ما يفرق اللاهوت المسيحى عن الأفلاطونية الحديثة) أن الأقاليم الثلاثة ليست فى نظر هذا المذهب متساوية فى الجوهر والرتبة، بينما هى متساوية عند المسيحية، فالابن الذى يتولد من الآب لا يمكن أن يكون أدنى منه كلاً، وإلا صار من طبيعة الكامل أن يصدر اضطراراً عنه غير الكامل. وهذا حل من رتبته. وكذلك الروح القدس مساو للأب والابن ص ٩٤ كل هذه القول من كتاب : « مقدمة (أو المدخل لدراسة) الفلسفة الإسلامية » تأليف المستشرق

المعروف ليون جوتيه L. Gauthier طبع باريس عام ١٩٢٣ م

مصادر المسيحية بعد عيسى

٢٤ — الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة والإنجيل ،
ورسائل الرسل ، وتسمى التوراة (أسفارها الموسوية وغيرها) كتب العهد
القديم ، وتسمى الإنجيل ، ورسائل الرسل كتب العهد الجديد ، فن العهد
القديم يعرفون أخبار العالم في عصوره الأولى ، وأجياله القديمة ، وشرائع اليهود
الإجتماعية والدينية ، وتاريخ نشأتهم ، وحكوماتهم وحوادثهم ، والنبوءات السابقة ،
منذ هبوط الإنسان على هذه الأرض ، والبشارات بالذبيبين اللاحقين ، وبالمسيح ،
وفيهما يجدون أدعية متوارثة تعين على أداء العبادات ، والقيام بالطقوس الدينية
كز امير داود . ولنترك الكلام في التوراة وأسفارها ، فلذلك موضعه من الدراسة
للديانة اليهودية . بيد أنه يجب أن يلاحظ أن بعض الأسفار المعتبرة عند
اليهود مرفوضة عند المسيحيين ، لعدم اعتقادهم بصحة الوحي فيها .

الإنجيل :

٢٥ — أما كتب العهد الجديد فهي التي تعيننا في هذا البحث ، ويهنا أن
نجلى أمرها ، ونعرف حقيقتها ، وأولها الإنجيل . والإنجيل المعتبرة عندهم
أربعة : إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ، ومكان
الإنجيل في النصرانية مكان القطب والعماد ، وإذا كانت شخصية المسيح وما
أحاطوها به من أفكار هي شعار المسيحية ، فإن هذه الإنجيل هي المشتمة
على أخبار تلك الشخصية ، من وقت الحمل إلى وقت صلبه في اعتقادهم ، وقيامته
من قبره بعد ثلاث ليال ، ثم رفعه بعد أربعين ليلة ، وهي بهذا تشتمل على
عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم ، والصلب والفداء ، أي أنها تشتمل على لب
المسيحية بعد المسيح ومعناها .

وهذه الإنجيل الأربعة هي التي تعترف بها الكنائس ، وتقرها الفرق

المسيحية ، وتأخذ بها ، ولكن التاريخ يروى لنا أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل أخرى ، قد أخذت بها فرق قديمة ، وراجت عندها ، ولم تعتنق كل فرقة إلا إنجيلها ، فعند كل من أصحاب مرقيون ، وأصحاب ديصان إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل ، ولأصحاب ماني إنجيل يخالف هذه الأربعة ، وهو الصحيح في زعمهم ، وهناك إنجيل يقال له إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس ، والنصارى ينسكرونه ، وهناك إنجيل برنابا ، وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة ، وإنجيل سرن تهس . ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة ، وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية . ثم أرادت الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي ، أو أوائل القرن الثالث أن تحافظ على الأناجيل الصادقة في اعتقادها ، فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة إبان ذاك ، ولقد يذكر بعض المؤرخين أنه لم توجد عبارة تشير إلى وجود إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثاني وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أرينيوس في سنة ٢٠٩ ثم جاء من بعده كليمنس اسكندريانوس في سنة ٢١٦ ، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم ، ولم تكتف الكنيسة باختيار هذه الأناجيل الأربعة ، بل أرادت الناس على قبولها لاعتقادها صحتها ، ورفض غيرها ، وتم لها ما أرادت . فصارت هذه الأناجيل هي المعتبرة دون سواها ، ولقد كنا نود ونحن ندرس المسيحية وأدوارها في التاريخ أن نعرف هذه الأناجيل التي أهملت ، وما كانت تشتمل عليه . مما كان سبباً في رفضها ، وحمل الناس على تركها ، وخصوصاً أنها كانت رائجة ، وبأخذها طوائف من المسيحيين ، ويتدينون هذه الديانة على مقتضاها ، فأن الاطلاع عليها يمكننا من معرفة اعتقاد الناس في المسيح ، وكيف كان ، خصوصاً بين أولئك الذين قاربوا عصره ، وأدركوا زمانه ، ولقوا تلاميذه ، ونهلوها عن مناهلهم ، وإذا ضل التاريخ بحفظ نسخ منها في سجله ، فقد كنا نود أن

تطلعنا الكنيسة على ما اشتملت عليه مما يخالفها ، وكان سبب رفضها ، وترينا حجة الرفض ، لتكون دليلاً منيراً لها على أنها بهذا أقامت ديانا المسيح ، ولم تغيرها ، ولكن ضمن التاريخ علمنا ، فطوى تلك الأناجيل ، وضنت الكنيسة فطوت تلك البيانات ، فلم يبق لنا إلا أن نستكتفى من الدراسة بما بين أيدينا ، ولعل فيه غناء إن أنعمنا النظر ، وأمعنا في الاستنباط ، وجعلنا لقضية العقل سلطاناً ، ومن بدهياته برهاناً .

٢٦ — وهذه الأناجيل الأربعة لم يملأها المسيح ، ولم تنزل عليه هو بوحى أوحى إليه ، ولكنها كتبت من بعده ، كرايت ، وتشتمل على أخبار يوحنا المعمدان ، ومريم والمسيح ، وما كان منه ، وما أحاط بولادته من عجائب وغرائب ، وما كان يحدث منه من أمور خارقة للعادة ، ولا تحدث من سواه من البشر ، وما كان يحدث له من أحداث ، وما كان يجرى بينه وبين اليهود ، وما كان يلقيه من أقوال وخطب وأحاديث ، وأمثال ومواعظ ، وفيها قليل من الشرائع التي تتعلق بالزواج والطلاق ، ثم أخبار المؤامرة عليه ، واتهامه والقبض عليه . ومحاكمته ، سواء أكانت تلك المحاكمة أمام اليهود ، أم أمام الرومان ، ثم فيها الحكم عليه بالموت صلباً ، وصلبه بالفعل فيما يعتقدون ، وفيها أيضاً قيامته من قبره ومكونه أربعين يوماً ، ثم رفعه إلى السماء . وفي الجملة هي تشتمل على أخبار المسيح وصلواته ، وأقواله وعجائبه ، من بدايته إلى نهايته في هذا العالم ، وهذا كما قلنا لب المسيحية ومعناها ، لأن فيها النواة الأولى لألوهية المسيح ، وعقيدة النصارى فيه . ولنتكلم على كل إنجيل من هذه الأناجيل بكلمة تبين تاريخ تدوينه ، وتعرف بمؤلفه ، ومكانته من المسيح .

إنجيل متى :

الأناجيل لم يملأها المسيح ، ولم تنزل عليه

٢٧ — وقد كتبه متى ، وهو أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر ، ويسميهون المسيحيون رسلاً . وقد كان قبل اتصاله بالمسيح من جبهة الضرائب ، وكانوا يسمون في

ذاك العهد عشارين، ولقد كان جايلاً للرومان في كفر ناحوم من أعمال الجليل بفلسطين، وكان اليهود ينظرون للجباية نظر ازدراء لأنها تحمل صاحبها على الظلم، أو على الأقل تحمله على العنف، والعامل فيها معين للدولة الرومانية المغتصبة التي تحكم البلاد بغير رضا أهلها. ولكن السيد المسيح اختاره تلميذاً من تلاميذه كما جاء في إنجيله، ففي الأصحاح التاسع منه، وفيما يسوع يجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية، واسمه متى، فقال له اتبعني. فقام وتبعه، وبينما هو متكئ في البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا، واتكؤا مع يسوع وتلاميذه، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة: فلما سمع يسوع قال لهم: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى، فاذهبوا وتعلموا ما هو، إني أريد رحمة لا ذبيحة، لأنني لم آت لأدعو أبراراً، بل خطاة إلى التوبة، ولما صعد المسيح إلى ربه جال متى للتبشير بالمسيحية في بلاد كثيرة، ومات في سنة ٧٠ ميلاد الحبشة على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة، وفي رواية أخرى إنه طعن برمح في سنة ٦٢ بالحبشة بعد أن قضى بها نحو ثلاث وعشرين سنة داعياً للمسيحية مبشراً بها، فوطن دعايته كما يروى مؤرخو المسيحية هي الحبشة.

٢٨ — وقد اتفق جمهورهم على أنه كتب إنجيله بالعبرية أو السريانية، كما اتفقوا على أن أقدم نسخة عرفت شائعة رائجة كانت باليونانية، ولكن موضع الخلاف تاريخ تدوينه، ومن الذي ترجمه إلى اليونانية، فمن المتفق عليه عند أكثرهم أن متى كتب إنجيله بالعبرانية أو السريانية، وذلك لأنه كتبه لليهود يبشر بالمسيحية بينهم، وليقرأه مؤمنوهم بها، قال جيروم: إن متى كتب الإنجيل باللسان العبري في أرض يهودية للمؤمنين من اليهود، وقال غيره، إن متى كتب الإنجيل باللسان العبري، وهو الذي انفرد باستعمال هذا اللسان في تحرير العهد الجديد.

إنجيل متى كتب
بالعبرية ولم يعرف
الا باليونانية
رجل المترجم

وإذا انتقلنا إلى تاريخ تدوين هذا الإنجيل وترجمته نرى ميدان

الخلاف فسيحاً ، فنجد ابن البطريق يذكر أنه دون في عهد قلوديوس قيصر الرومان من غير أن يعين السنة التي كتب فيها ، ويذكر أن الذي ترجمه يوحنا ، فيقول في ذلك . « في عصر قلوديوس كتب متاوس (متى) إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس ، وفسره من العبرانية إلى اليونانية يوحنا صاحب الإنجيل ، وهنا نجد أنه لم يعين السنة التي كتب فيها الإنجيل ، بل عين الملك الذي كتب في عهده ، وهذا الملك لم يكن هو الذي عاصر المسيح ، ولا الذي يليه ، بل الذي عاصر المسيح و صلب على زعمهم في عهده - طيباريوس ، وولى من بعده غايوس . وملك أربع سنين وثلاثة أشهر ، ثم جاء من بعده قلوديوس وملك أربع عشرة سنة ، فيحتمل تدوين هذا الإنجيل أن يكون في آخر العشرة الرابعة من ميلاد المسيح ، ويحتمل أن يكون في أول أو آخر العشرة الخامسة أو أوائل السادسة ، فكلام ابن البطريق يحتمل كل هذا ، وقال جرجس زوين اللبثاني فيما ترجمه عن الفرنسية « إن متى كتب بشارته في أورشليم في سنة ٣٩ للمسيح على ما ذهب إليه القديس إيرنيستوس ، والسبب في ذلك على ما ذهب إليه القديس أيفانيوس إنه كتبه إما إجابة لليهود الذين آمنوا بالمسيح ، أو إجابة لأمر الرسل ، ولم يكتب إنجيله باليونانية ، بل بالعبرانية على زعم أوسيبس في تاريخه ، وقد وافق أوسيبس القديس إيرنيستوس إذ أن باثيوس قد ذهب ليكرز بالإيمان المسيحي في الهند ، فوجد إنجيلاً لمتى الرسول مكتوباً بالعبرانية ، فحمله إلى الإسكندرية ، وبقي محفوظاً في مكتبة قيصرية إلى أيامه لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت . وبعد فقدها ظهرت ترجمتها في اليونانية ، اه وفي هذا بعين الكاتب تاريخ السنة الذي دون فيها الإنجيل ، ولكن لا يعين المترجم ، بل يذكر أنه غير معروف ، بينما نرى ابن البطريق يعين أنه يوحنا صاحب الإنجيل المسمى باسمه ، ويقول بالنسبة لتاريخ التدوين صاحب كتاب (مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين)

« إن متى بموجب اعتقاد جمهور المسيحيين كتب إنجيله قبل مرقس ، ولوقا ويوحنا ومرقس ولوقا — كتباً أنجيليهما قبل خراب أورشليم ، ولسكن لا يمكن الجرم في أية سنة كتب كل منهم بعد صعود المخلص ، لأنه ليس عندنا نص الهى على ذلك ، وقال صاحب ذخيرة الألباب : « إن القديس متى كتب إنجيله في السنة ٤١ للمسيح باللغة المتعارفة يومئذ في فلسطين ، وهى العبرانية أو السيروكادانية . . . ثم ما عثم هذا الانجيل أن ترجم إلى اليونانية ، ثم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذى لعبت به أيدي النساخ الايوبين ومسخته بحيث أمضى ذلك الأصل هاملاً ، بل فقيداً ، وذلك منذ القرن الحادى عشر . » وقال الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس مخالفاً جمهور المتقدمين في أنه كتب بالعبرانية أو السريانية إن هناك من يقول إنه كتب باليونانية ثم يرجح أنه ألف باليونانية مخالفاً بذلك إجماع مؤرخيهم ، ثم يقول بالنسبة لتاريخ تدوينه ، « ولا بد أن يكون هذا الانجيل قد كتب قبل خراب أورشليم . ويظن البعض أن انجيلنا الحالى كتب ما بين سنة ٦٠ وسنة ٦٥ ، والحق أن باب الاختلاف في شأن التاريخ لا يمكن سده ، ولا يمكن ترجيح رواية على رواية ولا جعل تاريخ أولى من تاريخ بالاتباع ، ولذلك يقول هورن : « ألف الانجيل الأول سنة ٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو ٦٢ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ من الميلاد ، ونقول نحن يجوز غير ذلك ، والجمهور على أنه كتب بغير اليونانية ، ولسكن لم يعرف غيرها ، ولم يعرف جمهرة المؤرخين من يكون المترجم ، وفي أى عصر ترجم ، وقد علمت أن ابن البطريق يذكر أن يوحنا هو الذى ترجمه إلى اليونانية ، ولسكن لا نجد أحداً من المؤرخين أيده بل إن الكثيرين منهم يقولون : إنه لم يعرف المترجم . »

٢٩ — ولا شك أن جهل تاريخ التدوين ، وجهل النسخة الأصلية التى كانت بالعبرية ، وجهل المترجم وحاله من صلاح أو غيره ، وعلم بالدين واللغتين التى ترجم

أثر جهل تاريخ التدوين والمترجم

عنها والتي ترجم إليها ، كل هذا يؤدي إلى فقد حلقات في البحث العلمي ، ولئن تسامح الباحث في تاريخ التدوين ، وتاريخ الترجمة وملايساتها ، لينعنه العلم من الاسترسال في التسامح ، حتى لا يرى أن السلسلة تكون كاملة إذا لم يعرف الأصل الذي ترجم ، فلقد وددنا أن نعرف ذلك الأصل ، لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل ، أم فيها انحراف ، ولنعرف أفهم المترجم مراعى العبارات ومعانيها ، سواء أكانت هذه المعاني تفهم بظاهر القول أو بإشاراته ، أم بلحن القول وتلويحاته أم بروح المؤلف وغرضه ، وممراته السلكي من الكلام ، ولكن عز علينا العلم بالأصل ، ولقد كنا نتعزى عن ذلك لو عرفنا المترجم ، وأنه ثبت ثقة أمين في النقل عالم ، لا يتزبد على العلماء ، فقيه في المسيحية حجة فيها ، عارف للغتين فاهم لها مجيد في التعبير بهما ، فعندئذ كنا نقول : ثقة روى عز ثقة بترجمته ، ونسد الخلة بتلك الرواية ، ونرأب الثلمة بتلك النظرة ، ولكن قد امتنع هذا أيضاً ، فقال جهمرة علمائهم إن المترجم لم يعرف ، فبقيت الثلمة من غير ما يراها .

انجيل مرقس

٣٠ — يقول المؤرخون إن اسمه يوحنا ويلقب بمرقس ، ولم يكن من الحواريين الاثني عشر الذين تتلمذوا للمسيح ، واختصم بالزاني إليه ، وأصله من اليهود ، وكانت أسرته بأورشليم في وقت ظهور السيد المسيح ، وهو من أوائل الذين أجابوا دعوته ، فاختره من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس في اعتقادهم من بعد رفعه ، وألهموا بالتبشير بالمسيحية ، كما ألهموا مبادئها . ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمانة القبطية : « وقد أجمعت تقاليد الطوائف المسيحية على أن الرب يسوع كان يتردد على بيته ، وأنه في هذا البيت أكل الفصح مع تلاميذه ، وفي إحدى غرفه حل الروح القدس على التلاميذ ، وجاء في سفر الأعمال « إن الرسل بعد صعود السيد المسيح كانوا يجتمعون في بيته ، ولقد لازم مرقس خاله برنابا (وهو من الرسل) وبولس الرسول في رحلتهم إلى

إنطاكية وتبشيرهما بالمسيحية فيها ، ثم تركهما بعد ذلك ، وعادا إلى أورشليم ، ثم التقى مرة أخرى بخاله ، واصطحبه إلى قبرص ، ثم افترقا ، فذهب إلى شمال أفريقية ودخل مصر في منتصف القرن الأول ، فأقام بها وأخذ يدعو إلى المسيحية التي كانت أخبارها قد سبقته إليها ، وقد وجد في مصر أرضاً خصبة لقبول دعوته فدخل فيها عدد كبير من المصريين ، وكان يسافر من مصر أحياناً إلى رومة وأحياناً إلى شمال أفريقية ، ولكن مصر كانت المستقر الأمين له ، فاستمر بها إلى أن ائتمر به الوثنيون ، فقتلوه بعد أن سجنوه وعذبوه ، وكان ذلك سنة ٦٢ من الميلاد ، وقد جاء في كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح هو وأستاذه بطرس الخواري ، وقد جاء في ذلك الكتاب عن مرقس : صنف الإنجيل بطلب من أهالي رومية وكان ينكر ألوهية المسيح ،

اللغة التي كتب بها الإنجيل مرقس وتاريخ تدوينه والاختلاف فيه وفي الكتاب

٣١ — وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية ، ولم نر أحداً من كتاب المسيحيين ناقض ذلك ، وقد ذكر الدكتور بومست في كتابه قاموس الكتاب المقدس أنه كتب الإنجيل باليونانية ، وشرح فيه بعض الكلمات اللاتينية . وأخذ من ذلك أنه كتب في رومة ، ويحيى مثله في تاريخ ابن البطريق ، ففيه : وفي عصر نارون قيصر كتب بطرس رئيس الخواريين إنجيل مرقس عن مرقس في مدينة رومية ، ونسبه إلى مرقس ، ونوجه نظر القارىء إلى ما قاله ابن البطريق من أن الذي كتب الإنجيل هو بطرس عن مرقس ، ونسبه إليه فكان بطرس راوى مرقس ، مع أن الأول رئيس الخواريين ، كما يقول ابن البطريق ، والثاني من تلاميذه كما جاء في كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار وإذا كان ذلك الإنجيل خلاصة عليه بالمسيحية ، فاذا رواه عنه أستاذه ، فقد روى هذا عن مرقس ما ألفاه عليه وعليه ، وإن ذلك لغريب ، ولقد ذكر هذا الأمر صاحب مرشد الطالبين : « قد زعم أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان ينصرهم بخدمته ، وقد ذكر الأمر بلفظ

الزعم ، كأنه لا يصدقه ، وأنه لا يراه مقبولا ، كما نراه نحن غريباً ، ولكن هكذا يذكر الرواة . وبجوار هؤلاء الذين يقولون أو يزعمون أن إنجيل مرقس كتب بتدبير من بطرس آخرون يقولون ، ويقررون أن مرقس ما كتب إنجيله إلا بعد وفاة بطرس وبولس ، فقد قرر الكاتب القديم أرينيوس أن مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس .

وفي الحق إن ذلك الاختلاف ، وإن كان زمنياً في ظاهره ، هو في معناه ولبه اختلاف في شخص المحرر لهذا الانجيل ، فأين البطريق ، وهو من المؤرخين المسيحيين الشرقيين يقرر أن الذي كتبه هو بطرس عن مرقس ، ونسبه إليه ، وأرينيوس يقرر أن الذي كتبه هو مرقس من غير تدبير بطرس ؛ لأنه كتبه بعد موته ، فمن الكاتب إذن ؟ ليس بين أيدينا ما يرجع به إحدى الروايتين على الأخرى ! . ولنتجاوز هذا ولننتقل إلى تاريخ كتابة ذلك الانجيل فنجدهم أيضاً قد اختلفوا في زمان تأليفه وقد قال في ذلك هورن : « الف الانجيل الثاني سنة ٥٦ وما بعدها إلى سنة ٦٥ والغلب أنه الف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣ » ، ويقول صاحب كتاب مرشد الطالبين إنه كتب سنة ٦١

إنجيل لوقا :

٣٢ - يقولون : إن لوقا ولد في أنطاكية ، ودرس الطب ، ونجح في ممارسته ولم يكن من أصل يهودي ، ولقد رافق بولس في أسفاره وأعماله ، وجاء في رسائل بولس ما يشير إلى هذه الرفقة . وتلك الملازمة ، ففي الإصحاح الرابع من رسالته إلى كولوסי يقول ، ويسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب ، وفي الإصحاح الرابع من رسالته الثانية إلى أهل تيموثاوس يقول : « لوقا وحده معي ، وفي رسالته إلى أهل فلبيمون يقول : « مرقس وارسترخس وديماس ولوقا العاملون معي ، من هذا كله يفهم أن لوقا هذا هو لوقا الانطاكي ، الطبيب ، ومثل هذا جاء

في تاريخ ابن البطريق ، ويستنبط القس ابراهيم سعيد من كون لوقا طبيباً معاني كثيرة تسمو بالإنجيله ، فيقول : « وكان لوقا طبيباً ، وهذه المهنة لها قيمتها الخاصة لأنها نلت على حياة لوقا نوراً ساطعاً ، فترينا إياه الرجل العلى العمل المدقق المحقق ، الرقيق الأسلوب ، الجميل الديباجة ؛ لأن الرومان لم يسمحوا في وقتهم لأحد أن يتعاطى مهنة الطب ، إلا لمن جاز امتحانات عدة ، على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطورة ، ثم يبين « أن كونه طبيباً قد سرد ولادة المسيح من غير أب سرداً طبيعياً هادئاً من غير محاولة التدليل على جوازه يؤخذ منه أن ذلك ليس ضد العلم ، وإن كان فوق متناول العالم ، وليس ضد الطبيعة ، وإنه فوق مجرى الطبيعة ، ويرجح كما قال كثيرون أنه ولد بانطاكية . ولكن الدكتور بوست يقرر أنه لم يكن إنطاكياً ، ويبين أن الذين يقولون إنه إنطاكي وهموا ذلك ، أو ظنوه من اشتباهه بلوكيوس ، فيقول : ظن بعضهم أنه (لوقا) مولود في انطاكية إلا أن ذلك ناتج من اشتباهه بلوكيوس وزعم بوست أنه كان رومانيا نشأ بإيطاليا . ومهنة الطب التي نسب إليها ليست أيضاً موضع اتفاق ، بل من المؤرخين المسيحيين من يقررون أنه كان مصوراً .

ومن هذا يتبين أن الباحثين ليسوا على علم يقيني بمولد وصناعة كاتب هذا الإنجيل فمن قائل إنه انطاكي ولد بانطاكية ، ومن قائل إنه روماني ولد بإيطاليا ، ومن قائل إنه كان طبيباً ، ومن قائل انه كان مصوراً . وكلهم متفقون على أنه كان من تلاميذ بولس ورفقائه ، ولم يكن من تلاميذ المسيح ، ولا تلاميذ حواريه ، ولبولس هذا شأن خطير في المسيحية كما سنبين .

ويختلفون أيضاً في القوم الذين كتب لهم أولاً هذا الإنجيل ، فالقس ابراهيم سعيد يقول : « إنه كتب لليونان ، وإن إنجيل متى كتب لليهود ، وإنجيل مرقس كتب للرومان ، وإنجيل يوحنا كتب للكنيسة العامة ، وإننا نجد إنجيل لوقا يبتدىء بهذه الجملة : « إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في

من كتب لهم
إنجيل لوقا ولقته
واختلافهم حوله

الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاًينين رأيت أيضاً، إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أمراً العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به، وثاوفيلس هذا يقول عنه ابن البطريق إنه من عظماء الروم. فيقول فى ذلك: « وكتب لوقا إنجيله إلى رجل شريف من علماء الروم يقال له ثاوفيلس، وكتب إليه أيضاً الأبركسيس الذى هو أخيار التلاميذ، وهى الرسالة المسماة أعمال الرسل، وهناك من يقول أن ثاوفيلس هذا كان مصرياً، لا يونياً، فهو قد كتب للبصريين لا لليونان ويقول الدكتور بوست فى تاريخه « قد كتب هذا الانجيل قبل خراب أورشليم، وقبل الأعمال، ويرجح أنه كتب فى قيصرية فى فلسطين مدة أسر بولس سنة ٥٨ - ٦٠ من الميلاد غير أن البعض يظنون أنه كتب قبل ذلك، ومن هذا يفهم أن بوست يرجح أنه ألفه وبولس حى فى الأسر، ولكن يحقق العلامة لارون أنه حرر إنجيله بعد أن حرر مرقس انجيله، وذلك بعد موت بطرس، وبولس، والواقع أن باب الخلاف فى تاريخ تدوين هذا الانجيل أوسع من ذلك، فقد قال هورن: « ألف الانجيل الثالث سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤.

ولا نترك هذا الانجيل من غير أن نقول إن الباحثين قد اختلفوا فى شخصية كاتبه، وفى صناعته، وفى القوم الذين كتب لهم، وفى تاريخ تأليفه، ولم يتفقوا إلا على أنه ليس من تلاميذ المسيح ولا تلاميذ تلاميذه، وإلا على أنه كتب باليونانية.

انجيل بومنا :

٣٣ - لهذا الانجيل خطر وشأن أكثر من غيره فى نظر الباحث لأنه الانجيل الذى تضمنت فقراته ذكر أصريحاً لألوهية المسيح، فهذه الألوهية يعتبر هو نص إثباتها وركن الاستدلال فيها، لذلك كان لابد من العناية به، إذ كان التثليث هو شعار المسيحية، وهو موضع مخالفتها لديانات التوحيد،

وأساس التباين بين هذه الديانة وتلك الديانات . يقول جمهور النصارى : إن كاتب هذا الإنجيل هو يوحنا الحواري بن زبدي الصياد الذى كان يحبه السيد المسيح ، حتى إنه استودعه والدته ، وهو فوق الصليب ، كما يعتقدون ، وقد نفي فى أيام الاضطهادات الأولى ، ثم عاد إلى إفسس ، ولبت يبشر فيها ، حتى توفى شيخا هراما .

هذه خلاصة ماجاء بكتاب مرشد الطالبين ، ولكن بحوار هؤلاء من محققى المسيحيين من أنكر أن يكون كاتب هذا الإنجيل هو يوحنا الحواري بل كتبه يوحنا آخر لايمت إلى الأول بصلة روحية ، وإن ذلك الإنكار لم يكن من ثمرات هذه الأجيال ، بل ابتدأ فى القرن الثانى الميلادى فإن العلماء بالمسيحية فى آخر القرن الثانى الميلادى أنكروا نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري وكان بين ظهرانيهم أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحواري . ولم يرد عليهم بأنه سمع من أستاذه صحة تلك النسبة ، ولو كانت صحيحة لعلم بذلك حتما تلميذه بوليكارب ، ولأعلم هذا تلميذه أرينيوس ، ولأعلن هذا تلك النسبة عند ماشاع إنكارها . ولقد قال استاذن فى العصور المتأخرة : إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية ، ولقد كانت فرقة الوجيهين فى القرن الثانى تنكر هذا الإنجيل وجميع ما أسند إلى يوحنا ، ولقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية التى اشترك فى تأليفها خمسمائة من علماء النصارى مانصه : « أما إنجيل يوحنا فإنه لامرية ولاشك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهم البعض ، وهما القديسان يوحنا ومتى ، وقد ادعى هذا الكاتب المزور فى متن الكتاب أنه هو الحواري الذى يحبه المسيح ، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علانها ، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري ، ووضعت اسمه على الكتاب نصا مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التى لا رابطة بينها ، وبين من نسبت إليه ، وإنما ظن أنف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ، ليربطوا ، ولو بأوهى رابطة

ذلك الرجل الفلاسفي الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني - بالحواري يوحنا الصياد الجليل ، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخطبهم على غير هدى ، هذا قول بعض الباحثين من كتابهم ، ومن البدهى أن يعد المتعصبون ذلك القول خروجاً على المسيحية ، ولذلك قال أحد هؤلاء المتعصبين ، وهو الدكتور بوست رادا على هؤلاء ، وقد أنكر بعض الكفار قانونية هذا الانجيل ، لكرهتهم تعليمه الروحي ولاسيما تصريحه الواضح بلاهوت المسيح ، غير أن الشهادة بصحته كافية فإن بطرس يشير إلى آية منه (٢بط ١ : ١٤) قال يوحنا ١٨ : ١٨ ، واغناطيوس وبوليكرس بقتطفان من روحه وفخواه .. وكذلك الرسالة إلى ديوكنتيس وباسيلوس وجوستينس الشهيد وتانيانس ، وهذه الشواهد يرجع بنا زمانها إلى منتصف القرن الثاني ، وبناء على هذه الشهادات ، وعلى نفس كتابه الذي يوافق ما نعلمه من سيرة يوحنا نحكم بأنه من قلبه ، وإلا فكأنه من المكر والغش على جانب عظيم ، وهذا الأمر يعسر تصديقه ، لأن الذي يقصد أن يغش العالم لا يكون روحياً ، ولا يتصل إلى علو وعمق الأفكار والصلوات الموجودة فيه ، وإذا قابلناه بمؤلفات الآباء رأينا بينه وبينها بونا عظيماً ، حتى نضطر للحكم بأنه لم يكن منهم من كان قادراً على تأليف كهذا ، بل لم يكن بين التلاميذ من يقدر عليه إلا يوحنا ، ويوحنا ذاته لا يستطيع تأليفه بدون إلهام من ربه ،

وإذا نظرنا إلى هذا القول نظرة فاحصة كاشفة نقسمه قسمين ، قسم يعلن به الكاتب شدة إيمانه وتعصبه لما يشتمل عليه هذا الكتاب وتقديسه ، وهو القسم الذي ذكره في عجز قوله ، وهو أنه لا يستطيع أحد من الآباء ، بل لا يستطيعه أحد من الحواريين ، بل لا يستطيعه الكاتب نفسه إلا بإلهام من ربه ، ويلحق بهذا الجزء ما سبقه إيماناً ، فإن من الخطأ أن يعد ذلك برهنة واحتجاجاً ، فإنه ليس فيه أية محاولة لها ، أما القسم الثاني فهو ما يصح أن يعتبر محاولة للاستدلال وهو ما ذكر في صدر قوله ، فإنه يقرر الاتفاق بين نص جاء فيه ، ونص جلة

في رسالة بطرس الثانية ، فهو يقول ان الفقرة الرابعة عشرة من الاصحاح الاول ونصها مع الفقرة التي قبلها : ١٣ - ولكني أحسبه حقاً ما دمت في هذا المسكن أن أنهضكم بالتذكرة - ١٤ - عالماً أن خلع مسكني قريب ، كما أعلن ربنا يسوع المسيح أيضاً ، موافقة للفقرة الثامنة عشرة من الاصحاح الحادى والعشرين من إنجيل يوحنا ، ونصها : الحق الحق أقول لك لما كنت أكثر حداثة كنت تنطق ذاتك ، وتمشى حيث تشاء ، ولكن متى شئت فانك تمد يدك ، وآخر ينطقك ، ويحملك حيث لا تشاء ،

ونحن لا نجد موافقة بين الفقرتين لافي اللفظ ولا في المعنى ، واستولى علينا العجب من ادعاء الموافقة ، ولا جامع بينهما ، فظننا ان هناك خطأ فيما كتبه الدكتور بوست ، وقلنا لعله يريد الرسالة الاولى لا الرسالة الثانية ، فرجعنا إلى الفقرة الرابعة عشرة من الاصحاح الاول من الرسالة الاولى ، فوجدنا نصها هو وما قبلها هكذا : لذلك منطوقوا أحقاً ذهنكم صاحين فآلقوا رجاءكم بالتنام على النعمة التي يؤتي بها اليكم عند استعلان يسوع المسيح كأولاد الطاعة ، لا تشاكلوا شهواتكم السابقة في جهالتكم ، وهنا نجد بعضاً من الموافقة في اللفظ ، والموافقة في المعنى ، فرجعنا أنه أراد هذه الرسالة ، وسبق قلبه فدون الثانية بدل الاولى . وعلى ذلك تناقش القول على أساسها ، وأساس المناقشة ما نعرفه من أن المتأخر إن وافق قوله قول من سبقه يكون قوله شهادة للسابق ، ولا يكون قول السابق شهادة له ، وأيهما سبق تدوين رسالة بطرس أم إنجيل يوحنا . قد اتفق مؤرخو النصرانية على أن بطرس قتل نيرون ، ويقول في ذلك ابن البطريق هو أخذ نارون قيصر لبطرس فصلبه منكساً وقله ؛ لأن بطرس قال له : إن أردت أن تصلبني فاصلبني منكساً لئلا أتشبه بسيدى المسيح ، فانه صاب قائماً .. وعاش بطرس بعد السيد المسيح اثنتين وثلاثين سنة . فكأن بطرس قتل بعد ميلاد المسيح بنحو ٦٥ ، لأن المسيح صلب في اعتقادهم ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، سنة يضاف إليها اثنتان وثلاثون سنة ، عاشها بعده بطرس . ومن المؤكد أن إنجيل يوحنا

كتب بعد ذلك ، فقد كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ على ما اعتمد الدكتور بوست ، فإذا وجدنا اتفاقاً بين ما كتب في هذا الانجيل ، وما جاء في رسالة بطرس يجب أن يكون كاتب هذا الانجيل شاهداً لبطرس ، لا أن بطرس شاهد له ، وشهادة انجيل يوحنا لا قيمة لها . لأنها شهادة انجيل في نظر من أنكروه مجهول غير معروف يحتاج إلى دليل ، فلا حجة في هذا الأمر ، وعلى ذلك يكون الأمر في غيره من الشهادات . وسنبين عند مناقشة كتبهم كثيراً من أوجه النقد فيها .

تاريخ تدوين هذا
الانجيل وسبب
تدوينه

٣٣ - ولقد اختلف المسيحيون في تاريخ تدوين هذا الانجيل ! اختلفا بيننا فالدكتور بوست يرجح أنه كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ وقيل سنة ٩٦ . ويقول هورن في تاريخ تدوين ذلك الانجيل : ألف الانجيل الرابع سنة ٦٨ أو سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ أو سنة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد ، إذن فليس هناك تاريخ محرر لتدوين هذا الانجيل ، كما أنه ليس هناك بيان قد خلاص من الشك بحقيقة كتابته ، وقد علمت ما في ذلك .

ولقد قالوا إنه كتب لغرض خاص ، وهو أن بعض الناس قد سادت عندهم فكرة أن المسيح ليس بأله ، وأن كثيرين من فرق الشرق كانت تقرر تلك الحقيقة ، فطلب إلى يوحنا أن يكتب إنجيلاً يتضمن بيان هذه الألوهية ، فكتب هذا الانجيل ، وقد قال جرجس زوين اللبثاني فيما ترجمه « إن شير بنطوس وأيبسون وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا إنساناً ، وأنه لم يكن قبل أمه مريم فلذلك في سنة ٩٦ اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح ، وينادي بإنجيل عما لم يكتبه الانجيليون الآخرون ، وأن يكتب بنوع خصوصي لاهوت المسيح » وقال يوسف الدبس الخوري في مقدمة تفسيره (من تحفة الجيل) إن يوحنا صنف إنجيله في آخر حياته يطلب من أساقفة كنائس آسيا وغيرها ، والسبب أنه كانت هناك طوائف تنسك لاهوت المسيح ، فطلبوا منه إثباته وذكر ما أهمله متى ، ومرقس ، ولوقا في

جيلهم، أبا وقال صاحب مرشد الطالبين ، إنه لا يوجد اتفاق بين العلماء بضبط السنة التي فيها كتب يوحنا إنجيله ، فأن بعضهم يزعم أنه كتبه في سنة ٦٥ قبل خراب أورشليم ، وآخرون ممن يوجد فيهم بعض الأقدمين يروون بكتابته في سنة ٩٨ ، وذلك بعد رجوعه من النفي ، فالقصد بكتابته إبقاء بعض مسامرات المسيح الضرورية ذات التروى عما لم يذكره باقي الانجيليين، وإفناء لبعض هرطقات مفسدة ، أشهرها معلمون كذبة في شأن ناسوت المسيح وموته ، وخاصة ترسيخ النصارى الأوائل في الاعتقاد بحقانية لاهوت وناسوت ربهم وفاديتهم ومخلصهم، وقد قيل إن يوحنا لم يؤلف إنجيله إلا بعد صلاة عامة قلبية مع التبعية لأجل أن يوحيه الروح القدس بذلك .

ما يستنبط من
سبب كتابته

٣٤ — من هذه النقول يستفاد أن كتاب النصارى يجمعون أو يكادون على أن الإنجيل المنسوب إلى يوحنا كتب لإثبات ألوهية المسيح التي اختلفوا في شأنها ، لعدم وجود نص في الأناجيل الثلاثة يعينها . وهنا لا يسع القارئ لتلك النقول إلا أن يستنبط أمرين : أحدهما ، صريح وهو أن الأناجيل الثلاثة الأولى ليس فيها ما يدل على ألوهية المسيح ، أو هي كانت كذلك قبل تدوين الإنجيل الرابع على الأقل ، وهذه حقيقة يجب تسجيلها ؛ وهي أن النصارى مكثت أناجيلهم نحو قرن من الزمان ليس فيها نص على ألوهية المسيح ، وثانيهما ، أن الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الإنجيل الذي يدل عليها ، ويصرح بها ، ولما أرادوا أن يحتجوا على خصومهم ، ويدفعوا هرطقتهم في زعمهم لم يجدوا مناصا من أن يلتمسوا دليلا ناطقا يثبت ذلك ، فأتجهوا إلى يوحنا ، فكتب كما يقولون إنجيله الذي يشتمل على الحجة ، وبرهان القضية ، والبيئة فيها على زعمهم ، وهذا ينبغي عن أن الاعتقاد بألوهية المسيح سابق لوجود نص في الكتاب عليه ، وإلا ما اضطروا اضطرابا إلى إنجيل جديد طلبوه ، افتقدوه ، فلما لم يجدوه طلبوا من يوحنا أن يكتبه ، ولكن الواقع أن رسائل الرسل التي كتبت في قوهم

قبل هذا الإنجيل ، فيها ما ينبئ عن ألوهية المسيح ، ويعلمها ، فلم تكن فيها حجة لاتجملهم في حاجة ماسة إلى إنجيل جديد ، وفيها غناء من البيان يغنيهم عن سواء أم لعل تلك الرسائل المشتعلة على هذه الألوهية كتبت بعد هذا الإنجيل ليؤيدوه بها ، وليثبت ما أتى به ، ويرسخ في نفوس المسيحيين ، ثم نسبت إلى السابقين . هذا نفيه يحمل اضطرابا سياق البحث لبيان قبل أو انه ، وفي غير مكانه ، وله في البحث موضع ، لا يغني فيه الأجمال عن التفصيل .

هذه الأناجيل لم
تنزل على عيسى
عليه السلام

٣٥ — هذه هي الأناجيل التي ذكرناها كما كتب النصارى ، لا كما يعتقد غيرهم ، وسنلقى عليها نظرة علمية بعد الكلام في بقية الكتب ، ولكن يجدر بنا هنا أن ننبه إلى أن هذه الأناجيل ليست نازلة على عيسى عليه السلام في نظرهم ، وليست منسوبة له ، ولكنها منسوبة لبعض تلاميذه ، ومن ينتمى إليهم ، وهي تشتمل على أخبار المسيح وقصصه ، ومحاوراته ، وخطبه ، وابتدائه ونهايته في الدنيا كما يعتقدون هم . ولكن هل هناك إنجيل غيرها بعد إنجيل عيسى ؟ وهل في كتابات الباحثين من النصارى ما يدل على ثبوت هذا الإنجيل ، وإن كنا لانجده ؟ نجد في هذه الأناجيل عبارات تذكر كلمة إنجيل أو بشارة ، (وهي ترجمة لكلمة إنجيل باليونانية) مضافة أحيانا إلى المسيح على أنه ابن الله ، وأحيانا إلى الله ، وأحيانا إلى ملكوت الله ، فترى مثلا في إنجيل متى في الأصحاح الرابع منه ما نصه : « وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفي كل مرض ، وكل ضعف في الشعب » ، وبشارة الملكوت هي ترجمة كلمة إنجيل باليونانية ، وترى في إنجيل مرقس في الأصحاح الأول منه : « وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ، ويقول قد كمل الزمان ، واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل ، وجاء في رسالة بولس إلى أهل رومية في الأصحاح الأول منها : « أولا أشكر إلهي يسوع المسيح من جهة جميعكم ، إن إيمانكم ينادى به في كل العالم ، فإن الله الذي أعبدته

إنجيل عيسى

بروحى فى إنجيل ابنه شاهد لى كيف بلا انقطاع أذكركم...، ويحى فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس فى إصحاحها التاسع :. بصرت للضعفاء كضعيف لأريح الضعفاء، صرت لكل كل شىء لأخلص على كل حال قوماً، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل، لا كون شريكاً فيه، ففى هذا كله نجد كلمة إنجيل أو كلمة بشارة وهى ترجمة كلمة إنجيل باليونانية، مضافة إلى ملكوت الله، كما فى إنجيل متى ومرقس، وإنجيل الابن كما فى رسالة بولس إلى أهل رومية، وكلمة الإنجيل من غير إضافة كما فى إنجيل مرقس، ورسالة بولس إلى أهل كورنثوس الأولى، ولا شك أن الإنجيل المذكور فى كل هذا ليس واحداً من هذه الأناجيل لأنها لا تضاف إلا إلى أصحابها باتفاق النصارى. ولأن المسيح قد وعظ بهذا الإنجيل، كما جاء فى عبارة متى التى نقلناها، ولم يكن واحد من هذه الأناجيل قد وجد فى عهده بالاتفاق، وليس من المعقول أن يعظ بأقوال تلاميذه، وهم بعد لا يزالون فى دور التعلم، ولأن هذا الإنجيل قد ذكر فى هذه الأناجيل على أنه كان قائماً فى عهد عيسى، ولأنه ذكر من غير نسبة كما فى إنجيل مرقس ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، وليس واحد من هذه الأربعة تنصرف إليه كلمة إنجيل من غير نسبته إلى صاحبه، ولأنه ذكر فى رسالة بولس إلى أهل رومية منسوب إلى المسيح الابن، وليس واحد من هذه الأناجيل يستحق هذا الاسم. لهذا كله نقول ليس هذا الإنجيل واحداً منها كما تقضى بذلك طبيعة السياق، وكما يقضى بذلك العقل، وإذا كان الأمر كذلك، فهل لنا أن نفهم أن هناك إنجيلاً أصيلاً نزل على عيسى وكرز به على حد تعبيرهم ووعظ. ويعتبر الأصل لهذه الديانة ؟

أقوال علماء
النصرانية فى إنجيل
عيسى

ولقد يمهّد لذلك الرأى، ويرشح له - أننا وجدنا من مؤرخى المسيحية الأحرار الذين لم يقيدهم فى بحثهم إلا العلم والحقائق التاريخية من يصرحون بأنه كانت فى القرن الأول رسالة تعتبر أصلاً لهذه الأناجيل فيها ما جاء به المسيح، وخلاصة أحواله، وهذا ترجمة ما قاله نارتن فى كتاب له: وقال الكهارن

في كتابه إنه كان في إبتداء الملة المسيحية في بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال إنها هي الانجيل الأصلي ، والغالب أن هذا الانجيل كان للمريدين الذين كانوا لم يسمعوا أقوال المسيح بآذانهم ، ولم يروا أحواله بأعينهم وكان هذا الانجيل بمنزلة القلب ، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب ،

إذن فهو لاء الأحرار يقررون أنه كان هناك أنجيل يعد من المسيحية بمنزلة القلب ، ولكنه غير موجود ، فهل لنا أن نقول إن ذلك الانجيل هو المشار إليه في أقوال متى ، ومرقس ، وبولس السابقة ، وهو الذي نزل على عيسى ، وهو إنجيله وإنجيل الله ، ليت ، وهل ينفع شيئاً ليت ، ليت هذا الانجيل كان قائماً ، وحرصت الكنيسة على بقاءه ، وقامت بحياضته ، ليكون فيصلاً بين المختلفين ، وحكماً بين الفرق والمفترقين ، وليكون قسطاس المجامع القديمة والحديثة التي حكمت حين الانشقاق ، وليكون مصدراً علياً لمن يكتب في المسيحية الأولى ، ويتبعها في مدارجها في أحقاب الزمن ، وملابسات التاريخ .

انجيل برنابا

٣٦ — لقد كتبنا خلاصة ما بينه المسيحيون في أناجيلهم الأربعة ، واستنبطنا من نصوصها ما يدل على وجود أنجيل أصيل ، هي منه الفرع من الأصل على إن في ذلك كلاماً قد طوينا به إلى موضعه من القول ، وقد أيدنا في استنباطنا بعض الأحرار المسيحيين . واستنبطوا قريباً مما استنبطنا ، وقبل أن تغادر الكلام في الأناجيل إلى الكلام في الرسائل يجدر بنا أن نتكلم في أنجيل جديد قد كشف عنه البحث العلمي ، وقد حمل من الإشارات ما يدل على أنه في نشأته يمتد إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحي ، وأبعد أغواره ، وهو يشبه الأناجيل القائمة في أنه قصة المسيح من ولادته إلى اتهامه . ويحكى محاوراته ، ومناقشاته ، وخطبه ولكن الكنيسة لم تعترف به ، وأنكرته ، فليس معتبراً عند المسيحيين مصدراً دينياً ، ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوروبية ، وقد اتجهوا إليه بالبحث والعناية

والاهتمام ولم يمنعهم من ذلك إنكار الكنيسة له . وذلك الإنجيل هو إنجيل برنابا ، ومن الحق علينا إن ندرسه ، ونعرف رأى المسيحيين فيه ، وما يؤدى إليه النظر العلى من غير افتيات عليهم ولا تهجم ، ومن غير أن نقحم أنفسنا فيما ليس لنا من إملاء عقيدة على القوم فى دينهم .

برنابا :

٣٧ — جاء ذكر برنابا فى رسالة أعمال الرسل التى ينسب تدوينها إلى لوقا . فقد جاء فى الأصحاح الرابع من تلك الرسالة : « ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى يترجم ابن الوعظ . وهو لاوى قبرصى الجنس إذ كان له حقل باعه وأتى بالدرهم ، ووضعها عند أرجل الرسل ، وجاء فى الأصحاح التاسع عند الكلام عن إيمان شاول وهو الذى اشتهر بعدئذ باسم بولس الرسول أن برنابا هو الذى شهد له بالإيمان . وهذا هو نص ما جاء فيه « ولما جاء شاول إلى اورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ ، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل ، وحدثهم كيف أبصر الرب فى الطريق ، وأنه كلبه ، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع ، ولقد ذكر ذلك السفر أيضا أنه كانت ترسله الكنيسة للوعظ والهداية ، وفى الأصحاح الحادى عشر « فسمع الخبر عنهم فى آذان الكنيسة التى فى اورشليم ، فأرسلوا برنابا لى يجتاز إلى أنطاكية ؛ الذى لما أتى ، ورأى نعمة الله فرح ووعظ أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب ، لأنه كان رجلا صالحا ، وممتلئا من الروح والقدس والإيمان ، فانضم إلى الرب جمع غفير ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب شاول ، ولما وجد جاء به إلى أنطاكية . . . ، ويزعمون أن الروح القدس خاطبه واختصه بالخطاب ، هو وبولس (شاول) من بين الأنبياء والمعلمين ، فقد جاء فى الأصحاح الثالث عشر من رسالة الأعمال « وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر ولوكيوس القيروانى ، ومنابن الذى تربى مع

هيرودس رئيس الربع، وشاول، وبيثام يخدمون الرب، ويصومون قال الروح القدس: أفرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه، فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادي ثم أطلقوهما، فهذان إذ أرسلا من الروح القدس انحدر إلى سلوكية، ومن هناك سافرا في البحر إلى قبرص. ولما سارا في سلاميس ناديا بكلمة الله في مجامع اليهود، وكان معهما يوحنا خادما، وقد استمر برنابا وبولس متصاحبين في التبشير بالديانة المسيحية في قبرص. وحدثت على أيديهما المعجزات، حتى زعم الناس أنهما إلهان، وجاء فيه عن بيان وقع الخبر عليهما: فلما سمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما، واندفعا إلى الجمع صارخين وقائلين أيها الرجال لماذا تفعلون هذا؟ نحن بشر تحت آلام مثلكم: نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحي الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، الذي في الأجيال الماضية ترك جميع الأمم، مع أنه لم يترك نفسه بلا شاهد.

ومن هذا كله يتبين أن رسالة الأعمال تشهد أن برنابا كان من الرسل في اعتقادهم الذين أخلصوا للدعوة إلى المسيحية، حتى باع كل ما يملك؛ وألقى بثمرته بين أيدي الرسل يتصرفون به في سبيل نشر الدعوة، وينفقونه في حاجات الجميع. وأنه هو الذي شهد لبولس بالآيمان، وأن الكنيسة أرسلتهم مبشرين بالمسيحية في قبرص بعد أن أرسلت برنابا وحده إلى أنطاكية، وأن برنابا كان رجلا صالحاً ممتلئاً من الروح، وأن الروح القدس خصه بعناية من بين الرسل والمعلمين كما يعتقدون، وينص بولس في رسالته إلى أهل كولوسي في أصحابها الرابع على أن مرقس صاحب الانجيل ابن أخت برنابا، فيقول: «يسلم عليكم أرسترخص المأسور معي، ومرقس ابن أخت برنابا الذي أخذتم لاجله وصايا إن أتى إليكم فاقبلوه»، ولقد كان مرقس هذا يصاحب خاله وبولس في سفرهما للدعاية والوعظ، ولقد افترقا بسبب إرادة برنابا أن يصحبهما ابن أخته في الطواف في المدن التي سبقت إليها الدعاية، ومخالفة بولس لذلك، ولذلك جاء في رسالة

الأعمال في إصحاحها الخامس عشر ما نصه : « ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا لترجع ونفتقد إخواننا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب ، كيف هم ؟ فإشار برنابا أن يأخذا معهما أيضاً يوحنا الذي يدعى مرقس ، وأما بولس فسكران يستحسن أن الذي فارقهما من بيمفيلية ، ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما ، فحصل بينهما مشاجرة ، حتى فارق أحدهما الآخر ، وبرنابا أخذ مرقس وسافر في البحر إلى قبرص ، وأما بولس فاختر سبيلا ، وخرج مستودعاً من الأخوة إلى نعمة الله ،

ولقد أشرنا إلى الصلة بين برنابا ومرقس صاحب الإنجيل ، عند الكلام في إنجيل مرقس ، ونقلنا من كتب المسيحيين ما يدل على أن مرقس هذا ، وهو حجة عندهم بانفاق كان ينسكروا لهوية المسيح ، هو وأستاذه بطرس ، وقد نقلنا عن مروج الأخبار في تراجم الأبرار ما يدل على ذلك .

هذا
من
الحواريين
الاثني عشر

٣٨ — هذا هو برنابا . قديس من قديسي المسيحيين باتفاقهم ، ورسول من رسلهم ، وركن من الأركان التي قامت عليها الدعاية للمسيحية الأولى ، وقد وجد لإنجيل باسمه يدل على أنه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى إليه ، والتقرب منه وملازمته في سرائه وضرائه ، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الإنجيل لا تعدده من هؤلاء الحواريين ، وإن كانت تعدده من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين في هذا الدين بعد المسيح ، ومهما يكن من شيء في هذا الأمر ، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم فإن برنابا حجة عند المسيحيين ، وهو من الملهمين في اعتقادهم ، فإن صحت نسبة هذا الإنجيل إليه كان ما يشمله حجة عليهم يدعوه إلى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء في غيره من كتبهم ، ويؤخذ بما هو أقرب إلى التصور والتصديق ، وأصح سنداً ، وأقرب بالمسيحية الأولى رحماً ، فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت في العصر الحديث :

أقدم نسخة عرفت
لإنجيل برنابا

اتفق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الإنجيل ، نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية ، عثر عليها كريمر أحد مستشارى ملك بروسيا ، وذلك فى سنة ١٧٠٩ وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٧٣٨ إلى البلاط الملكى بهينا . وكانت تلك النسخة هى الأصل لكل نسخ هذا الإنجيل فى اللغات التى ترجم إليها ، ولكن فى أوائل القرن الثامن عشر أى فى زمن مقارب لظهور النسخة الإيطالية وجدت نسخة إسبانية ترجمها المستشرق سايل إلى اللغة الانجليزية ، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها إلا شذرات أشار إليها الدكتور هوايت فى إحدى الخطب ، وقد قيل إن الذى ترجم النسخة الأسبانية إلى تلك اللغة مسلم نقلها من الإيطالية إلى الأسبانية ، ولقد رجح المحققون أن النسخة الإيطالية السابقة هى الأصل للنسخة الأسبانية ، وذلك أنها قد قدمت بمقدمة تذكر أن الذى كشف النقاب عن النسخة الإيطالية التى كانت أصلا للنسخة الأسبانية راهب لاتينى اسمه فرامينو وأنه يقص قصصها ، فيقول : إنه عثر على رسائل لأيريانوس وفيها رسالة يتدد فيها بما كتبه بولس الرسول ، ويسند تنديده إلى إنجيل برنابا ، فدفعه حب الاستطلاع إلى البحث عن إنجيل برنابا ، وقد وصل إلى مبتغاه لما صار أحد المقرئين إلى البابا سككس الخامس ، فانه عثر على ذلك الإنجيل فى مكتبة هذا البابا ، فأخفاه بين أurdانه ، وطالعه ، فاعتنق الإسلام ، ويظهر أن تلك النسخة هى نفس النسخة التى عثر عليها سنة ١٧٠٩ ، ويقول فى ذلك الدكتور سعادة ، وإذا تحررت التاريخ وجدت أن زمن البابا سككس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر وقد علمت بما مر بك بيانه أن نوع الورق الذى سطر فيه إنما هو ورق إيطالى يمكن تعيين أصله من الآثار المائية التى فيه ، والتى يمكن اتخاذها دليلا صادقا على تاريخ النسخة الإيطالية ، والتاريخ الذى يحدسه العلماء من كل ما تقدم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وعليه فمن الممكن

أن تكون النسخة الإيطالية هي عينها التي اختاسها فرامينو من مكتبة البابا على مامرت الإشارة إليه .

الكلام في صحة
نسخة هذا الإنجيل

٣٩ — أقدم نسخة معروفة إذن هي النسخة الإيطالية عشر عليها في فجر القرن الثامن عشر ، ولكن وجودها يمتد إلى منتصف القرن الخامس عشر أو أول القرن السادس عشر ، وقد وجدت في جو مسيحي خالص ، لامظنة لأن تكون مدخولة عليهم ، فأول من عشر عليها في خزنة كتيبه رئيس ديني خطير وكشفها راهب ، ولما تداولتها الأيدي انتقلت إلى مستشار مسيحي من مستشاري ملك بروسيا ، ثم آلت إلى البلاط المالكي بفيينا ، فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم ، وهي منسوبة لقديس من القديسين لم يعرف بهذا الاسم سواه ، وله مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود إنجيل له أمر أعرف وأبين العلماء بهذا الدين ، فهذا فرامينو يقول إنه اطلع على رسالة لأريانوس يستنكر ما كتب بواس مستشهداً على استنكاره بإنجيل برنابا .

ويذكر التاريخ أن هناك أناجيل كثيرة حرمت قراتها الكنيسة كما أشرنا من قبل ، ويقول الدكتور سعادة ، يذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ بعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا . ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا جلاسيوس المنوه عنه إنما هو برمته تزوير ، ولكن التاريخ أصبح وأصدق من قول هؤلاء العلماء ، وإن كانوا محققين فأقوال العلماء والمؤرخين تترى في تحريم قراءة أناجيل كثيرة ، فإذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه ، وجرى على سنته من بعده أخلاف . وإذا صح ذلك الأمر كما يشهد التاريخ ، وكما تنفي عنه المقدمات والنتائج فإن إنجيل برنابا كان معروفاً متداولاً قبل بعثة النبي ﷺ ، بأكثر من قرنين ، وزعم الدكتور سعادة بأنه لو كان معروفاً في ذلك الألبان ، لعرفه النبي ﷺ واحتج به ، أو أخذ منه - زعم

باطل لأن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يرقم في البلاد التي سادتها المسيحية آ ماذا تمكنه من المعرفة والاطلاع ، ولأن مضي قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم ينتج أثره ، فيخفي ما كان ذائعاً ، ويدفن ما كان معلوماً مشهوراً ؛ فائتان من السنين تكفي لطمس الوجود ، وتعفية آثار المفقود .

وإن المسيحيين يجدون فيما اشتمل عليه ذلك الإنجيل أخباراً دقيقة عن التوراة ، حتى لقد يقول الدكتور سعادة إنك إذا أعملت النظر في هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إماماً عجيباً بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد لها مثيلاً بين طوائف النصارى إلا في أفراد قليلين من الاختصاصين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين ، كالمفسرين حتى إنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إمام بالتوراه يقرب من إمام كاتب إنجيل برنابا .

٤. — هذه بينات شاهدة ، وإن لم تبلغ مبلغ اليقين والجزم بأن نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا بالنسبة يرجح أن تكون صحيحة ، لأنه وجدت نسخته الأولى في جو مسيحي خالص ، وكان معروفاً قبل ذلك بقرون أن لبرنابا إنجيلاً ، وهو يدل على أن كاتبه على إمام تام بالتوراة التي لا يعرفها الرجل المسيحي غير الاختصاصي في علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من الاختصاصيين ، وإن برنابا كان من الدعاة الأولين الذين عملوا في الدعوة عملاً لا يقل عن عمل بولس ، كما تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلا بد أن تكون له رسالة أو إنجيل

ترجيح صدق النسبة
في هذا الإنجيل

هذه بينات تشهد بأن الإنجيلي الذي كشف وعرف صحيح النسبة ، ليس للسليين يد فيه ، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل في يده شيئاً يظن في حمله اتهاماً له ، فيسند ملكيته إلى غيره نقياً للتهمة عن نفسه ، فهل يقبل منه ذلك النقي من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه اتهاماً له ، وهل يقر القضاء ذلك النقي ، قد يقول قائل : إن هذه البينات كلها مرجحة ، وليست يقينية ، ونحن نقول إن أكثر مسائل التاريخ ترجيح ، وليست يقينية جازمة . فإذا كانت نسبة إنجيل برنابا إليه ظنية تقبل الاحتمال

فأما نأخذ بذلك الظن ، لأنه المأخذ في أكثر مسائل التاريخ ، والاحتمال الذي لا ينشأ عن دليل لا يلتفت إليه ، بجوار الاحتمال الناشئ عن دليل ، ووجود ذلك الإنجيل بلغة مسيحية وبين ظهراني المسيحيين ، وفي مكاتبهم الخاصة دليل على أن المسلمين ليست لهم يد فيه ، ولذلك رجح جمهور المحققين أن ليس لهم يد في إنشائه ، ولكن زعم بعضهم أن أصله عربي ، وهو زعم ليس له دليل ، وعلى مدعى ذلك الأصل أن يبرزه ، ويبين تاريخ تدوينه ، ومقدار نسبته

ولكن الدكتور سعادته يزعم أن أصله عربي بدليل أنه وجد على النسخة الإيطالية تعليقات عربية ، وأنه صرح في التبشير باسم النبي ، مع أن المعمود في البشارات الرمز لا النص ، ونحن نرد الأول بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها لأنه مستقيم التعبير أحياناً قليلة ، وسقيم العبارة في أحيان كثيرة ، ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الاسلامي ، ولا يتخذ من صلبه الإيطالي دليلاً على أصله المسيحي ، أما كون التبشير بالنبي ﷺ صريحاً فيه وليس بتلخيص ، فنحن لانسلم بأن كل التبشيرات في الكتب الدينية تلخيص نعم بعضها رمز وتلخيص ، ولكن ليس معنى ذلك نفي التصريح ، وعلى فرض أن كل تبشير تلخيص لا تصريح ، فالنص الإيطالي الذي بين أيدينا ترجمة لا نص ، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى ، فلم يسعفه في لغته التلخيص ، فنطق بالتصريح ، كما يفعل المسيحيون في كثير مما ترجموا من كتب من أصلها العبري .

ومن المؤكد أن ذلك الإنجيل لم يكن معروفاً عند المسلمين في غابهم وحاضرهم ، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة في كل العصور ، ولم يعرف أن أحداً احتج على مناظرة المسيحي بهذا الإنجيل ، مع أنه فيه الحججة الدامغة التي تغلب المسلم على المسيحي ، فدعوى وجود نسخه عربية كانت هي الأصل للنسخة الإيطالية ، فوق أنها لا دليل عليها مطلقاً ، ولو بطريق الوهم

هي تناقض أخبار التاريخ الاسلامى مناقضة تامة ، وإلا احتج المجادل عن الإسلام ، بها ففيها أقوى دليل ، والتاريخ لم يحفظ ذلك ، وهذى سجلاته ليستبطنوها ، وليعرفوا دخائلا ، فلن يجدوا شيئا يمكن دعواهم ويثبت قضيتهم .
٤١ — وإنجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير ، وسمو التفكير ، والحكمة الواسعة ، والدقة البارة ، والعبارة المحكمة ، والمعنى المنسجم ، حتى إنه لو لم يكن كتاب دين لكان فى الأدب والحكمة من الدرجة الأولى ، لسمو العبارة ، وبراعة التصوير .

قيمة الإنجيل برنابا
من حيث ما اشتمل
عليه

ولماذا نكره المسيحيون مع أن قوة النسبة فيه لا تقل عن قوة النسبة فى كتبهم الأربعة كما ذكرنا ؟ الجواب عن ذلك أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم فى مسائل جوهرية فى العقيدة ، ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الإنجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد فى مصادر الدين ، ليعرف أى الكتب أقرب نسبيا بالمسيحية الأولى ، أذلك الإنجيل بما خالف أم الرسائل والأناجيل التى توارثها ؟ ولكنهم سارعوا إلى الرفض والإنكار ، كما سبق أسلافهم إلى إنكاره من قبل .

والأمور التى خالف ذلك الإنجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص فى أربعة أمور :

خالفه إنجيل برنابا
لما عليه المسيحيون

أولها : أنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره إلها ، وقد ذكر ذلك فى مقدمته فقال : « أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افترقنا فى هذه الأيام بنيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم ، والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الحتان الذى أمر به الله دائما مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل فى عدادهم أيضا بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى . وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيتة . »

ويقول فى آخر الفصل الثالث والتسعين : « أجاب الكاهن إن اليهودية قد

اضطربت لآياتك وتعليمك حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله ، فاضطرت بسبب الشعب إلى أن آتى إلى هنا مع الوالى الرومانى والملك هيرودس فترجوك من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التى ثارت بسببك ، لأن فريقا يقول إنك الله ، وآخر يقول إنك ابن الله ، ويقول فريق إنك نبى . أجاب يسوع : « وأنت يا رئيس الكهنة ، لماذا لم تحمد الفتنة ، وهل جنزت أنت أيضا ، وهل أمست النبوات ، وشريعة الله نسيا منسيا ، أيتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان ولما قال يسوع هذا عاد فقال : إني أشهد أمام السماء ، وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برىء من كل ما قال الناس عنى ، من أنى أعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر ، عرضة للشقاء العام . »

ويقول فى الفصل السابعين : « أجاب يسوع وماقوله لكم أنتم فى ؟ أجاب بطرس : « إنك المسيح ابن الله ، فغضب حينئذ يسوع ، وانتهره بغضب قائلا : اذهب ، وانصرف عنى . لأنك أنت الشيطان ، وتريد أن تسيء إلى ، »

(الأمر الثانى) أن الذبيح الذى تقدم به إبراهيم الخليل عليه السلام للقداء هو إسماعيل ، وليس باسحق كما هو مذكور فى التوراة ، وكما يعتقد المسيحيون وهذا نص ما جاء فى إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : « الحق أقول لكم إنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا ، وفقهائنا لأن الملاك قال : يا إبراهيم ، سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ، حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم ها هوذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله ، فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا : « خذ ابنك بكرك ، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة ، فكيف يكون اسحق البكر ، وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين . »

(الأمر الثالث) هو كما يقول الدكتور سعادة بك : أن مسيا أو المسيح

المنتظر ليس هو يسوع ، بل محمد ، وقد ذكر محمداً باللفظ الصريح المتكرر في
فصول ضافية الذبول ، وقال إنه رسول الله ، وإن آدم لما طرد من الجنة رأى
مسطوراً أكتبت فوق بابها بأحرف من نور : لا إله إلا الله محمد رسول الله .
ولقد قال المسيح كما جاء في إنجيل برنابا : إن الآيات التي يفعلها الله على يدي تظهر
أنى أتكم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه ، لأنى
لست أهلاً لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسياً
الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية ، وإنك
لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاماً وافياً فى التبشير
بمحمد ﷺ ، لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم
به ، فصرح بما يعلن حقيقة ، ويبين ماله من شأن .

(الأمر الرابع) أن هذا الانجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب ،
ولسكن شبه لهم ، فالتقى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطى ، ويقول فى ذلك برنابا
: الحق أقول إن صوت يهوذا ، ووجهه ، وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن
اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع . كذلك خرج بعضهم من تعاليم
يسوع ، معتقدين أن يسوع كان نبياً كاذباً ، وإنما الآيات التى فعلها بصناعة
السحر ، لأن يسوع قال إنه لا يموت إلى وشك إنقضاء العالم ، لأنه سيؤخذ فى
ذلك الوقت من العالم ، ثم يبين أن يسوع طلب إلى الله أن ينزل إلى الأرض
بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه ، فنزل ثلاثة أيام ، ثم يقول : ووبخ كثيرين ممن
اعتقدوا أنه مات ، وقام قائلاً : أتحسبوننى أنا والله كاذبين ، لأن الله وهبى أن
أعيش ، حتى قبيل انقضاء العالم ، كما قد قلت لكم ، الحق أقول لكم انى لم
أمت بل يهوذا الخائن . احذروا ، لأن الشيطان سيجاول جهده أن يخدعكم .
ولسكن كونوا شهودى فى كل اسرائيل ، وفى العالم كله — لكل الأشياء التى
رأيتوها وسمعتها ، .

٤٢ — هذا هو إنجيل برنابا ، وما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية ، وفي الحق إنه خالف المسيحية القائمة في خصائصها التي امتازت بها فان تلك المسيحية امتازت بالتثليث ، وبنوة المسيح وألوهيته ، وكان هذا شعارها الذي بها تعرف ، وعلامتها التي بها تتميز ، وقد خالف كل هذا . وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة في ذلك الأمر الجوهرى ثابتة وهو ينسب إلى قديس من قديسهم — فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهراني المسيحيين وفي مكاتب من لا يهتمون بالكيد للمسيحية ، ومن لا يهتمون بأنهم لا يرجون لها وقارا — رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع ، فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضا باتا ، مادام قد أتى بما لا يعرفون هم ؛ ولا يعنون أنفسهم بدراسته دراسه علمية ، يهتمون فيها إلى نقضه جملة ، أو قبوله جملة ، أو قبول بعضه ، ورفض بعضه الذي يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده ، ومتمنا أقرب إلى العقل والفكر من متمنه

ولسكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته ، وموازنة نصوصه بالتوراة والأناجيل ورسائل رسلمهم ، بل القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ، وما هو مشهور عند المسلمين ، وإن أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية ، أن تعنى الكنيسة بدراسته ، ونقضه ، وتأتى لنا بالبيانات الدالة على هذا النقض ، وتوازن بين ما جاء فيه ، وما جاء في رسائل بولس ، ليعرف القارىء والباحث أيهما أهدى سبيلا ، وأقرب إلى الحق ، وأوثق به اتصالا .

رسائل رسلمهم

٤٣ — انتهينا في كلامنا السابق إلى ذكر الأناجيل ، وعرضها كما يقول المسيحيون ، وكنا في ذلك حاكين ، ولم نعن في ذلك بالنقد ، فان لذلك موضعه

والآن ننقل إلى القسم الثالث من مصادر المسيحية ، وهو رسائل رسلهم ، ويسمونها ماعدا رسالة أعمال الرسل الأسفار التعليمية ، كما يسمون الأناجيل ورسالة أعمال الرسل الأسفار التاريخية ، لأن الأناجيل تعنى بشرح حياة السيد المسيح وحكاية أحواله ، وبعض أقواله ومواعظه ، أما الرسائل فإنها تعنى بالناحية التعليمية التى تبين بها الديانة .

عدد الرسائل
وكاتبوها

والرسائل إثنان وعشرون رسالة . الأولى ، وتسمى أعمال الرسل ، وتنسب إلى لوقا صاحب الانجيل ، وأربع عشرة كتبها بولس ، وهى رسالة أهل رومية وكورنثوس الأولى والثانية ، وغلاطيه ، وأفسس ، وفيلبي ، وكولوسى ، وتسالونيكي الأولى والثانية ، وتيموثاوس الأولى وتيموثاوس الثانية ، وتيطس ، وفيلمون والعبرانيين . ورسالة كتبها يعقوت ، ورسالتان كتبهما بطرس ، وثلاث رسائل كتبها يوحنا ، ورسالة كتبها يهوذا . وهناك غير الاثنتين والعشرين رسالة رسالة يسمونها السفر النبوى ، وهى رؤيا يوحنا ، وهذه الرسالة فى منحائها ومنهجها تخالف الرسائل السابقة ، فبينما الرسائل السابقة وعظية تعليمية فى جملتها ، وتعرض كثيراً لذكره بنوة المسيح ، وتخليصه للعالم من خطيئته ، تجد رسالة رؤيا يوحنا اللاهوتى ، تعنى ببيان ألوهية المسيح وسلطانه فى السماء ، وعليه بحال الكنيسة والقوامين على المسيحية من بعده ، وهى تارة تصور الاله فى عليائه كشخص أشيب يشبه المسيح متمطقاً عند نديه بمنطقة من ذهب ، وعيناه كلهب نار ، وفى يده سبعة كواكب ، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فيه (الإصحاح الأول من الرؤيا) وتارة تصور المسيح خروفا قائماً كأنه مذبح له سبعة قرون وسبع أعين (الإصحاح الخامس) وتبين أن الناس يعرضون أمام الاله والمسيح ، ويخرون ساجدين ، ثم تصور الملائكة وأحوالهم وأعمالهم ، وهكذا فهى رسالة تشرح سلطان المسيح فى الملكوت ، وتبين أحوال الملائكة وخضوعهم للمسيح ونه .

٤٤ — وهذه الرسائل تشرح المسيحية الحاضرة بأكثر من الأناجيل وقد كتبت جميعها باليونانية كما يقول مؤرخوهم ، وللباحثين كلام كثير في شأن الرسائل ، وقوة سندها ، وقيمتها من حيث الاستدلال لهذا الدين ، ولسكننا نرجى القول ، في ذلك إلى الكلام في تقدم مصادر المسيحية نقداً علمياً ، ونكتفي الآن بعرضها . وذكرها محوطة بهالة من تقديسهم ، ومكثوة بتقديرهم ، وقد ذكرنا موجزاً لتاريخ يوحنا ، وعرفنا القاري به ، وهو صاحب الرؤيا ، وثلاث رسائل ، وبيننا لوقا ، وهو صاحب رسالة أعمال الرسل ، فلنعرف الآن بكلمات موجزة القاري بطرس صاحب الرسالتين ، ويعقوب ، ويهوذا ، ولكل رسالة ، وبولس وله أربع عشرة كما ذكرنا .

موجز حياة بطرس

فبطرس من حوارى المسيح وكان اسمه الأصلي سمعان ، وكان صياد سمك ، وقد جال بعد المسيح للتبشير ، فذهب إلى إنطاكية ، وغيرها ، ثم ذهب إلى رومة سنة ٦٥ فقبض عليه وزج في السجن ، وحكم عليه بالموت صلباً في زمن نيرون على مانوهنا ، وقد طلب أن يصلبوه منكساً ، حتى لا يتشبه بالمسيح ، وقد علمت أن صاحب مروج الأخبار في تراجم الأبرار يخبر أن بطرس وتلميذه مرقس صاحب الإنجيل الذى كان يعبر عنه بابنه كلاهما كان ينكر الوهية المسيح ، ويعقوب صاحب الرسالة هو يعقوب بن زبدي الصياد ، أخو يوحنا ، وكان حوارياً كأخيه ، ويقولون إنه أول أسقف لكرسى أورشليم ، ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية ، كان لشهرته بالطهارة يعرف يعقوب البار ، وقد اغتاظ منه رؤساء اليهود ، فحكموا عليه بالموت في مجيعهم ، فاترجماً سنة ٦٢ وكان قد كتب رسالته سنة ٦١ م .

ترجمة يعقوب
صاحب الرسالة

ترجمة يهوذا

وأما يهوذا ، وهو حوارى ، ويقولون إنه يدعى لباوس ، ولقب تداوس وهذا هو الاسم الذى ذكر في إنجيل متى ، ولسكن في إنجيل برنابا يقرر أن يهوذا غير يهوذا الأسخريوطى الذى شهد على المسيح وخانه ، وغير تداوس ، ويقولون : إنه

أخو يعقوب الصغير ، وعلى هذا يكون لزبدى الصياد ثلاثة من الحواريين
ولكن متى لما ذكر يعقوب ويوحنا ذكر أمامهما أنهما ولدا زبدى الصياد ،
ولم يذكر ذلك أمام نداوس !! وعلى أية حال فليهوذا هذا رسالة منسوبة إليه
وقد قالوا إنه مات شهيداً ببلاد العجم .

ترجمة بولس

٤٥ — بولس ولنتنقل الآن إلى الكلام في بولس والتعريف به ، وإن
لبولس هذا لشأناً في المسيحية ، فهي تنسب إليه أكثر مما تنسب لأحد سواء
فرسائله هي التي شرحتها ، وقد كان بنشاطه الجم ، وتطوافه في الأقاليم مشرقاً
ومغرباً ، لا يستقر في مكان على نية الإقامة فيه ، بل على قصد في الرحيل إلى
غيره - أشد دعائها ، وقد تأثر المسيحيون خطاه ، وتعرفوا أخباره ، وأقواله ، مادونه
منها في رسائله ، وما ألقاه في الجموع وتناقلوه ، وإن لم يدونه هو ، وتأثروا
أعماله فاحتذوا حذوه ، وسلكوا مسلكه ، واعتبروه القدوة الأولى ، فلا بد
إذن من العناية بتاريخه ، لتعرف أكانت منزلته في المسيحية الأولى كمنزلته
في المسيحية الحاضرة ، حتى يصلح أن يكون حلقة الاتصال بينهما ، وناقل
الأولى إلى أهل الثانية ، ولنتبين أنه صادق النقل ، حتى تكون الأولى والثانية
شيئاً واحداً ، وليستا شيئين مختلفين . وإنا في حكاية بدايته ونهايته سنعتمد
على المصادر المسيحية وحدها ، كسنتنا فيما أسلفنا من القول ، حتى لا نتزيد
عليهم ، ولكي نعرض الرجل كما هو عندهم .

في سفر أعمال الرسل تفصيل حياة بولس ، وقد أخذت أعماله من ذلك
السفر الشطر الأكبر . وقد جاء فيه أن مولده كان في طرسوس ، وتربى في
أورشليم ، وإسمه الأصلي شاول . وهذا نص الفقرة الثالثة من الإصحاح الثاني
والعشرين حكاية عنه : « أنا رجل يهودى ولدت في طرسوس كيليكه ،
ولكن ربيت في هذه المدينة (أورشليم) ، ولقد جاء أنه من الفريسيين الذين يقولون
إن هناك قيامة يشاركون فيها ملك المسيح في الدنيا . فقد جاء في الإصحاح

الثالث والعشرين ، « ولما علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون ، والآخرون فريسيون ، صرح في المجمع ، « أيها الرجال الاخوة : أنا فريسي ابن فريسي على رجاء قيامة الأموات . أنا أحاكم ، .

ونجد كتاب المسيحية متفقين على أنه من اليهود ، ولكن جاء في سفر أعمال الرسل أيضاً ما يدل على أنه روماني ، ففي آخر الأصحاح الثاني والعشرين منه ما نصه : « فلما مدّوه للسياط قال بولس لقائد المائة الواقف . أيجوز لكم أن تجلدوا إنساناً رومانياً غير مقضى عليه ، فأذ سمع قائد المائة ذهب إلى الأمير وأخبره قائلاً : انظر ماذا أنت مززع أن تفعل ، لأن هذا الرجل روماني . فجاء وقال له : قل لي أنت روماني : فقال نعم . فأجاب الأمير . أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية ، فقال بولس أما أنا فقد ولدت فيها ، وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه ، واخذشى الأمير ، لما علم أنه روماني ، ولأنه قيده . . وهذان بلا ريب نصان متعارضان . لعل أرجحهما أنه يهودي ، لأنه ذكر أنه روماني عند ما رأى أن جسمه سيكوى بالسياط . فأعمل الحيلة ، عساه يجد مخرجاً ، فادعى أنه روماني لينجو جلده ، وقد تم له ما أراد بتلك الحيلة التي احتالها في انتسابه . وأصر عليها عند ما روجع فيها ، ولكن لو اتخذنا من قرائن الأحوال دليلاً على كذب ادعائه الرومانية ، وأنه قالها خلاصاً واحتيالا لورد مثل ذلك عند ما قال إنه يهودي لأنه كان يخاطب جمعاً يهودياً عمل للقبض عليه ، ولقد صرح في سفر الأعمال أنه قال إنه فريسي ليوقع الخلاف بين الصدوقيين والفريسيين ، فقد جاء فيه عند ذكر إقراره بأنه فريسي : « ولما علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون والآخرون فريسيون ، الخ فهو ما صرح بهذا التصريح إلا ليوقع الفرقة بينهم . وبنجو من كيدهم بتدبير فريق منهم ، وقد تم له بعض ما أراد ، فاختلفوا وجرى بينهم نزاع شديد كما دلت على ذلك الفقرات التي ذكرت من بعد في

الأصحاح الثالث والعشرين من سفر الأعمال . وإذن فلا نستطيع أن نستبين جنسه من هذا على وجه تطمين إليه النفس .

٤٦ — ومهما يكن من أمر جنسه ، فقد كان بولس هذا في صدر حياته من أشد أعداء المسيحية ، وأبلغهم كيداً لها ، وأكثرهم إمعاناً في أذى معتنقها ، كما يدل على ذلك ما جاء في سفر الأعمال في مواضع كثيرة منه . ففي الأصحاح الثامن منه ، « وحدث في ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل ، وحمل رجال أنقياء استفانوس ، وعملوا عليه مناحة عظيمة ، وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ، ويجر رجالاً ونساء ، ويسلمهم إلى السجن ، وجاء في أول الأصحاح التاسع : « أما شاول فكان لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرب ، فتقدم إلى رئيس السكينة . وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم ، ويجي . في ذلك السفر أيضاً اعترافه الصريح بذلك الماضي في مواضع متعددة أيضاً . ففيها ما جاء في الأصحاح الثاني والعشرين مخاطباً اليهود : « كنت غيوراً لله ، كما أنتم جميعكم اليوم ، واضطهدت هذا الطريق ، حتى الموت مقيداً ومسلماً إلى السجن رجالاً ونساء ، كما يشهد لي أيضاً رئيس السكينة ، وجمع المشيخة الذين إذا أخذت منهم رسائل للاخوة إلى دمشق ، ذهبت لآتي بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا ، .

ولكن سفر الأعمال يقول إن ذلك الرجل الذي كاد للمسيحية هذا السكيد وأذى أهلها ذلك الأيذاء ، قد انتقل من الجبوت والطاغوت إلى المسيحية فجأة من غير مقدمات تقدمت ذلك الانتقال ، ولا تهديدات مهدت له . فيقول في الأصحاح التاسع : « في ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق ، فبغته أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض ، وسمع صوتاً قائلاً له : شاول . شاول :

لماذا تضطهدين . فقال من أنت ياسيد ؟ فقال أنا يسوع الذى أنت تضطهده ، صعب عليك أن ترفس مناخس ، فقال وهو مرتعد متحيرا رب ماذا تريد أن أفعل . فقال له الرب قم وادخل المدينة ، فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل ، دخل بولس أو شاول فى المسيحية ، وحاول أن يتصل بتلاميذ المسيح ، ولكنهم أوجسوا منه خيفة ، ولم يصدقوا إيمانه ، ولكن شهدله برنابا الذى حدثناك عنه بالايمان ، وما حدث له فى الطريق : فقد جاء فى الاصحاح التاسع أيضا من السفر المذكور ، ولما جاء شاول حاول أن يلتصق بالتلاميذ ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين ، فأخذه برنابا ، وأحضره إلى الرسل ، وحدثهم كيف أبصر الرب ، وأنه كلمه ، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع ، ومن ذلك الوقت صار بولس القوة الفعالة ، والحركة الدائبة فى الدعاية المسيحية ، كما تدل على ذلك عبارات سفر الاعمال ، وقد اضطجب فى رحلاته برنابا ، حتى اختلفا كما ذكرنا فى الكلام على برنابا ، فلما اختلفا افترقا . وهناك نجد حلقة مفقودة ، فلم يبين لنا سفر الاعمال على من تلقى مبادئ المسيحية التى أخذ يبشر بها ، والتى دونها فى رسائله الأربع عشرة ؛ والتى يضيف إليها بعض الكتب سفر الاعمال ، وينسبه اليه بدل نسبته إلى لوقا ؟ لم تبين لنا الكتب المسيحية على من تلقى مبادئ المسيحية ؟ ولعلمهم يعتقدون أنه ليس فى حاجة إل التلقى ، لانه انتقل من مرتبة الكافر المناوىء إلى مرتبة الرسل فى المسيحية . وصار ملهما ينطق بالوحى فى اعتقادهم ، فلم يكن فى حاجة إلى التعلم والدراسة ، لأن الوحى كفاه مؤونة الدرس وتعبه .

لقد أخذ بولس فى التطواف فى الاقاليم ينشئ الكنائس ، ويقوم بالدعاية ويلقى الخطب ، وينشئ الرسائل ، حتى كانت رسائله هى الرسائل التعليمية بما اشتملت عليه من مبادئ فى الاعتقاد ، وبعض الشرائع العملية ، وقد قالوا إنه قتل فى اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو سنة ٦٧ على الخلاف فى ذلك .

٤٧ — إن الذى يستخلص من أحوال وأقوال بولس التى دونت فى رسائله وأعماله وأقواله التى ذكرها سفر أعمال الرسل ، أنه امتاز بثلاث صفات جعلته فى الذروة من الدعاة إلى المبادئ والعقائد : الصفة الأولى أنه كان نشيطاً دائماً الحركة ذا قوى لا تكل ، وذا نفس لا تمل . والصفة الثانية أنه كان المعياً شديداً الذكاء بارع الحيلة ، قوى الفكر يدبر الأمور لما يريد بدهاء الالمى ، وذكاء الأروعى يسدد السهام لغاياته ومآربه ، فيصيدها . الصفة الثالثة أنه كان شديداً التأثير فى نفوس الجماهير ، قوى السيطرة على أهوائهم ، قديراً على انتزاع الثقة به ممن يتحدث اليه .

وبهذه الصفات الممتازة ، وبهذه القدرة البارعة استطاع أن يجعل نفسه محور الدعاة للمسيحية ، وقطبهم ، وأن يفرض ما ارتآه على المسيحيين ، فيعتنقوه ديناً ، ويتخذوا قوله حجة زاعمين أنه رسالة أرسل بها ، وبهذه الصفات الباهرة استطاع أن يحمل صديقه برنابا على أن يصدق فى رؤيته المسيح ، واستطاع أن يحتل المنزلة الأولى بين التلاميذ ، وقد كان بلائهم ، وكيد الشيطان لهم ، وبهذه الصفات القوية استطاع أن يحملهم على نسيان ماضيه ، وأن يندغموا فى شخصه . حتى يصير هو كل شيء ، وهم لا يستطيعون رد قوله فى الجماهير ، وحتى لقد صارت المسيحية الحاضرة مطبوعة بطابعه ، منسوبة اليه ، ولقد يعجب الذين درسوا البيانات ، وعرفوا أحوال رجالها ، وأدوارهم ، فيقولون : كيف ينتقل رجل من كفر بديانة إلى اعتقاد شديد بها طرفة ، من غير سابق تمهيد ولكن ذلك العجب يزول إن كان الانتقال مقصوراً على مجرد الانتقال من الكفر إلى الإيمان ، فإن لذلك نظائر وأشباها ، بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق إلى الرسالة فى الدين الذى كفر به ، وناوأه وعاداه ، فإن ذلك ليس له نظير ، وليس له مشابه ، ولم يعهد ذلك فى أنبياء ورسل قط ، وهذه تورااة اليهود وأسفار العهد القديم التى يؤمن بها المسيحيون كباراً ووجهاً ، وكما قالوها ليذكروا لنا

رسولا بعث من غير أن يكون في حياته الأولى استعداد لتلقى الوحي، ووصفاء
نفس يجعله أهلاً للإلهام ؟ ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته ،
وإنه إذا لم يكن للرسالة إرهابات قبل تلقيها ، لا يكون على الأقل قبلها ما ينافيها
ويناقضها ، ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب في
عصره ، وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده ، وأن يحملهم على نسيان
العقل عند ما يدرسون أقواله وآراءه ، وتعاليمه . بيد أن العقل يخترق بنوره
كل الحجب ، ويزيل بضوئه كل أسداف الظلم ، ولو قاوم في سبيل ذلك براعة
بولس وذكاءه ، ولذا وجد في العصور المسيحية من كانوا يثيرون مناقشات قوية
حول أقوال بولس منكرين لها مبطلين ، ونسارع فنقول مقالة القس عبد الواحد
« إن بولس يبجل ويعظم رجلاً اسمه عيسى أميت ومات ، وحي فقط ، وأن
خمس عشرة رسالة من كتب العهد الجديد تحمل اسم الرسول المشار إليه ، فلا
محل للحيرة إذا قلت إن المؤسس الحقيقي للمسيحية الحاضرة هو بولس فان
شاؤك الشاب الطرسوسي من سبط بنيامين . ومن مذهب الفريسيين وتلميذ
أحد علماء الدهر عضو مجلس صانهدرين المدعو عمائل ... الذي كان يجتهد
في محو اسم عيسى وأتباعه من الأرض ، والذي رأى أخيراً عدوه الناصري
في السماء لامعاً داخل الأنوار ، وقت الظهر أمام دمشق ، اهتدى وسمى باسم
بولس ، هو الذي وضع أساس العيسوية ، والقسم الأعظم من أعمال الرسل
يبحث عن سياحات بولس الطويلة وجهوده ومتاعبه ، فهل هو صادق في النقل
عن المسيح ، والأخبار عنه ؟ للأجابة عن هذا السؤال موضعها عند الكلام في
الإلهام الذي نحلوه لرسائلهم ، ونقد الكتب نقداً علياً .

كتب العهد القديم
والأناجيل والرسائل
كتب بالإلهام في
اعتقادهم

٤٨ — إلى هنا قد بينا الكتب ، وذكرنا طرفاً من حياة منشئها ، وأحوالهم
ومقدار الاختلاف في نسبة الكتب إلى أصحابها ، وقبل أن تنتقل إلى نقد هذه
الكتب نقداً علياً في متنها وأسنادها ، نقول إن المسيحيين يقولون إن هذه الكتب

كلها ، كتبت بالالهام أى بالوحى عن طريق الالهام ، وإنما لذلك لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها ، فهى حق وصدق ، لأنه موحى بها ، وسواء فى ذلك كتب العهد القديم ، والعهد الجديد ، سواء أكانت أناجيل أم رسائل تعليمية أم رسالة النبوة ؛ ولذا يقول مؤلفو موجز تاريخ الأمة القبطية فى شأن الكتاب المقدس : « الكتاب المقدس هو مجموع الأسفار التى كتبها رجال الله القديسون بالهام الروح القدس فى أوقات مختلفة ، وفيها أعان الله مشيئته ووصاياه ، وما قطعه من المواعيد ، وما فرضه من المثوبة ، وما فيه إرشاد الناس وخيرهم ، وخلصهم وما أتمه من عمل الفداء ، وبمراجعة ما كتبه شراحهم وعلماؤهم نفهم أن الالهام عندهم ، هو الالهام فى المضمون الرئيسى ولذا يقول هورن : « إذا قيل إن الكتاب المقدس أوحى بها من عند الله لا يراد أن كل الألفاظ والعبارات من إلهام الله ، بل يعلم من اختلاف محاورات المصنفين واختلاف بيانهم أنهم قد جوز لهم أن يكتبوا ، على حسب طباعهم وعاداتهم وفهومهم ، واستعمل علم الالهام على طريقة استعمال العلوم الرسمية . ولا يتخيل أنهم كانوا يلهمون فى كل أمر يبينونه ، وفى كل حكم كانوا يحكمون به ، إذن لم تكن كل الكتاب المقدسة ملهمة من حيث أسلوب البيان ، ومن حيث التصرف فى التعبير ، ومن حيث كل ما تشتمل عليه من معان ، بل موضع الالهام فقط المعانى الرئيسية أو الرسمية ، وبقية الأفكار والمعانى على حسب الطبائع والأفهام والعادات .

نظرة فاحصة

٤٩ — عرضنا على القارئ كلام القوم فى كتبهم ، وحاولنا أن نكون حاكين ، ولم نعلق عليها ، ولم ننقدها ، ولم ننبه إلى وهنها ، إلا إذا كان ذلك التنبيه قد سبق إليه علماؤهم ، والباحثون منهم ، ووجهوا هم النقد إليه ، أو كان

الأمـر من الـوضوح . بـحث يـكون المـرور عـليه من غـير تنـبيه إـلى مـوضع الـضعف يـجعل البـحث غـير مـنسق ، وبـعيداً عـن الـانسجام الفـكري . والآن نـريد أن نـنتقل من النـظرة الحـاكية المـتغاضية إـلى النـظرة الفـاحصة الكـاشفة ، ولـسنا نـريد أن نـحصى كل أوجه النـقد الـتي وـجـهت ، فإن ذـلك يـحتاج بـيانه إـلى مـجلدات ضـخام لـكثرتها ، وتـعدد نـواحيها ، وكـثرة دواعيها ؛ ولـكننا نـكتفي بإبراد بـعضها ، ونـترك الباقى للإطـلاع عـليه فى مـصادره المـسيحية و غـير المـسيحية .

ما يجب أن يكون
فى الكتاب الدينى
من صفات ليكون
حجة

لأجل أن يكون الكتاب الدينى حجة يجب الأخذ به على أنه شريعة الله ودينه ، وبمجموع أوامره ونواهيه ، ومصدر الاعتقاد ، وأساس الملة يجب أن يتوافر فى هذا الكتاب أمور : أحدها ، أن يكون الرسول الذى نسب إليه ، قد علم صدقه بلا ريب ولا شك ، بأن يكون قد دعم ذلك الصدق بمعجزة أى بأمر خارق للعادة قد تحدى به المنكرين المسكذيين ، وأن يشتهر أمر ذلك التحدى وهذا الإعجاز ، ويتوارثه الناس خلفاً عن سلف ، ويتواتر بينهم تواتراً ، لا يكون للإنسان مجال لتكذيبه .

ثانيها : ألا يكون ذلك الكتاب متناقضاً مضطرباً يهدم بعضه بعضاً ، فلا تتعارض تعليماته ، ولا تتناقض أخباره بل يكون كل جزء منه متمماً للآخر ، ومكملاً له ، لأن ما يكون عن الله لا يختلف ولا يفترق ، ولا يتناقض ، بل إن العقلاء فى كتبهم يتحرون ألا يتناقض قوالمهم ، ولا يختلف تفكيرهم .

ثالثها : أن يدعى ذلك الرسول أنه أوحى إليه به ، ويدعم ذلك الادعاء بالبينات الثابتة ، وهى المعجزات التى بعث بها الرسول ، ودعا إلى كتابه على أساسها ، ويثبت ذلك الادعاء بالخبر المتواتر ، أو يثبت بالكتاب نفسه .

رابعها : أن تكون نسبة الكتاب إلى الرسول الذى نسب إليه ثابتة بالطريق القطعى ، بأن تثبت نسبة الكتاب إلى الرسول ، بحيث يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف جيلاً بعد جيل من غير أى مظنة للانتحال . وأساس ذلك التواتر

أن يروى جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ، حتى تصل إلى الرسول بحيث يسمع كل فرد من الجمع الراوى عن الجمع الذى سبقه ، والذى سبقه كذلك حتى يصل إلى الرسول الذى أسند إليه الكتاب ، ونسب إليه ، ونزل به الوحي عليه .

٥. — إن الكتب فى الدين هى أساسه ؛ فإن لم تكن مستوفية للشروط السابقة لم يكن الاطمئنان إلى صحتها كاملا ، وتطرق إليها الريب والظن من كل جانب ، وبذلك يهدم الدين من أساسه ، ويؤتى من قواعده ؛ ولا يكون شيئا مذكورا فى الأديان ، بل يكون طائفة من أساطير الأولين اكتسبها طائفة من الناس ، وادعوا دينها ، ونسبوها لشخص معترف به ، لتروج عند العامة ، وتدخل فى أوهامهم ، ويعتمدون على الزمان فى تمكينها فى نفوسهم وقلوبهم ، وهل الكتب المقدسة عند النصارى سواء أكانت من كتب العهد القديم أم العهد الجديد ، مستوفية هذه الشروط ، فتكون ملزمة للكافة ؟

تطبيق هذه الشروط
على كتب النصارى

لا يزعم النصارى أن هذه الكتب كتبها المسيح نفسه ، حتى ننظر فى قوة نسبتها إليه ، ولكن يزعمون أن الذين كتبوها رسل من بعده مبعثون بها يبشرون الناس بما فيها ، فلنبحث هل هؤلاء رسل حقاً وصدقا قد ثبتت رسالتهم بدليل لا مجال للريب فيه ؟ لقد قلنا إن الطريق لذلك أن يدعوا هم هذه الرسالة ويثبتوها بمعجزة يجرىها الله على أيديهم ، ويتحدوا الناس ، ليدفعوهم إلى الإذعان أو ليسجلوا عليهم الكفر بعد أن يقوم الدليل عليهم . إننا نبحت فى مراجعهم فلا نجد مرجعا صحيحا قرر أن هؤلاء قد ادعوا مثل هذه الرسالة ، ودعوا الناس إلى الإيمان بها ، ومعهم البرهان عليها ، والدليل القائم الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . نعم قد نجد فى رسالة أعمال الرسل إذكرنا لأخبار تلاميذ المسيح ، وأن روح القدس تجلى عليهم ، وأنهم كانوا يأتون بأمور خارقة للعادة ، وسماهم كاتب تلك الرسالة رسلا ، ففيها يذكر أن عدد

سفر الأعمال هو
المصدر الوحيد
لأخبار الرسل
ونقصهم والخوارق
التي جرت على
أيديهم

الأصحاب بعد المسيح أحد عشر ، وهم : بطرس ، ويعقوب ، ويوحنا وأندراوس ، وفيلبس ، وتوما ، وبرثولماوس ، ومتى ، ويعقوب بن حلفي وسمعان الغيور ، ويهوذا اخو يعقوب ، وأن بطرس وقف وألقى في وسط التلاميذ الذين بلغوا نحو عشرين ومائة خطبة وأنهم امتلئوا جميعاً بروح القدس وتكلموا بالسنة غير السنهتهم ، ثم يذكر أن بطرس شفى أعرج من عرجه ، ومات من كذب عليه ، بعد أن كشف كذبه واختلاسه ، هو وامرأته ، ذكر سفر الأعمال هذا ، وذكر عجائب أتى بها بولس في زعمه في آخر ذلك السفر أيضاً . وكذلك نجد في إنجيل لوقا أنه يذكر أن المسيح أرسل سبعين رجلاً ليبشروا باسمه ، وأنهم عادوا يقولون له : « يارب حتى الشياطين تخضع لنا باسمك ، فقال لهم رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء ، ها هذا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب ، وكل قوة العدو ، فلا يضركم شيء ؛ ولكن لا تفرحوا بهذا إن الأرواح تخضع لكم ، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كتبت في السموات . »

مناقشة ادعاء الإلهام
في سفر الأعمال

٥١ — ونريد أن نناقش سفر أعمال الرسول وإنجيل لوقا في هذا المقام لنعرف منه من هم هؤلاء الرسل ، لم يذكر سفر الأعمال أسماء العشرين والمائة الذين ملئوا من روح القدس ، نعم إنه ذكر أسماء الخواريين الاحد عشر ، وليس منهم من ينسب اليه كتب أو رسائل ، سوى متى وبطرس ، ويوحنا ، ويعقوب ويهوذا . وقد علمت بعض ما في نسبة إنجيل متى ويوحنا اليهما . وأما بطرس والباقيون فلهم رسائل ، ولم يكن معترفا بصحتها هي ورسائل يوحنا إلى سنة ٣٦٤ حتى إن مجمع نيقية لم يعترف بصحة نسبتها إلى أصحابها . وقد كان سنة ٣٢٥ .

وإذا كان سفر الأعمال لم يذكر أسماء العشرين والمائة ، ولم يذكر كذلك إنجيل لوقا أسماء ، فكيف نؤمن برسالة رسل لم تعرف أسماؤهم ، نعم كانت تذكر بعد ذلك أسماء أشخاص ، ويوصفون بأنهم رسل ، ولكن لم يذكر أهم من العشرين والمائة ، أم ليسوا منهم ، ومن المؤكد أن بولس لم يكن في العدد الذي ذكر

في الأعمال ، ولا في العدد الذي ذكر في إنجيل لوقا .

إذن لا مقلع فيما جاء في سفر الأعمال ، ولا في إنجيل لوقا ، لأنه لم يذكر أسماء هؤلاء معينين بالاسم . ثم من هو مؤلف سفر الأعمال . قالوا إنه لوقا صاحب الإنجيل . إذن فالمصدر هو لوقا في الاثنين ، ولوقا قد بينا أنه طيب وقيل إنه مصور ، أو هو طيب ومصور . فهل هو كان من تلاميذ المسيح أو كان من تلاميذ تلاميذه . لم يثبت شيء من ذلك ، وكل ما ثبت من صلته برجال المسيحية أنه كان من أصحاب أو تلاميذ بولس ، وإذن فروايتة عن هؤلاء وعن المسيح ليست رواية من شاهد وعين ؛ وعلى ذلك يكون السند غير متصل بين لوقا والمسيح ، أو تلاميذ المسيح .

الرسال غير معروفين ٥٢ — لم تعرف إذن حقيقة هؤلاء الرسل ، ومن هم بسند صحيح ، فضلا عن أن يكون السند قطعيا ، وإذا كنا لا نعرف من هم ، فكيف نؤمن لهم بمعجزات ، إن المصدر الذي ذكر المعجزات هو نفس المصدر الذي ذكر الرسل من غير أن يبين من هم ، وهو راو ولم يعين ولم يشاهد . وعلى ذلك يكون الكلام في الإلهام ، وأنهم رسل ملهمون لم يثبت بسند يصح الاعتماد عليه ، والاطمئنان إليه ، وبناء عقيدة تشرق وتغرب على أساسه . ولكننا لا نكاد ننتهي إلى هذه النتيجة حتى نجد من مجادلي القوم ، والمناظرين عنهم من يزعمون أن لوقا نفسه ، صاحب سفر الأعمال ، وصاحب الإنجيل كان من الرسل الملهمين فهو لا يحتاج إلى سند ، لأن كل كلامه من الروح القدس الذي ملأه ، كما ملأ إخوانه الرسل ، ولكن أين معجزته التي تثبت إلهامه ، حتى نصدق كل ما جاء في كتابيه ، ويؤمن مؤمن (يحترم الايمان) بكل ما اشتملا عليه ، لم يرد عندهم أي شيء يدل على إلهام لوقا ، وأنه كان من العشرين والمائة الذين ألقى فيهم بطرس خطبته ، وامتلأوا بروح القدس في زعمه ، ولم يكن من السبعين الذين أرسلهم المسيح (كما ذكر في إنجيله) وأخضعوا الأرواح ، وأخبرهم أن أسماءهم كتبت في السماء

ولسنا في ذلك إلا مطالبين بأن يثبتوا إلهام لوقا ، لنصدق بخبره عن الرسل وأعمالهم وعن إلهامهم ، وامتلائهم بالروح القدس ، وإعجازهم . لا يوجد أمامنا أى دليل يثبتون به إلهام لوقا فيما كتب ، حتى كنا نصدق في كلامه عن الرسل الذين تجلى عليهم الروح القدس ، وامتثلوا منه ، وإن كنا لا نعرف أشخاصهم ، ولا شيئاً عن أسمائهم وأعمالهم . بل لقد وجدنا من كتاب القوم الباحثين من يصرح بأن لوقا لم يكن من الملهمين ، وأن إنجيله لم يكن إلهامياً ، وبالأولى رسالته لم تكن بإلهام . فقد قال من المحدثين واطسن في المجلد الرابع من كتابه الإلهام ما ترجمته : « إن عدم كون تحرير لوقا إلهامياً يظهر مما كتب في ديباجة إنجيله ونصها : إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المستيقنة عندنا ، كما سألها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين ، وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به ، وبمثل هذا القول من أن ما كتب لوقا ليس بإلهامى قال العلماء الأقدمون من المسيحيين ، فيقول أرينيوس إن الأشياء تعلمها من بلغها إلينا .

لوقا صاحب سفر
الأعمال لم يكن ملهماً

٥٣ — لم يكن إذن لوقا ملهماً ، لأنه لا يوجد دليل يثبت إلهامه ، ولأن مقدمة إنجيله كمقدمة رسالته تدل على أنه لم يكن ملهماً ، ولأن الثقات من العلماء الأقدمين والمحدثين يقررون أنه لم يكن ملهماً فيما كتب ، بل كتب ما تعلم ، ولأن ، لا ما أوحى به وألم . وإذا كانت رسالة الأعمال هي المصدر المثبت لإلهام الرسل وامتلائهم بالروح القدس ، فيكون ذلك المصدر قد فقد صلاحيته للاعتماد عليه ، لأنه لم يكن متصل السند بين لوقا والتلاميذ والمسيح ، ولأن لوقا لم يكن ملهماً . وهذا كله على فرض صحة نسبة ما أسند إلى لوقا إليه ، وفي تلك الصحة كلام سنثتبه في موضعه من بحثنا إن شاء الله .

ليس عندنا إذن دليل نقلى عندهم يثبت رسالة من يسمونهم رسلا ، ويثبت

معهم أنهم كتبوا بالالهام ، حتى يعتبر كلامهم وحياً أوحى به ، ويجب تصديقه وقبوله ، ولا نجد من السكتب ما يؤيد هذه الدعوى ويثبتها ، بل إن راجعنا هذه السكتابات لانجد أن كتابها يدعون لأنفسهم أنهم رسل ماعدا رسائل بولس ، فإن كاتبها كان حريصاً على ادعاء الرسالة في أكثرها ، مع أن بولس بالاجماع لم يكن من تلاميذ المسيح الاثني عشر ، ولا من تلاميذه العشرين والمائة ، ولا من السبعين الذين ذكرهم لوقا . وقد رأينا بطرس في رسالتيه يقدمهما بأنه رسول يسوع المسيح . ولم يذكر لنفسه وصف الرسالة المطلقة . ولا نجد في عباراتهم ما يدل على أنهم كتبوا بالالهام ، إلا رسائل بولس ، فهو الذى يذكر في رسالته أنه يتكلم عن الله ، وأحياناً يقول إنه يتكلم من نفسه . وإذن فلنا أن نقول إن أصحاب هذه السكتب والرسائل لا يدعون لأنفسهم الرسالة والالهام إلا بواسطه الذى كانت صلته بالمسيحية على ما علمتم ، وليس في كتبها ما يشهد له بالرسالة والالهام ، بل الإيمان إلا سفر الأعمال ، وقد علمت قوة الاستدلال به ، والاعتماد عليه في الاحتجاج والاثبات .

٥٤ - وفي الحق إن دعوى إلهام الرسل في كل ما كتبوا لم تكن محل إجماع من كتاب المسيحيين في القديم والحديث ، فطائفه من علماء إنجلترا قالوا في مؤلف كتبوه ^(١) إن الذين قالوا إن كل قول مندرج في السكتب المقدسة الهامى لا يقدر أن يثبتوا دعواهم بسهولة ، ثم قالوا إن سألنا أحد أعلى سبيل التحقيق أى جزء يعتبر من العهد الجديد إلهامياً ، قلنا المسائل ، والأحكام ، والأخبار بالحوادث الآتية التى هى أصل الملة المسيحية - لا ينفك الإلهام عنها ، وأما الحالات الأخر فكان حفظ الحوارين كافياً لبيانها ، وترى من هذا أن بعض العلماء لا يرون أن كل ما في كتب العهد الجديد إلهامى ، بل منه الإلهامى وغير الإلهامى

دعوى الإلهام ليست محل إجماع المسيحيين

(١) اليساى كلويديا برتنيكا .

نقى بعض المسيحيين
الإلهام عنهم من
كل الوجوه

ولكن هناك من يقول : إنه يشك في أصل الإلهام فيها ، فهذا عالم مسيحي يقال له ريس يقول ناقلاً حاكياً بعض أقوال المتقدمين : « إن الناس قد تكلموا في كون الكتب المقدسة إلهامية ، وقالوا إنه يوجد في أفعال مؤلفي هذه الكتب وأقوالهم أغلط ، واختلافات ، فثلاً إذا قوبلت الآيات ١٩ ، ٢٠ من الأصحاح العاشر من متى ، و ١١ من الأصحاح الثالث عشر من إنجيل مرقس إذا قوبلت هذه الآيات بالآيات الست التي في سفر الأعمال في أصحاحه الثالث والعشرين يظهر ذلك الاختلاف جلياً ، وقيل أيضاً إن الحواريين ما كان يرى بعضهم بعضاً صاحب وحى ، كما يظهر هذا من مباحثهم في محفل أورشليم ، ومن إلزام بولس لبطرس ، وقيل أيضاً إن المسيحيين القدماء ما كانوا يعتقدونهم منزّهين عن الخطأ ، لأنهم في بعض الأوقات تعرضوا له ، ولقد قطع بعض العلماء بأن بعض هذه الكتب ليس من الإلهام في شيء ، فأنجيل متى على قول القدماء من المسيحيين ، وقول جمهور المتأخرين الذين قالوا إنه كتب باللسان العبراني كما أسلفنا من القول : قد قالوا إن أصله فقد ، وترجمته ليست بالإلهام ، ويقول استاذلن وغيره إن إنجيل يوحنا ليس بإلهام ، وجميع رسائل يوحنا ليست بإلهام على رأى فرقة ألوجين ، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس ، ورسالة يهوذا ، ورسالة يعقوب والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا ، ورؤياه النبوى — كل ذلك عند الأكثرين ليس بإلهام ، وكان كذلك إلى سنة ٣٦٣ ميلادية .

٥٥ — ومهما يكن اختلافهم بالنسبة لكونها ملهمة كلها أو بعضها ، وطريق الإلهام ، فادعاء الإلهام على فرض اتفاقهم عليهم ليس له من البرينات ما يثبتها ولا من الأدلة ما يقيم دعائمه ، ونحن نطالبهم بالدليل ، وكان يصح لنا أن نقف موقف المانع منعاً مجرداً ، نطالبهم بالدليل حتى يقيموه ، ولكننا تقيماً للبحث وتعريفاً للحقائق نثبت أن دعوى الإلهام باطلة من أساسها ، ليس لعدم إقامة الدليل عليها ، بل لأن البرينات قائمة ضدها ، ذلك لأنها لو كانت بإلهام من

دعوى الإلهام باطلة
من بدعيها

الله كما يقولون لكانت صادقة في كل ما أخبرت به ، وما وجد الباطل منفذا
ينفذ منه اليها ، ولم يكن ثمة محل لتسكذيبها ، ولكانت متفقة غير مختلفة ، ولم تكن
متضاربة بأي نوع من أنواع التضارب ، وذلك لوحدة من صدرت عنه ، لأنها
جميعاً صادرة عن واحد ، وإن اختلف الناطقون بها ، ولكننا وجدنا بينها
اختلافات من أوجه عدة ، ووجدنا فيها أخباراً تناقض ما علم في التاريخ وكان
مشهوراً فيه ولنذكر بعض هذه الأمور على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر
١ — أول ما يلقاك من أوجه اختلاف الأناجيل في الأمر الواحد الذي

التضارب بين كتب
العهد الجديد

لا يقبل إلا حقيقة واحدة ، اختلاف إنجيل متى عن إنجيل لوقا في نسب المسيح
فان من يقابل بين نسب المسيح في الأناجيل يجد الاختلاف من ستة أوجه
ذكرها الشيخ رحمه الله الهندي في كتابه إظهار الحق فقال : « (١) من متى أن
يوسف بن يعقوب ومن لوقا أنه ابن هالي (٢) يعلم من متى أن عيسى من أولاد
سليمان بن داود عليهم السلام ، ومن لوقا انه من أولاد ناثان بن داود

٢ — يعلم من متى أن جميع آباء المسيح من داود إلى جلاء بابل سلاطين
مشهورون ، ومن لوقا أنهم ليسوا بسلاطين ولا مشهورين غير داود وناثان
(٤) يعلم من متى أن سلتائيل بن يكتينا ، ومن لوقا أن سالتائيل بن نيري (٥) يعلم
من متى ان اسم ابن زربابل أبيهود ، ومن لوقا أن اسمه ريسا ، والعجب
ان أسماء بني زربابل مكتوبة في الباب الثالث من السفر الأول من أخبار الأيام
من كتب العهد القديم ، وليس فيها أبيهود ولا ريسا فكل منهما غلط (٦) من داود
إلى المسيح عليهما السلام ستة وعشرون جيلاً على ما بين متى ، وواحد وأربعون جيلاً
على ما ذكر لوقا ،

هذه أوجه اختلاف ستة في نسب المسيح عليه السلام وهو نسب
يوسف النجار الذي كان رجل مريم كما تذكر الأناجيل ، وهذا الاختلاف
الذي يعترف به المسيحيون ، ولا يجدون مناصاً من الإقرار به يدل على أمرين
(أحدهما) أن أحد الانجيليين لم يكن بالهام ييقين ، إذا فرضنا أن أحدهما صادق

والآخر كاذب ، فالكاذب لا شك لم يكن بالهام . وإلا كان الإله الذى أوحى به كاذباً ، وذلك لا يليق بحسب بدهاة العقل ، ولما كان الصحيح منهما غير متعين فالشك يرد على الاثنين ، حتى يثبت الصحيح ؛ ويقوم الدليل على صدقه دون الآخر ، ومع هذا الشك لا يمكن الاعتقاد بأن ثمة إلهاماً ، لأن الشك إن اعترى الأصل زال الاعتقاد .

ثانيهما) . إن إنجيل متى لم يكن معروفاً للوقا ، أى أنه لم يكن متدارساً معروفاً لدى العلماء فى المسيحية ، لأن تدوين إنجيل متى يسبق تدوين إنجيل لوقا بأكثر من عشرين سنة على ما عليه جمهورهم ، ولو كان لوقا يعرفه لراجعه ، وما وقع فى الخطأ الذى وقع فيه ، أو على الأقل ما خالفه ، وإذا لم يكن معروفاً لدى علماء المسيحية ، وحواريها ورسلاها ، فلا بد أنه لم يكن معروفاً قط . ، أو بعبارة أصرح لم يكن موجوداً قط ، ولا مناص من هذا إلا أن نقول إن لوقا كان يعرفه ، واطلع على حديث النسب فيه ، وخالفه على نية منه ، لأنه لم يصدقه ، وعلى ذلك لا يكون لوقا معترفاً برسالة متى ، والإيحاء إليه ، وإن ما كتبه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وإلا ما خالفه مع علمه ، فخلاصة القول فى ذلك أن تلك المخالفة تنتج إحدى إثنين إما ألا يكون إنجيل متى معروفاً للرسول لوقا ، وذلك يقتضى ألا يكون موجوداً . وإما أن يكون موجوداً يعرفه لوقا ، ولكن لا يعترف به مصدر أصادق الرواية ، وإحدى القضيتين لازمة حتماً ، ولكن لا يعترف المسيحيون بكليهما .

ب — ونجد فى الأصحاح الخامس عشر من إنجيل متى أنه بعد مناقشة الفريسيين تقدمت إليه امرأة ، ابنتها مريضة بالجنون تطلب شفاءها ، ونص الخبر كما جاء فى ذلك الإصحاح : « ثم خرج يسوع من هناك ؛ وانصرف إلى نواحي صور وصيدا . وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى يا سيد ، يا ابن داود ، ابنتى مجنونة جداً ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلامبذه ، وطلبوا إليه قائلين اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ، وتبجى . هذه القصة فى الأصحاح

الثامن من إنجيل مرقس بالنص الآتي : « ثم قام من هناك ، ومضى إلى تخوم صور وصیدا ، ودخل بيتا ، وهو يريد ألا يعلم به أحد ، فلم يقدر أن يختفي لأن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت به ، فأتت وخرت عند قدميه ، وكانت المرأة أُمّية وفي جنسها فينيقية سورية ، ففي هذا النص يبين جنس المرأة بأنها فينيقية سورية . وأنها أُمّية ليست من اليهود وفي الأولى توصف بأنها كنعانية أى ليست فينيقية ، فأيهما الأخرى بالقبول ؟ لاشك أنه لا يمكن أن تكون الروايتان صادقتين معاً ، بل لابد أن تكون إحداهما كاذبة وليست بالهام من الله ، لأن الله لا يكذب ، وإذا كانت إحداهما ليست صادقة بيقين ، وكاذبة بيقين ولم يدر أيتهما الكاذبة المفتراه ، فالشك إذن ملازم الاثنین لا ينفصل عنهما ، حتى نتبين الصدق من الكذب ، ولا سبيل إلى ذلك ، ولا يمكن أن تثبت لأيهما إلهاماً مع هذا الشك الملازم الذي لا سبيل إلى إزالته

ح - وقد اختلف خبر القبض على المسيح لمحاكمته في متى عن يوحنا ، ففي متى جاء في ذلك بالأصحاح السادس والعشرين مانصه : « وفيما هو يتكلم ، وإذا يهوذا واحد من الاثنى عشر قد جاء ، ومعه جمع كثير بسيف وعصى من عنده رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً الذي قبله هو هو أمسكوه فللوقت تقدم إلى يسوع ، وقال السلام ياسيدى وقبله ، فقال يسوع يا صاحب لماذا جئت ، حينئذ تقدموا ، وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه ، هذا ما فى متى ، وجاء فى يوحنا فى هذا المقام مانصه : « فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع ، وهو عالم بكل ما يأتى ، وقال لهم من تطلبون ؟ أجابوه يسوع الناصرى ، قال لهم انا هو ، وكان يهوذا مسله أيضاً واقفا معهم ، فلما قال لهم انا أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض ، فسألهم أيضاً من تطلبون ؟ فقالوا يسوع الناصرى ، أجاب يسوع قد قلت لكم : إني أنا هو ، فان كنتم تطلبوننى

فدعوا هؤلاء يذهبون ليتم القول الذى قاله : إن الذين أعطيتنى لم أهلك منهم أحداً . . . ، وترى هنا اختلافاً بين الروايتين ، فتنى يقول : إن يهوذا هو الذى أعلمهم بالمسيح بالعلامة التى اتفق معهم عليها ، وهى تقبيل يده ، ويوحنا يقول : إن المسيح هو الذى قدم نفسه ، وكفى يهوذا مثونة التعريف ، ولا شك أن ذلك الاختلاف البين فى رواية حادثة واحدة يجعل إحدى الروايتين كاذبة والثانية صادقة ، والكاذبة ليست بألهام ، فأحدهما ليست بألهام ، ولا سبيل إلى معرفتها ، فيثبت الشك فى الروايتين .

وفى الحق أن من يراجع الأناجيل فى خبرها عن القبض على المسيح وحبسه ، ثم محاكمته وصلبه ، ثم قيامته من قبره يجد الاختلاف فى أخبارها اختلافاً بينا ؛ ولو كان بعض هذا الاختلاف فى شهادة اثنين يشهدان فى درهم ما ثبتت بشهادتهما دعوى ، ولا انتهر بها حق ، واتراجع الأناجيل فى هذا المقام ؛ لتعرف مقدار الصحة فى خبرها ، ولتعرف مقدار ما فى دعوى الإلهام لسكتيها عند كتابتها من حق ، فلا شك أن ذلك الاختلاف الذى لا يمكن التوفيق بين متناقضه يؤدى إلى أن تلك الأناجيل يأتيا الشك من كل جانب يأتيا من بين يديها ، ومن خلفها ، فلا يمكن أن تكون إلهاماً من حكيم حميد . وإن ذلك الاختلاف ، فيما أحاط بمسألة الصلب ، فوق أنه يفقد الثقة بالأناجيل هو أيضاً يجعل خبر الصلب عند القارىء الخالى الذهن الذى لم يكن فى ذهنه قبل القراءة ما ينفيه أو يثبت موضع الشك يرجح فيه الرد على القبول ، والتسكيز على التصديق .

د — وفى موت يهوذا الذى خان المسيح على زعمهم اختلفت رواية متى عن رواية لوقا فى سفر أعمال الرسل . فتنى يقول : إنه خنق نفسه ومات ، كما جاء فى الأصحاح السابع والعشرين ، ولوقا يقول فى سفر الأعمال : أنه خر على

وجهه ، وانشق بطنه ، فانسكبت أحشاؤه كلها ومات ، ولا شك أن بين الروايتين اختلافاً ، لأن الموت بالخنق غير الموت بشق البطن ، ولا بد أن نكون إحداهما على الأقل كاذبة . ولكنها غير معلومة ، فيتطرق الشك إلى الأخرى فيردان معاً ، ولا يمكن أن تكونا بإلهام ؛ أو لا يمكن مع ذلك الشك الإيمان بأن إحداهما بإلهام .

هـ — قد اشتمل بعض هذه الكتب على أخبار لو صحت لكانت معلومة مشهورة في التاريخ يعرفها الخاص والعام ، ولدونها كتب التاريخ على أنها حوادث مفردة عجيبة في الدهر ، ولكن لم يرد لها ذكر في التاريخ ، ولم يعرف الناس أمرها إلا من تلك الكتب . هذا متى يقول عند صلب المسيح وقيامته : فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح ، وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا لكثيرين . وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع ، فلما رأوا الزلزلة ، وما كان ، خافوا جداً ، وقالوا : حقاً كان هذا ابن الله ، وهذه حادثة عظيمة لو صحت لدونها التاريخ العام الذي لم يشر إلى المسيح بكلمة ، ولو صحت أيضاً لآمن الرومان واليهود ، والصخور تشقق ، والأرض تزلزل ، والأموات ينشرون ، ويسرون على الأرض ، ويراهم الكثيرون ، ويبقى بعد ذلك مساع لإنكار ، ولكن لم ترد أخبار بإيمان أحد من اليهود على أثر تلك البيّنات الباهرات ، ولقد جزم العلامة المسيحي نورتن بكذب هذه الحكاية ، وقال في تكذيبها : هذه الحكاية كاذبة . والغالب أن أمثال هذه الحكايات كانت رائجة في اليهود بعد خراب أورشليم ، فلعل أحداً كتب هذه الحكاية في حاشية النسخة العبرانية ، وأدخلها الكتاب في المتن ، وهذا المتن وقع في يد المترجم ، فترجمها كما وجدها ، ونقول لعل كثيراً مما في المتن

أصله في الحاشية ، ثم نقل خطأ في المتن ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يكون هذا الكتاب وأشباهه مصدراً لاعتقاد جازم ، وإيمان بدين ، وكيف يزعم زاعم أن هذا الكتاب بحواشيه الدخيلة غير المعلومة من متنه الأصيل هو بإلهام من الله العلي القدير . ولكن في العالم عقول تقبل ذلك ، بيد أنه من الأنصاف لهذه العقول أن نقول إنهم يقيمون غواشي تمنع نورها أن يكشف عن موضع الضعف فيها فهي لاتقبله على نور وبينة ، وسلطان معين .

التناقض بينها مبطل
لادعاء الإلهام وبيان
إنكارهم لبعضها ثم
اعترافهم به

٥٥ — هذه بعض المناقضات بين هذه الكتب بعضها مع بعض ، وبعض مناقضتها للعقل ، والمدون في التاريخ ، وإنا نحيل القارئ في هذا المقام إلى كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي ، فقد أتى بأكثر من مائة اختلاف بين هذه الكتب ، وجهه بها مناظريه فلم يحيروا جواباً ، ولم يستطيعوا خطاباً ، ولسنا نريد أن ننقلها برمتها منه . فليرجع القارئ إليه ، فسيجد الغريب .

وإذا كانت هذه الكتب متناقضة متضاربة يلحق الكذب كلها في جملتها ، وأجزائها عند مناقشتها ، فهي إذن ليست بإلهام ، ويكفي هذا بطلاناً لمدهام في الإلهام وإن نسبة هذه الكتب إلى من نسبت إليهم على ما فيها ، وعلى أنها في ذاتها ليست حجة هي موضع شك كثير ، فإنه ليس لهم سند متصل يصل هذه الكتب في أقدم العصور التي عرفت فيها — بالكاتبين لها ، فهي لم تعرف قبل مجمع نيقية الذي كان في سنة ٣٢٥ ، ولم يحجى ذكر لها قبل ذلك ، إلا على لسان أرينيوس سنة ٣٠٠ ، وكليمنس سنة ٢١٦ ، بل إن مجمع نيقية لم يعترف بكثير منها ، فإن ذلك المجمع لم يعترف بما يأتي :

(١) برسالة بولس إلى العبرانيين (٢) ورسالة بطرس الثانية (٣ ، ٤) ورسالة يوحنا الثانية والثالثة (٥) ورسالة يعقوب (٦) ورسالة يهوذا (٧) ورؤيا يوحنا التي تسمى الكتاب النبوي ، ولم يحكم بصحة هذه الكتب ، إلا في مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤ .

انقطاع السند في
نسبتها لكاتبها

فقبل سنة ٣٦٤ لم يعترف بصحة هذه الرسائل السبع ، وقبل سنة ٣٢٥ لم تكن الكتب كلها معروفة أو مختصة بذلك التقديس ، وآخر كتاب من هذه الكتب ، كتب في آخر القرن الأول ، فبين آخر كتبهم تدويننا في زعمهم ومعرفة والاعتراف به أكثر من خمس وعشرين سنة ومائتين ، لا راوى يروها ، وقد وقع بهم من الأحداث في هذه المدة ما يذهب باللب ، ويضيع الرشد ، وينسى المرء معه كل شيء ، وإن الكتب نفسها لم تسلم من الاضطهاد ، فقد أصدر أحد امبراطرة الروم سنة ٣٠٣ أمراً بهدم الكنائس ، وإحراق الكتب ، وعدم اجتماع المسيحيين لأداء عباداتهم ، فنفذ الولاة الأمر ، فهدموا الكنائس ، وحرقوا الكتب ، وأتوا على كل ما للمسيحيين من بيوت عبادة ، وكتب هدماً وتحريقاً ، ومن سبق إلى ظنهم أنه أخفى كتاباً عذبه عذاباً شديداً ، حتى يعلنه فيحرق ، ومن قبلُ ومن بعد أنزلوا البلاء بعلمائهم ، فما تركوا عالماً منهم بالديانة إلا قتلوه ، وكان الولاة يتفننون في طرق إبادة المسيحية من الوجود ، أبادوا العلماء ، حتى لا يوجد من يرشد إليها ، ويتوارث العلم بها ، وأبادوا الكتب ، حتى لا تحفظ تلك الديانة في الصدور أو السطور .

ولاشك أن ذلك الاضطهاد الذي دام إلى صدر القرن الرابع يجعل الكتب التي أرويت بعد ذلك موضع شك في نسبتها إلى قائلها ، حتى يقوم دليل على صحة تلك النسبة ، ولم يقيموا أى دليل ، لأن السند منقطع بينها وبين من تنسب إليهم ، والحبيل بينهم وبينها غير متصل بأوهى أنواع الاتصال ، لأن السند المتصل الذي يعلمن معه القارئ لكتاب ، فيغلب على ظنه أنه صادق النسبة لمن نسب إليه . هو أن يروى ثقة عن ثقة مثله ، حتى يصل السند إلى من لقي المؤلف فيقول سمعته منه ، أو تلقيته عنه أو قرأته عليه . كما ترى في أحاديث رسول الله ﷺ . ويكون كل راوٍ من تلك السلسلة المتصلة حلقاتها عدلاً ثقة ضابطاً حافظاً ، وإذا كان السند غير متصل بين ذبوع هذه الكتب واشتهارها ،

وبين قائلها ، فقد ذاعت سنة ٢٢٥ . ومن نسبت إليهم كتابتها كانوا في آخر القرن الأول ، فالعقل يتشكك في هذه النسبة ، ولا يثبت مع الشك كتاب يكون حجة لديانة .

هذه كتبهم ، اعتقدوا أنها كتبت بألهام من كتابها ، ولم يقيموا أى دليل على دعوى الإلهام ، وبدراستها يتبين التناقض بينها ، مما يثبت أنها ليست بألهام من الله ، وبدراسة تاريخها يثبت أنها منقطعة السند عن نسبت إليهم .

موازنة قس بين
أحاديث الرسول
وكتبهم من حيث
الرواية

٥٦ - ولقد جرؤ قس اسمه إبراهيم سعيد في شرحه لانجيل لوقا ، فعقد موازنة بين روايته ، ورواية أحاديث رسول الله ﷺ ، فقال : « إن الذى يطالع ديباجة بشارة لوقا يستعيد إلى ذاكرته ديباجة الأحاديث في الإسلام ، غير إنه إذا تشابهت الديباجتان في بعض الأوجه ، فإن أوجه الخلاف تفوق بكثير أوجه الشبه ، فمن أوجه الشبه :

(أ) أن بشارة لوقا والأحاديث كلاهما ترجمة حياة ، وأقوال مؤسس لدين واسع الانتشار .

(ب) أن الذين كتبوها أخذوها عن أقوال مسلمة إليهم إلى هنا فقط تنتهى أوجه الشبه . ونبتدىء زاوية الانفراج تتسع إلى أن نحفر خطوطها مع رسوم الأبد .

(أ) فالأحاديث النبوية كتبها أناس أخذوها عن أناس آخرين ، وهؤلاء الآخرون أخذوها عن التابعين ، وهؤلاء أخذوها عن الصحابة ، والتبر متى تنقل بين الأيدي الكثيرة امتزج بكثير من التراب ، إن لم يتحول تراباً ، ولسكن لوقا أخذها عن شهود عيان ممن رأوا المسيح ، وخدموا إنجيله .

(ب) نقلت الأحاديث النبوية عن رواة ، وما آفة الأخبار إلا روايتها ، لكن سيرة المسيح سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم .

(ج) كانت مهمة كتبة سيرة نبي الإسلام جمع الأحاديث ، وتسكديسها

لكي يظفروا بأكبر عدد ممكن ، وكانت مهمة لوقا التمهيد العلمى ، إذ كان هو طبيباً عملياً ، علمياً دقيقاً .

بيان ما فى كلامه
من زيف

٥٧ — هذا نص ما كتبه ذلك القس فى الموازنة بين أحاديث الرسول وإنجيل لوقا ، ونحن نقره فى أن أوجه الاختلاف تنفر جزاويتها ، حتى لا يتلاقى المتشابهان بعدها ، وإن شئت الحق الخالص من كل تمويه ، والصدق الخالى من كل تزوير فقل إنه لا تشابه بينهما ، وإنهما كخطين متوازيين لم يتلاقيا ، وإن يتلاقيا قط ولكن أذلك الاختلاف يعلى الأحاديث أم يعلى البشارة المنسوبة للوقا؟ هنا نختلف مع القس ، فهو يزعم أن ذلك الاختلاف يعلى بشارة لوقا ، ويفقد الثقة بأحاديث الرسول ، وهو لى يؤيد هذا الزعم بأنى المحاسن ، فيسميها مساوىء ويعرض لما يوجب الثقة ، فيزعمه دليل نقيضها ، وهو فى هذا كمن يزعم قبح الشمس فى نورها الرائع ، وضوئها الساطع ، وقبح القمر فى صفائه ، وانبلاجه فى ظلمة الليل الهميم ، ثم يستعين فى تقبيح المحاسن إلى التشبيهات والأخيلة والرموز ، كشأن المموهين دائماً ، عندما يحاولون طمس المعقول ورد المقبول ، ومعارضة ما تنتجه بدائنه العقول ، والمنطق المستقيم ، يقول إن الأحاديث كتبها ناس عن ناس حتى يصلوا إلى التابعين فالصحابة ، وبشارة لوقا أخذها عن شهود عاينوا ، ويرى أن رواية بشارة لوقا هى المثل ، ورواية الأحاديث ليست المثل ، ويستدل على ذلك بأن التبر متى تنقل بين الأيدي امتزج بالتراب أو تحول إلى تراب ، فأى دليل هذا ؟ ومن أى أبواب الأقيسة المنطقية ، ومن أى أشكالها ، إن ذلك ليس من المنطق فى شىء ، ولا يمت إليه بنسب ، بل لا نستطيع أن نقول إن ذلك قياس خطائى ، لأن الأقيسة الخطائية ، وإن كانت ظنية لا تناقض العقل ، ولا تكذب على البدائنه ، ولكننا مع ذلك تناقض ذلك الاستدلال ، إن أحاديث الرسول رويت بسند متصل ، وذلك عيها فى زعم هذا الكاتب وبشارة لوقا ، لم ترو بسند متصل ، وذلك حسن ، وإذا قال لك قائل : أين ما تثبت

به أنه روى عن شهود عاينوا ، ومن هم هؤلاء الذين عاينوا وأخبروه ؟
ولماذا لم يتولوا هم التدوين ، وهم أولى بذلك ، وكلامهم أخرى بالتصديق ؟
فلا جواب عنده بلا ريب . فأيها العقول المستقيمة . أى الخبرين أخرى
بالقبول ، خبر من ذكر أنه روى عن فلان العدل المعروف بالصدق
والتقوى ، وعينه ، وعدالته مشهورة ، وصدقه معروف ، أم خبر من ذكر
لك أنه روى عن عمن عاين ولم يبين من هو ، ولم يخبر عنه ؟ فلم نعرف أهو ثقة
مقبول الرواية أم هو غير ثقة كيهوذا الاسخريوطي ؟ إن أقصى ما يقال هو
أن لوقا نقل عن بولس ، لأنه كان رفيقاً له في بعض أسفاره ، ولكن
بولس نفسه لم يكن من تلاميذ المسيح الذين عاينوا وشاهدوا ، بل كان في
صدر حياته حرباً عليهم وإلباً ، أذاقهم البلاء كؤساً ، والشر ألواناً ، فهو
راو يحتاج إلى من يوثقه ، إن ادعى أن لوقا روى عنه ، وذلك ما لم يقله
حضرة القس ، ولنتقل إلى مناقشة تشبيهه الذي ذكره دليلاً : إن التبر إذا
انتقل إلى أيد تستطيع صيافته وحياطته — تحفظه من التراب ، وتصونه من
الاختلاط به وتميط عنه كل ما يخاط جوهره ، فيزداد بهذا الحفظ بريفاً
وصفاءً ، إن أحاديث الرسول نقلها ثقات صانوها وحفظوها ، ولكن
يظهر أن القس يأبى في مناقشته إلا أن يخالف كل معقول ، حتى يكون كل
كلامه متفقاً مع الباعث عليه ، والداعي إليه ، فيزعم أن التبر قد يتحول إلى
تراب إذا تناقلته الأيدي فأيها الناس ، وأيها العرب والعجم ، وأيها الشرق ،
وأيها الغرب ؛ هل علمتم أن الذهب يتحول إلى تراب ، ولكن القس المرشد
الرشيد يقول ذلك ، فصدقوه وكذبوا العقل والحس والمشاهدة . ثم من
الذى روى لنا تلك البشارة عن لوقا إن السند يجب أن يكون معروفاً حتى
لوقا ، قبل أن نتعرف النسبة بين لوقا والمسيح ، إن بشارة لوقا كتبت كما يزعم
النصارى في العشرة السابعة بعد المسيح من غير أن يعينوا الزمن تعييناً دقيقاً ،
ولكن لم يرد في التايخ ، ولا على السنة الرؤساء ، والقسيسين أى ذكر لها

إلى سنة ٢٠٠ ثم ذكرت الأناجيل الأربعة على لسان اثنين من العلماء فقط من سنة ٢٠٠ إلى سنة ٣٢٥ ، ولم نعرف أهذه الأناجيل المدونة المسطورة الآن هي التي جاء ذكرها على لسان عالمن من علمائهم في فترة من التاريخ قدرها خمس وعشرون سنة ومائة وهي فترة طويلة ، ولكن مع كل هذا يستحسن القس ابراهيم سعيد تلك الحال ، فقد زينت له فرآها الأمر الحسن الجدير بالثقة . ورأى غيرها الأمر القبيح ، الجدير بالرد ، وهل نطالب ذا رمد أن يفتح عينيه في ضوء الشمس ، أو نطالب من فقد حاسة الشم أن يدرك أريج الزهر ، وعرف الطيب ، أو نطالب من إيفت منه المشاعر أن يكون صادق الحس دقيق الشعور .

٥٨ — ولنتقل إلى الفرق الثاني الذي ذكره معلما لبشاراته ، ومنزلا بأحاديث نبينا عليه السلام يقول: نقلت الاحاديث عن طريق رواية ، وما آفة الاخبار إلا روايتها ، أما سيرة المسيح فقد سجلها مؤرخون محققون الامور المتيقنة عندهم ، هذا ما ذكره بنصه تقريبا ، وهو يبين أرجحية اخبار أناجيله عن سيرة المسيح بأنها رواها التاريخ ، أما هذه فرواية رواية ، وآفة الاخبار روايتها ، ولا نريد مناقشة تلك الكلمة العامة التافهة ، وآفة الاخبار روايتها ، فانها لا تصلح مقدمة لدليل على ، ولو أن طالبين تلقوا العلم علينا قالا العركنا اذنه وأسررنا اليه أن رواية الاخبار الذين هم آفاتنا إنما هم لكاذبون ، أما الصادقون العادلون ، فليسوا آفاتنا بل حماتنا ، وإلا ما صحت شهادة ، ولا قبل القضاء بينات . ولا ثبتت حقوق ، ولا أدين متهم ، ولا برى برى .

ثم يقول إن أناجيله سجلها مؤرخون محققون ، فكيف نسميهم ؟ أرواة رروا عن غيرهم إن كانوا كذلك ، فقد سجل على سيرته ما عده قبيحا عند غيره ، وإن كانوا مؤرخون لم يتعرفوه بطريق الرواية ، بل بالنقش على الأحجار ، أو فيما استبطنته بطون الآثار ، فأى أثر هذا وجدوا تلك الأناجيل منقوشة عليه ، ومدونة فيه ، وأثبت التحقيق العلى أنها ترجع إلى عصر المسيح ، وأنه هو الذى ألقاها ، أو أن تلاميذه

دونوها عنه؟ إن أخبار التاريخ تثبت بأحد أمرين إما بالرواية يروون، أو بالأثار ينقبون فيها، ويتعرفونها منها؟ لم تثبت الأناجيل بواحد من الأمرين، فليست ثمة رواية لها ولا رواية، وهم ينزهونها عن ذلك، ولا آثار تنطق بها، وتعلن خبرها، فهي إذن يرفضها التاريخ، ولا يمكن أن يسجلها مؤرخون محققون قط، وإن التاريخ لا يعرف لها ذكراً إلا من مجمع نيقية. فهي مسندة إلى ثمانية عشر وثلاثمائة اجتمعوا في نيقية، وليست محققة النسبة لغيرهم، وبين هؤلاء وبين المسيح خمس وعشرون سنة وثلاثمائة! وبعد هؤلاء المجتمعين تناقلها الرواة عنهم، وإن أغضب ذلك حضرة القس، وإن ذلك المجمع لنا فيه كلام، سنقول في موضعه.

٥٩ — ولننتقل إلى مناقشة الفرق الثالث الذي ظنه رافعاً مؤرخيه إلى مرتبة الثقة، يقول: كانت مهمة كتابة سيرة النبي ﷺ الجمع، ليظفروا بأكبر عدد من الأحاديث، أما مهمة لوقا، فقد كانت التحقيق والتحصيل، وهنا نرى القس أخذ يجد بعد الهزل، ويقول بعد الهذر، ولكنه إذا بدأ يجد قد كذب، وأعظم الفرية على أحاديث نبينا، وادعى على بشارة لوقا ما ليس فيها، فأى تحقيق على فيها، وأى تمحيص اشتملت عليه، إنها لا تفرق عن غيرها من حيث اشتمالها على أمور غريبة، وأشياء عجيبة، ولم يبين لنا رأيه فيها، بل كان قاصداً ككل القصاص، ولا يرفعها أنه كان طيباً، لأن نسبتها إليه موضع شك كبير، ولم يتفق الكتاب على شخصه كما بينا، ولم يتفقوا على أنه كان طيباً، بل منهم من قال أنه كان مصوراً، وعلى ذلك تكون دعواه التحصيل في بشارة لوقا لا يؤيدها مادون فيها، ولا تؤيدها نسبتها إلى لوقا.

ولننتقل بعد ذلك إلى رد افتراءه، وكذبه على أحاديث النبي ﷺ، فإن المطلع على أخبار رواتها العدول، وما كتب في صحاحهم يتبين له أنهم ما كان همهم الجمع، بل كان همهم التنقيب والبحث، فأنهم ما كانوا يروون كل ما يتلقون

بل يختارون الصادق مما يتلقون ، وإن الذى يرفضون كان أضعاف ما يقبلون وينقلون ، لأنهم كانوا يتحرون الصدق ليتميز الخبيث من الطيب ، وإن الصحابة كانوا يهتمون من يكثر من الرواية خشية أن يخبر عن الرسول بغير ما رأى وشاهد ، فكيف يقول ذلك الرجل على غير علم ، أو محرفاً للكلمة عن مواضعه : إن رواية الأحاديث كان همهم الجمع ، كلا أنهم كانوا ينقدون ما يروون ، ينقدون السند أولاً ، فلا يقبلون إلا من الرواة الذين اشتهر صدقهم وضبطهم وفهمهم لما يحملون ويروون ، وينقدون متن الحديث ، فيعرضونه على الكتاب وما اشتهر من السنة واستفاضت به الأخبار ، وما علم من هذا الدين بالضرورة ، فإن وافقها بعد أن روى بسند متصل مكون من عدول كان مقبولا ، وإلا كان مردودا . وزيد أن نهمس في أذن حضرة القس الرشيد ، بأن من أسباب ردهم لبعض الأحاديث ورفض نسبتها إلى الرسول عليه السلام — عدم موافقتها للعقل ، قبل له أن يطبق ذلك النقد على أناجيله ورسائله إنا ننصح له أن يفعل ، لئلا يزيد له الهدى ، لا الضلال ، والرشد لا الغي ، وهى نية نحتسبها عند الله .

فظهر في الوحي في
الاسلام والوحى
في المسيحية

٦٠ — زيد أن نختم مناقشتنا لذلك القسيس بمناقشة كلمة ذكرها : وهى التفرقة بين الوحي في الاسلام والوحى في المسيحية . فيقول عن الوحي في الاسلام : « إن الوحي في الاسلام هو التجرد عن كل شيء إنسانى ، وتلاوة ما يسمونه اللوح المحفوظ ، ولكن الوحي في المسيحية يجمع بين العنصر البشرى والعنصر الالهى ، أى الملهمات الالهية تتجسد فى لباس لغوى بشرى ، لتكون مفهومة لدى الناس الذين تبلغ إليهم ، فالكلمة المعلنة المكتوبة فى الانجيل هى رمز لكلمة الله ، الحى المعلن لنا حق الله . من أجل هذا يعتقد المسيحيون أن الوحي بالروح القدس لا يحرم على الموحى إليهم استخدام الوسائل البشرية الاجتهادية الممكنة لديهم ولا يرفع عن الكاتب مسئولية الاجتهاد ، والتحقيق والتدقيق ، هذا بخلاف الاعلانات المحتوى عليها كتاب الوحي التى لا تتدخل

فيها مواهب الكاتب الطبيعية ، بل هي من الله أولاً وآخراً ، كالتنبؤات المتفرقة في كل أجزاء الكتاب المقدس ، وسفر الرؤيا ،

معنى الوحي

هذه كلمته . وزيد قبل أن تتعرف من تلك الكلمة معنى الوحي في كتبهم أن نسارع إلى بيان وحي الله لنبيه ﷺ في الاسلام فنقول : إن وحي الله تعالى لنبيه ﷺ قسمان : قسم يوحى به على أنه كلام الله تعالت كلماته ، وهذا يكون المعنى والتعبير لله جلّت قدرته ، وذلك كما في القرآن الكريم الذي نزل به الروح الأمين ، القسم الثاني الأمور الشرعية التي كان يوحى الله بها إلى النبي ﷺ ليبينها للناس ، فالمعنى فيها يوحى من الله تعالى ، والعبارة فيها للنبي ﷺ وإذن فكلامه عن الوحي في الاسلام لم يكن صحيحاً في عمومه ، وكان عليه أن يتحرى قبل أن يكتب ، ولكنه لم يفعل ، ولنتقل إلى الوحي بالكتب عندهم ، وهذا ما نريد أن نأخذ العلم به منه ، وعساه يهدينا إلى ما نعرف به محض الحق المبين . هو يقول إن كلمات الأنجيل ليست هي كلمات الروح القدس التي ألهمها رسلمهم ، سواء في ذلك كل كتبهم ، فالعبارة فيها للكاتب ، وليست للروح القدس الذي يلهم رسلمهم بما يكتبون فيما يزعمون ، ثم تنقسم كتبهم بعد ذلك إلى قسمين : قسم هو وحي لا تدخل فيه المواهب الطبيعية بالتصرف فيه بأي نوع من أنواع التصرف ، وهو ما يسمى بالتنبؤات عندهم . والقسم الثاني تتصرف فيه مواهب الكاتب وفي هذا القسم لا يرفع عن الكاتب ما يوجه عليه التحقيق والتدقيق والاجتهاد ونظرة فاحصة إلى هذا القول تربنا أن الالهام قد أخذ يضؤل أمره ، وتتواضع دعواه ، خصوصاً بالنسبة للأنجيل ، لأنها ليست بكتب نبوة كالرؤيا ، ولم يتخللها كلام الله ، كما يفعل بولس في رسائله ، إذ كان يزعم أحياناً أنه يتكلم عن الله ، وأحياناً يقول أنه يتكلم من عنده ، فالأنجيل ليست فيها إذن تلك التنبؤات ، وعلى ذلك يكون للمواهب الطبيعية البشرية دخل في كتابتها ، ويتحملون تبعه الاجتهاد فيها والتدقيق والتمحيص ، ومن يتحمل تبعه عمل ينسب

إليه . وعلى ذلك قد يتورد الخطأ على اجتهادهم وتدقيقهم وتمحيصهم ، فيكون من أخبارهم ماصادف التحقيق فيه الصواب ، وما عرض له الخطأ ، وكيف تكون بعد ذلك بألهام أو وحى ، وكيف تكون مقدسة لا يأتيا الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وإذن فقد أتوا على دعوى الألهام بالنقض ، فلا إلهام فى الأناجيل إذن .

هذه كلمتنا فى كتبهم تحريفا فيها أن نكتبها ، كما كتبها المسيحيون ، ونوجه اليها من النقد ماوجهوا ، وذلك لكى ننصف القوم ، ولقد ألقينا عليها نظرة فاحصة ، لتوائم بين أخبارها المختلفة ، وتجمع بين الأقوال المتضاربة ، ونشير إلى حكم العقل المستقيم عليها . أمى صالحة لأن تكون مصدر دين يتدين به ألوف الألوف من البشر وأهل العلم ، أم غير صالحة ؟ إن كتاب كل دين هو الأصل والدعامة ، والأساس ، فإذا كان غير صحيح السند ، أو غير مقبول لدى العقول انهار الدين ، وفقد أصله ، ولم يعد شيئاً فى الأديان مذكورا . ولنتنقل بعد ذلك إلى عقيدة المسيحيين ، وبعض شرائعهم كما جاءت بها تلك الكتب التى علمت أمرها .

النصرانية كما هى عند النصارى وفى كتبهم

العقيدة :

٦١ — جاء فى كتاب سوسنة سليمان ، لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصرانى أن عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى هى الإيمان بآله واحد ، أب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، كل مايرى وما لايرى ، وبرب واحد ، يسوع الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شيء والذى

من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس ، وصاب عنا على عهد يلاطس ، وتألم وقبر ، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في السكتب ، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتي بمجد ليدن الأحياء والأموات ، ولا فناء للملكة والايمان بالروح القدس الرب المحي المنبثق من الآب ، الذي هو مع الابن يسجد له ، ويمجد ، الناطق بالأنبياء ،

هذا هو جوهر العقيدة ولها الذي لا اختلاف فيه ، وفي هذا الكلام إلهام يحتاج إلى فضل بيان ، وإنا مستعينون في توضيحه بما كتبوه هم ، حتى لا نتزيد عليهم بقول ، ولا نفرض عليهم فهمنا ، ولكي نكون صادق الحكاية لكل أقوالهم من غير أى تحريف . والذي يستفاد من هذا أن أساس العقيدة يقوم على ثلاثة عناصر :

العنصر الأول التثليث والايمان بثلاثة أقانيم .

والعنصر الثاني : صلب المسيح فداء عن الخليقة وقيامه من قبره ، ورفع .

والعنصر الثالث : أنه يدن الأحياء والأموات ولنتكلم عن كل واحد

من هذه العناصر .

عقيدة التثليث :

٦٢ — قال الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدس : « طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فالآب ينتمى الخلق بواسطة الابن ، وإلى الابن الفداء ، وإلى الروح القدس التطهير ، ويفهم من هذا أن الأقانيم الثلاثة عناصر متلازمة ، ملازمة لذات الخالق ، وقد فسر هذا المعنى القس بوطر في رسالة صغيرة ، سماها الأصول والفروع ، وإليك ما جاء فيه : « بعد ما خلق الله العالم ، وتوج خليقته بالانسان لبث حيناً من الدهر لا يعلن له سوى ما يختص بوحدايته ، كما يتبين ذلك من التوراة ، على أنه لا يزال المدقق يرى بين سطورها إشارات وراء الوحدانية ،

لأنك إذا قرأت فيها بامعان تجد هذه العبارات : « كلمة الله ، أو حكمة الله ، أو روح القدس ، ولم يعلم من نزلت إليهم التوراة ما تكنه هذه الكلمات من المعاني لأنه لم يكن قد أتى الوقت المعين الذي قصد الله فيه إيضاها على وجه الكمال والتفصيل ، ومع ذلك فمن يقرأ التوراة في ضوء الإنجيل يقف على المعنى المراد إذ يجدها تشير إلى أقانيم في اللاهوت . . . ثم لما جاء المسيح إلى العالم أرانا بتعاليمه وأعماله المدونة في الإنجيل أنه نسبة سرية أزلية إلى الله ، تفوق الإدراك ونراه مسمى في أسفار اليهود « كلمة الله » ، وهي ذات العبارة المعلنة في التوراة ، ثم لما صعد إلى السماء أرسل روحاً ، ليسكن بين المؤمنين ، وقد تبين أن لهذا الروح أيضاً نسبة أزلية إلى الله فائقة . كما للأبن ، ويسمى الروح القدس . وهو ذات العبارة المعلنة في التوراة ، كما ذكرنا . وبما تقدم نعلم بجلاء أن المسمى بكلمة الله ، والمسمى بروح الله في نصوص التوراة هما المسيح ، والروح القدس المذكوران في الإنجيل ، فلما لحت إليه التوراة صرح به الإنجيل كل التصريح وإن وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الأقانيم ، وكل من أنار الله ذهنه ، وفتح قلبه في فهم الكتاب المقدس لا يقدر أن يفسر الكلمة بمجرد أمر من الله أو قول مفرد ، ولا يفسر الروح بالقوة التأثيرية ، بل لابد له أن يعلم أن في اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوين في الكمالات الالهية ، ويمتازين في الاسم والعمل ، والكلمة والروح القدس اثنان منهم ، ويدعى الأقسام الأول الآب ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعها ، وأن نسبته للكلمة ليست صورية ، بل شخصية حقيقية ، ويمثل للأفهام محبته الفائقة ، وحكمته الرائعة ، ويدعى الأقسام الثاني الكلمة ، لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية ، وأنه وسيط المخاطبة بين الله والناس ، ويدعى أيضاً الابن ، لأنه يمثل للعقل نسبة المحبة ، والوحدة بينه ، وبين أبيه ، وطاعته الكاملة لمشورته ، وللتمييز بين نسبته هو إلى أبيه ، ونسبة كل الأشياء إليه ، ويدعى الأقسام الثالث الروح القدس ، للدلالة على النسبة بينه

الابن لا يعنى به
الولادة البشرية

وبين الآب والابن ، وعلى عمله فى تنوير أرواح البشر ، وحشم على طاعته ، وبناء على ما تقدم يظهر جلياً أن عبارة الابن لا تشير كما فهم بعضهم خطأ إلى ولادة بشرية ، ولكنها تصف سرية فائقة بين أقنوم وآخر فى اللاهوت الواحد ، وإذا أراد الله أن يفهمنا تلك النسبة لم تكن عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة والوحدة فى الذات ، والأمانة للدشودة الإلهية ، وأما من حيث الولادة البشرية فأنه منزه عنها ، لاجل هذه الإيضاحات الجليلة علم خدام الدين المسيحى واللاهوتيون حسب ما قررته الكلمة الإلهية أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم ، حسب نص الكلمة الأزلية ، ولكل منهم عمل خاص فى البشر ، اهـ . بنصه تقريباً

ونجد كاتب هذا الكلام يحاول ثلاث محاولات .

(١) أولاها إثبات أن التوراة وجد فيها أصل التثليث ، لوحث به ، ولم تصرح ، وأشارت إليه ، ولم توضح ، وثانيها أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم . وهى فى شعبها متغايرة وإن كانت فى جوهرها غير متغايرة ، وثالثها أن العلاقة بين الآب والابن ليست ولادة بشرية ، بل هى علاقة المحبة والاتحاد فى الجوهر ، واقد كان بيان ذلك المعنى أوضح من هذا البيان فى قول القس ابراهيم سعيد فى تفسير بشارة لوقا ، فقد جاء فيه فى تفسير معنى كلمة ابن العلى التى جاءت فى إنجيل لوقا ما نصه : « يلىق أن نوضح بكلمات موجزة المعنى المراد بابن العلى ، أو ابن الله ، فلم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله ، وإلا لقليل ولد الله ، ولم يقصد بها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعاً إنهم أبناء الله ، لأن نسبة المسيح لله هى غير نسبة المؤمنين عامة لله ، ولم يقصد بها تفرقة فى المقام من حيث الكبر والصغر ولا الزمنية ولا فى الجوهر ، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التى بين المسيح والله ، وهى محبة متبادلة ، وما المحبة التى بين الآب والابن الطبيعيين سوى أثر من آثارها وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها ، ويراد بها إظهار المسيح لنا

أنه الشخص الوحيد الذى حاز رضا الله ، وأطاع وصاياه ، فقبل الموت موت الصليب ، لذلك يقول الله فيه ، هذا ابنى الحبيب الذى به سررت ، له اسمعوا ، وقد تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة المسيح على الأرض لأنه تم إرادة الله فى القداء ، ويراد بها إظهار التشابه والتماثل فى الذات ، وفى الصفات وفى الجوهر ، كما يكون بين الآب والابن الطبيعيين ، فقبل عن المسيح إنه بهاء مجد الله ، ورسم جوهره . وقال هو عن نفسه ، من رآنى فقد رأى الآب ، أنا والآب واحد ، ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شيء الذى منه وبه وله كل الأشياء وقد يراد بها معان كثيرة غير معدودة يقصر دون إدراكها العقل .

الثالث اشخاص متغايرة ، وإن كان وجودها متلازما

٦٣ - وفى هذا التفسير ، والتفسير الذى سبقه يبدو بجلاء أن شخصية الابن غير الآب ، وكذلك روح القدس ، ولكن هل يدخل فى الأقنوم الثانى جسده وروحه ؟ جاء فى كتاب خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر : « كنيسةنا المستقيمة الرأى التى تسلمت إيمانها من كيرلس وديسقوروس ، ومعها الكنائس الحبشية ، والأرمنية والسريانية الأرثوذكسية ، تعتقد أن الله ذات وحدة مثلثة الأقانيم ، أقنوم الآب وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس . وأن الأقنوم الثانى أى أقنوم الابن تجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، مصيرا هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة ، بريئة من الانفصال . وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشية واحدة ،

وتعتقد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية بأن للأقنوم الثانى طبيعتين ومشيتين ، ومن هذا ترى أن الكنائس كلها تعتقد التثليث ، وهذا هو موضع اتفاق ، ولكن موضع الخلاف بينها هو العنصر الإلهى فى المسيح أهو الجسد الذى تكون من روح القدس ومن مريم العذراء الذى باختلاطه بالعنصر الإلهى صاراً طبيعة واحدة ومشية واحدة ، أم أن الأقنوم الثانى له طبيعتان ومشيتان .

الجمع بين التثليث
والوحدانية

٦٤ - ومن هذا كله يفهم أن المسيحيين على اختلافهم يعتقدون أن في اللاهوت ثلاثة يعبدون وعباراتهم تفيد بمقتضا أنهم متغاIRON ، وإن اتحدوا في الجوهر والقدم ، والصفات ، والنشأه بينهم كامل ، ولكن كتابهم يحاولون أن يجعلوهم جميعاً أقانيم لشيء واحد ، وبعبارة صريحة يحاولون الجمع بين التثليث والوحدانية ، ولكن عند هذه المحاولة تستخلق فكرة التثليث ، وتصير بعيدة التصور كما هي في ذاتها مستحيلة التصديق ، وإن كتابهم أنفسهم يعتقدون أنها بعيدة التصور عند هذه المحاولة ، لأن من أصعب الأشياء الجمع بين الوحدانية والتثليث ، فترى صاحب رسالة الاصول والفروع بعد بيان عقيدة التثليث ، يقول : قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ، ونرجو أن نفهمه فيها أكثر جلاء في المستقبل ، حين يتكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض ، وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية ، أي أن عقيدة التثليث لا يمكن أن تنكشف للنفس على وجهها إلا يوم تتجلى كل الأشياء لها يوم القيامة ، وذلك حق ، فانهم لا يعلمون حقيقتها إلا يوم يحاسبهم الله عليها .

لماذا يشغف النصارى بذكر التوحيد بجوار التثليث ، أو على الأقل
بمجتهد بعضهم في بيان أنه لا منافاة بينهما ؟ لعل الذي يدفعهم إلى ذلك هو
اعتبارهم التوراة كتاباً مقدساً عندهم ، وهي تصرح بالتوحيد ، وتدعو إليه ،
وتحث عليه ، وتنبئ عن الشرك بكل شعبه ، وكل أحواله ، بل تدعو إلى
البراءة من المشركين أينما كانوا ، وحينما تفقوا ، فهم يجتهدون أولاً في أن
يستنبطوا من نصوصها ما يحملونه معنى الإشارة إلى التثليث ، كعبارة
« كلمة الله » ، أو عبارة « روح القدس » ، وثانياً يحاولون أن يرجعوا التثليث
إلى الوحدانية ؛ لتلتقي التوراة مع الانجيل ؛ فيقربون التوراة اليهم بتحميل
عبارتها ما لا تحتمل ، ويقربون عقائدهم من التوراة بتضمين
ثالوثهم معنى التوحيد ، وإن كان هو أيضاً لا يحتمل ذلك ، ولعل ذلك تتميم

للفلسفة الرومانية التي كانت تحاول الجمع بين مسيحية المسيح عليه السلام ، ووثنية الرومان ، وتوراة اليهود بما تحمل من وحدانية ظاهرة لاشية فيها ، إلا التجسيد ، أو ما يوهمه في بعض عباراتها .

٦٥ - ولقد يجتهد كتاب المسيحية في إثبات أن عقيدة التثليث والوهمية المسيح قد وردت بها كتبهم المقدسة ، ويسندونها إلى آياتها ، سواء أكانت من كتب العهد القديم ، أم من كتب العهد الجديد ، فيقول صاحب كتاب الأصول والفروع : « أما الآيات الالهية التي تثبت لاهوت المسيح فهي كثيرة جداً . واضيق المقام نكتفي باقتباس شيء يسير ، فن أقواله تعالى بلسان أشعيا النبي : « ها العذراء تحبل ، وتلد ابناً ، وتدعو اسمه عمانوئيل (أى الله معنا ، وقوله : « كانه يولد لنا ولد ونعطى ابناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً ، مشيراً إلهاً قديراً ، أباً أبدية رئيس السلام : أشعيا ٧ : ١٤ و ٩ : ٦ - وعند عماده وتجليه على الجبل شهد له الله من السماء بصوت مسموع قائلاً : « هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت ، متى ٣ : ١٧ و ١٧ : ٥ ويشهد له يوحنا الرسول قائلاً في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . . . كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء . . . والكلمة صار جسداً ، وحل بيننا ، ورأينا مجده مجدداً ، كما للوحيد من الآب ملوماً نعمة وحقا ، يوحنا ١ : ١ و ٣ و ٤ وقال المسيح نفسه أنا والآب واحد ، يوحنا ١٠ : ٣٠ وقال له أحد تلاميذه . « ربى وإلهى يوحنا ٢٠ : ٢٨ وقبل منه السجود . ولم يوبخه على دعوته إلهاً ، ولما سأله رئيس الكهنة ، وقال له استحلفك بالله الحى أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله أجابه المسيح على الحلف : « أنا هو ، قابل متى ٢٦ : ٦٣ بمرقس ١٤ : ٦٢ ، وحينما ركب بحر الجبل أظهر طبيعته لاهوته وناسوته الكليتين ، وذلك بينما كان نائماً هاجت الرياح ، واضطربت الأمواج ، فقام من النوم وأسكتها . فصار هذوء عظيم متى ٨ : ٢٤-٢٧ فبنومه أظهر ناسوته ، وبسكينة الأمواج والرياح أظهر لاهوته ،

ويقول صاحب ذلك الكتاب في أقنوم روح القدس : « ومن حيث أقنومية الروح القدس فظاهر من كلمة الله ، لأن أشعياء يقول ولكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه ، فتحول لهم عدوا ، وهو حاربهم ، أشعياء ٦ : ١٠ » ويقول الرسول بولس لا تحزنوا روح الله القدس . . . ومن المعلوم أنه إن كان الروح قوة ، أو صفة ، أو شيئا من الأشياء غير العاقلة لا يمكن أن يحزن ، أو يفرح أبداً ، فلا بد أن يكون أقنوما ، ثم نقرأ في سفر الأعمال أن الروح قال للرسول : افرزوا إلى برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه . ، وهكذا يسترسل في أمثال هذا الاستدلال إلى أن يقول : « وقيل عن أعمال الله إنها أعمال الروح ، فالروح هو الذى خلق العالم ، ويجدد النفوس ، والمولود منه مولود من الله ، ويحيى أجسادنا الميتة ، وهو على كل شيء قدير . . . »

وفضلا عما ذكر نجد في الكتاب أن الحقوق والصفات الالهية تنسب على سواء إلى كل من الأب والابن والروح القدس ، ولكل منهم تقدم العبادة وهم متساوون ومتحدون ، كما ترى في دستورية المعمودية « عمدوا باسم الاب والابن وروح القدس متى ٢٨ : ١٩ والبركة الرسولية نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة وبركة الروح القدس مع جميعكم .

٦١ - هذه هي استدلالاتهم من كتبهم لاثبات عقيدة التثليث ، والابراه عليها ، وإثبات سندها من تلك الكتب قد أطلنا في نقلها عنهم ، واقتطعناها من عباراتهم بنصها ، ولم نتصرف فيها بأى نوع من أنواع التصرف في البيان خشية التزيد عليهم ، وخشية أن يؤدي التصرف في التعبير إلى التغيير في الفكرة وترى أنهم لم يعتمدوا في إثبات تلك العقيدة على أى دليل عقلى ، بل كل اعتمادهم على ما عندهم من نقل يحملونه من أفعال المعاني ما تنوء به العبارات ، ولا تحتمله أبعد الإشارات ، وإنهم إذا حاولوا أن يربطوا قضية التثليث بالعقل حاولوا جهد الطاقة أن يجعلوا العقل يستسيغها في تصويره ، ويحسون أن العقل لا يكاد يستسيغ ذلك التصور ، وقد نقلنا لك من عباراتهم ما يفيد ذلك ، فارجع إليه ، وإذا كانت محاولاتهم تصوير القضية قد أجهدهم ، وكلفهم ما لا يطيقون ، فكيف يستطيعون أن

يجعلوا من بدائنه العقل ما يحمله على تصديق ما يدعون والاقنعان بما يقولون لذلك لم يحاولوا أن يتجهوا إلى العقل لإثبات قضيتهم من بدهياته ، فان ذلك ليس في قدرة أحد ، إذ ليس في قدرة أحد من البشر جمع النقيضين في قرن ، والتوفيق بين الازداد ، وقضيتهم والبدهييات العقلية نقيضان لا يجتمعان وترى أن اعتمادهم على النقل لا يغنى عن الحق شيئاً ، لأن شروط الإنتاج في استدلالهم غير مستوفاة ، إذ ترى أن تلك العبارات التي عثروا عليها في كتبهم لا تفيد على وجه القطع ما يريدون ، بل قد تفيد بأبعد أنواع الاحتمالات ، أو باحتمال قريب ، ومن المعلوم في قواعد الاستدلال أن الاحتمال إذا دخل الاستدلال أبطله ، وكل أدلتهم ينفذ الاحتمال إليها من كل جانب ، هذا وإن الاستدلال بكتبهم يفيد من يصدقها ، وهي ذاتها يعرفوها النقد العلمى في سندها ، وفي متنها من كل ناحية ، فهي في ذاتها في حاجة إلى دفاع طويل لإثباتها ، وقد بينا ذلك كله في موضعه من بحثنا .

صلب المسيح فداء عن الخليقة :

٦٧ - ولنترك الآن الحديث في عقيدة التثليث ، ولكن يجب قبل تركها مؤقتاً أن نشير إلى أن التثليث لم يرد دفعة واحدة على المسيحية ، بل تورد عليها شيئاً فشيئاً ، إلى أن أعلن نهائياً عند غالبيتهم في نهاية القرن الرابع الميلادى . وسنبين ذلك كله فضل بيان في تاريخ المجامع المسيحية ، وأسباب انعقادها ، وقراراتها ، ومداهها في موضعه من هذا البحث ، ولنتكلم الآن في العنصر الثانى من عناصر العقيدة المسيحية ، وهي صلب المسيح فداء عن الخليقة ، وقد أشرنا إليها إجمالاً من قبل .

يقولون في هذا إن الله من صفاته المحبة ، حتى لقد جاء في الكتب المقدسة عندهم : « الله محبة » ، ومحبة الله ظهرت في تدبيره طريق الخلاص للعالم ، لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة ، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة ، ولكن الله من فرط محبته . وفيض نعمته رأى أن يقربه إليه بعد هذا الابتعاد ، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم ، ليخلص

العالم ، وقد جاء في إنجيل لوقا : « وإن ابن الانسان قد جاء لكي يطلب ، ويخلص ما قد هلك ، فبمحبة ورحمته قد صنع طريقا للخلاص ، لهذا كان المسيح هو الذى يكفر عن خطايا العالم ، وهو الوسيط الذى وفق بين محبة الله تعالى ، وبين عدله ورحمته ، إذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوه ، ولكن باقتران العدل بالرحمة ، وبتوسيط الابن الوحيد ، وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد ، وقد كان التفكير الذى قام به المسيح هو الصلب ، لهذا صلب ، ورضى الله عن صلبه ، وهو ابنه ، ودفن بعد الصلب ، ولسكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره ويقولون إنه كان قد أنبأ بذلك قبل صلبه . جاء في إنجيل متى فى الفقرة التى بعد بيان الصاب ، اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين : يا سيد ، قد تذكرنا أن ذلك المضل قال ، وهو حى إني بعد ثلاثة أيام أقوم ، فربضبط القبر إلى اليوم الثالث ؛ لتلاياقى تلاميذه ليلا ، ويسرقوه ، ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات فتكون الضلالة الأخيرة أشد من الأولى . فقال لهم بيلاطس : عندكم حراس ، اذهبوا ، واضبطوه كما تعلمون . فمضوا وضبطوا القبر بالحراس ، وختموا الحجر ، وقد قام من القبر بعد ثلاثة أيام كما ذكرت أناجيلهم ، ولسكنها اختلفت فى تفصيل القيام ، متى ذكر أنه ظهر فى الجليل ، ولوقا ذكر أنه ظهر فى اورشليم ، ويوحنا ذكر أنه ظهر فى اليهودية والجليل معا ، ومرقس بين ظهوره بين تلاميذه ، وقد ذكر القس إبراهيم سعيد توفيقا لهذا الاختلاف فقال : « أجمع البشرون الأربعة على تقدير هذه الحقيقة . ليس المسيح فى القبر ، لأنه قام كما قال لسكن كلا منهم كتب عن القيامة ، وظهور المسيح للتلاميذ من وجهة نظره الخاصة ، متى كتب عن ظهور المسيح فى الجليل ، لأنه كتب عن المسيح الملك . ولوقا كتب عن ظهوره فى اورشليم ، لأنه كتب عن المسيح مخلص جميع الأمم مبتدئا من اورشليم ، ويوحنا كتب عن ظهوره فى اليهودية والجليل ، لأنه كتب عن المسيح ابن الله الأبدى صخر الدهر ، ومرقس كتب عن ظهور

المسيح للتلاميذ في فترات متقطعة ، ليشدد عزائمهم للقيام بالخدمة التي تنتظرهم ، لأنه كتب عن المسيح الذي جاء ليعلم البشرى ، ويرفعها إلى مستوى الكمال . كل هذا لكي يوقع البشرون الأربعة نغمة مشعبة متنوعة العناصر ، لأنشودة القيامة المجيدة ، فلئن تنوعت روايتهم ، إلا أنها لا تتناقض ، وهذا أشبه بالتعلات التي لا تناقض ، ولا تقوى أمام النظر المنطقي المستقيم ، ولكنها تقبل في الخطايات ، فهي كالزهرة ترى وتشم ، ولكن لا تعرك ، وذلك لأن هذا التوفيق يقوم على قضيتين : إحداهما أن كل إنجيل كتب لغرض معين لا يشمل في عموم ما كتب له الإنجيل الآخر ، وثانيهما أن كلا ذكر المكان الذي يتفق مع غرضه ، وإذن فلا اختلاف في الخبر ، وهذا الكلام فيه نظر في مقدمته ونتيجتهما ، وذلك لأنه لو كان متى كتب يخبر عن المسيح الملك ، ولوقا عن المسيح المخلص ، وهكذا لكان كل إنجيل مغايراً للأناجيل الأخرى تمام المغايرة ، مبايناً له تمام المباينة ، لأنه يكتب في موضوع يخالف ما يكتب فيه الآخر ، وإن كان الشخص واحداً ، كأن يكتب كاتب عن شخص بارز في السياسة والقانون . فكاتب يكتب عنه سياسياً ، وآخر يكتب عنه قانونياً ، فالموضوع يختلف ، وإن كان الشخص متحداً ، ولكننا لا نجد في الأناجيل في مجموعها ذلك التباين ، وعلى فرض تسليم تلك القضية لاستطيع أن نسلم القضية الثانية وهي أن الجليل يناسب المسيح الملك ، وأورشليم تناسب المسيح المخلص ، وهكذا فلماذا اختصت هذه بالملك ، وتلك بالخلاص ؟ إن ذلك التخصيص تحكم لا يعتمد على منطق ، وعلى فرض صحة المقدمتين ، فإن النتيجة لا تنبئ عليهما ، لأن النتيجة اختلاف ذكر الأماكن في حادثة معينة والشهادة بها ، فأحد الشهود يقول إنه رآه في الجليل ، وآخر يشهد بوجوده بين التلاميذ في فترات متقطعة ، وثالث يشهد بوجوده في أورشليم ، وإذا اختلف الشهود في مكان حادثة معينة كان اختلافهم سبباً للظنة في الشهادة واتهام الشهود فيها ، ولئن قيل إن المسيح ظهر

في كل الأمكنة التي ذكرت، بيد أن كلا ذكر مارأى . ولم يكن رآه فيها جميعاً
كان الكلام مستقيماً ، ولكن يكون معناه أن كل إنجيل لم يذكر حال المسيح
كاملة، ويحتمل أن يكون الجميع لم يذكرها كاملة على هذا الأساس ، ويكونون
قد نسوا حظاً مما ذكروا به .

المسيح يدين ويحاسب :

٦٨ — لم يملكث المسيح بعد قيامته هذه التي يعتقدها المسيحيون إلا أربعين
يوماً ، ثم ارتفع بعدها إلى السماء وجلس بجوار الآب في زعمهم ، وسيأتي
ليدين الناس يوم القيامة ، يحاسب كل إنسان على ما فعل وفكر ، إن خيراً أخيراً
وإن شراً فشر . وله بهذا الملك الأبدى ؛ فلا فناء للملكه ، فهم يقولون إن الله
قد أقام يوماً ، سيدين فيه سكان هذه الأرض يسوع المسيح ، لأن الآب في
زعمهم لا يدين أحداً ، بل قد أعطى ذلك للابن ، فأعطاه سلطان أن يدين
الإنسان ؛ لأنه ابن الإنسان أيضاً ، ولا بد أن يظهر الناس جميعاً أمام كرسي
المسيح . لينال كل واحد جزاء ما كان قد صنع ، خيراً أو شراً ، هذه عقيدتهم ،
فقد جاء في إنجيل يوحنا : « الحق أقول لكم ، إنه تأتي ساعة ، وهي الآن ، حين
يسمع الأموات صوت ابن الله ، والسامعون يحيون ، لأنه كما أن الآب له
حياة في ذاته ، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته ، وأعطاه سلطاناً
أن يدين أيضاً ، لأنه ابن الإنسان ، لا تعجبوا من هذا ، فإنه تأتي ساعة فيها
يسمع جميع الذين في القبور صوته ، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة
الحياة ، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة ، أنا لا أقدر أن أفعل من
بنفسي شيئاً ، كما أسمع أدين ، ودينوتي عادلة لأنني لا أطلب مشيتي ، بل مشيئة
الآب الذي أرسلني ، راجع الإصحاح الخامس . وجاء في رسالة بولس الثانية
إلى أهل كورنثوس : « لا بد أننا جميعاً نظهر أمام كرسي المسيح ، لينال كل
واحد منا ما كان بالجد ، بحسب ما صنع ، خيراً كان أم شراً ، (راجع الإصحاح

الخامس من هذه الرسالة) وجاء في رسالة بولس إلى أهل تسالونيكي وإن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً، وإياكم الذين تتضايقون — راحة معنا، عند استعلان الرب يسوع مع ملائكة قوته في نار لهيب معطياً نقمته للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب، ومن مجد قوته، متى جاء ليتمجد في قدسيه، ويتعجب منه في جميع المؤمنين .

فهذه النصوص جميعها تبين بجلالة أن الذي سيحاسب الناس، ويجازيهم بما فعلوا، الخير بمثله والشر كذلك إنما هو المسيح في نظرهم .
تقديس الصليب :

٦٩ — لا يرتفع تقديس الصليب إلى مرتبة العقائد السابقة، لأن تلك العقائد أساس المسيحية أما الصليب فليس له ذلك الحظ، وإن كان شعارهم، وموضع تقديس الأكثرين، ولذا كان حملة علامة على اتباع المسيح. جاء في إنجيل لوقا: « وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فليترك نفسه، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني، وحمل الصليب كما يقول كتابهم إشعاراً بإنكار النفس، واقتفاء أثر المسيح في هذا الإنكار، والسير وراء مخلصهم، وفاديتهم. جاء في شرح بشارة لوقا للقس إبراهيم سعيد: « أن آثار قدمي المعلم تعين طريق خطوات التلاميذ لأنه وإن كان المسيح قد صلب عنا، فقال في صلبه: « قد أكمل، لسكننا قد أصبحنا بحكم صلبه عنا تحت التزام شرعي لأن نكون شركاء المسيح المتألم. إن شركتنا الشرعية مع المسيح المصلوب ينبغي أن ترافقها وتدعمها شركة اختيارية فعلية معه. إن صلب المسيح معناه مات عنا، ولكن صليب كل مؤمن معناه: « موت النفس عن الأنانية وحب الذات. وخلاصة هذه الذات هي النفس الأمارة بالسوء — هي تلك الإرادة المتمردة التي ينبغي أن نخضعها، ونستأسرها لطاعة المسيح، فقول كل واحد ليس ما أريد أنا، بل ما تريد أنت يا رب، أنه من أوجب واجبات كل مسيحي أن يحمل صليبه مختاراً طائعاً، لأن التعبير بحمل

مقام الصليب
في المسيحية

صليبه مستعار من العادة التي قضت بها الأنظمة الرومانية على المحكوم عليه بالصلب أن يحمله كل يوم ، وهذه العبارة انفرد بها لوقا بذكراها ، فهو صليب يتجدد كل يوم ، كلما تجددت الآمال ، والآلام في الحياة اليومية العملية ، فلا بد إذن لحمل الصليب من خطوة تسبقه ، وخطة تعقبه . أما الخطوة السابقة له ، فهي إنكار النفس بمعنى أن يقول تلميذ المسيح لنفسه الأمانة بالسوء ، لا ، لأن حمل الصليب هو حمل العار مضافا إلى ألم الموت ؛ وهذا عمل يستلزم إنكار النفس ، لأن الرومان لم ينفروا من الصليب فقط ، بل فزعوا من ظلمه . كذلك كان شعور اليهود بأن حمل الصليب هو حمل اللعنة ؛ لأنه مكتوب في ناموسهم « ملعون كل من علق خشبة » ، والخطوة اللاحقة لحمل الصليب بل الخطوات هي اقتفاء آثار المسيح كقوله « ويتبعني » ، إذن ليس حمل صليبا غاية ، ولكنه وسيلة لهذه الغاية ، وهي اتباع المسيح حيث « يمضي » اه .

فحمل الصليب إذن عندهم ليس غاية ، وليس مقصودا لذاته ، ولكنه مقصود لغاية أخرى أسمى منه ، وهي اقتفاء خطوات المسيح في إنكار الذات ، والرضا بالفداء في زعمهم واتباع تعاليمه .

عبادتهم ،

٧٠ — عند النصارى عبادان : هما الصلاة ، والصوم ، أما الصوم فانهم يقولون إن شرعه عليهم اختياري لا إجباري ، وميقاته قد تتخالف فيه الفرق ، فلنتركه إلى الكلام في الفرق والكنائس ، ولنتكلم الآن في صلاتهم ، والصلاة عندهم ركن من أركان الدين . وهي في زعمهم تقربهم إلى الله عن طريق المسيح ، ولقد جاء في كتاب الأصول والفروع : « إن الدين قلب مقتنع بوجود الله الخالق والحافظ والفادي ، فتكون الصلاة ترجمان ذلك القلب ، يعبر بها عما يخالجه من الآشواق والعواطف ، فبالنظر لاقتناعه بقداسته تكون الصلاة كلمات التعظيم والتسبيح له ، وبالنسبة لاقتناعه بجوده وإحسانه تكون الصلاة عبارات الشكر

والحمد ، وبالنسبة لوقوعنا في الخطيئة — تكون الصلاة كلمات التذلل والتواضع والاستغفار ، وبالنسبة للاحتياج إليه تعالى تكون الصلاة طلبا ودعاء ، والصلاة عندهم لها شرطان أساسيان لا توجد بدونهما ، هما منها بمنزلة الدعامة : الشرط الأول ، أن تقدم باسم المسيح فقد جاء في الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا : « الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم ، إلى الآن لم تطلبوا شيئا باسمي . اطلبوا تأخذوا ليسكون فرحكم كاملا . » ويعلمون ذلك بأن الانسان بسبب خطاياہ أبعاد عن رضا الله ، ولكن بدم المسيح زال هذا البعد ، واصبح قريبا إليه فقد جاء في رسالہ بولس إلى أهل إفسس في الإصحاح الثاني منها : « لكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلا بعيدين صرتم قريين بدم المسيح ، لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً ، ونقض حائط السياج المتوسط ، ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع : « للصلاة باسم المسيح معنى أدق من ذلك . وهو أن الاسم يمثل دائما المسمى ، فتسكون صلاتنا باسم المسيح تمثل وحدته معنا ، بحيث تسكون طلباتنا طلباته ، وصلاحتنا صالحه ، وحياتنا حياته . وبالجملة كأنه يحيا فينا ولاجلنا ، الشرط الثاني : أن يسبق الصلاة الايمان الكامل عندهم ، فقد جاء في الإصحاح الحادى عشر من إنجيل مرقس مانصه : « لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه ، فيكون لكم ، وجاء في رسالة يعقوب « وليكن الطلب بأيمان غير مرتاب البتة ، لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخبطه الريح وتدفعه ، فلا يظن ذلك الانسان أنه ينال شيئا من الرب . »

وليس للصلاة عندهم عبارات خاصة معلومة يجب أن يتلوها ، بل ترك لهم أن يتلوا العبارات التي يختارونها بشرط ألا تخرج عن قاعدة الصلاة التي عليهم إياها المسيح ، لكي يصلوا على منوالها ، وهى السماة بالصلاة الربانية وهى التي جاءت في صدر الإصحاح الحادى عشر من إنجيل يوحنا ، ففيه عن

المسيح ، وإذا كان يصل في موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه : يارب علمنا أن نصلي ، كما علم يوحنا أيضاً تلاميذه ، فقال لهم متى صليتم ، فقولوا أبانا الذي في السماوات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئةك كما في السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم ، واغفر لنا خطايانا ، لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب إلينا ، ولا تدخلنا في تجربة . ولكن نجنا من الشر ، ، ولديهم أمثلة كثيرة للصلوات يختارون منها مايسهل عليهم وأشهر الأسفار المشتملة على نماذج للأدعية والصلوات سفر المزامير ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع ، « إنه خزانة ذهبية لصلوات داود النبي وغيره من الأنبياء صلوا بها في أحوالهم الخاصة ، مسوقين من الروح القدس ، وكثيرا مايعرض علينا ذات أحوالهم ، فنقتبس من أقوالهم ما يطابق حالتنا واحتياجنا للاستعانة على التعبير عما بنا من ملأت الأمور ، كما في حال الحزن والأسى على خطايانا نقتبس في صلاتنا من مزمارة ٥١ - شكر الله . على أشد العبارات تأثيراً بصدد التوبة والاعتراف ، والاستغفار من الله . وكما إذا كنا في حال الشعور برحمة الله علينا ، ونعمته نقتبس من مزمارة ١٠٣ - للتعبير عن شكر قلوبنا ، وشعورها بالمنة والنعمة ، انتهى بتصرف .

وليس عليهم عدد معين من الصلوات كل يوم ، كما أنه ليس لها مواقيت معلومة ، بل كل ذلك قد وكل إلى نشاط المصلين ، ورغبتهم في العبادة ، ولكن لأن اليهود كانوا يعبدون الله في هياكلهم في صباح كل يوم ومسائه استنبطوا أنه تلزم الصلاة مرتين ، إحداهما في الصباح ، والأخرى في المساء ، ويقولون في حكمة ذلك في الصباح « نطلب بركة الرب علينا سحابة اليوم ، وأن يهدينا إلى عمل مافيه رضائه ، وأن يحفظنا من السوء وفي المساء نشكره على إحسانه علينا ، كما أننا نعترف بما فرط منا في اليوم من الزلات ، ونطلب منه المغفرة ودوام نعمته علينا ، وفوق ذلك "لأنفتأ نذكر فضله ونشعر بحميله دائماً .

وإذا لم يكن للصلاة عدد محدود عندهم، فالمستحسن الأكثر، ويخالفون اليهود في زعمهم أن الإكثار من الصلاة يجعل الله يمل . جاء في إنجيل لوقا في صدر الإصحاح الثامن عشر مانصه : قال لهم مثلاً في أنه ينبغي أن يصلي كل حين ، ولا يمل قائلاً : كان في مدينة قاض لا يخاف الله ، ولا يهاب إنساناً ، وكان في تلك المدينة أرملة ، وكانت تأتي قائلة أنصفني من خصمي وكان لا يشاء إلى زمان ، ولكن بعد ذلك قال في نفسه ، وإن كنت لا أخاف الله ولا أهاب إنساناً ، فأني لأجل أن هذه الأرملة تزججني أنصفها لئلا تأتي دائماً فتقمعني ، وقال الرب اسمعوا ما يقول قاضي الظلم ، أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهارة و ليلاً ، وهو متمهل عليهم أقول لكم إنه ينصفهم ، ويقول القس إبراهيم سعيد في شرح هذه الجمل في إنجيل لوقا : « ينبغي أن يصلي كل حين ولا يمل ، من هنا نرى أن صلاة المثابرة واللجاجة ليست من الأمور الممكنة فقط ، ولكنها من الأمور الواجبة ، فهي فرض عين لا فرض كفاية ، وهذا على خلاف ما علم به التلمود ، محذور على الإنسان أن يصلي أكثر من ثلاث مرات في النهار ، لأن الله يمل الصلاة كل ساعة ، ولقد أوصى المسيح بالصلاة من غير ملل لعله أن صلاة الروح تعب على الجسد ، سيما إذا تأخرت الإجابة ، فالروح نشيط والجسد ضعيف ، وجاء في آخر رسالة بولس إلى أهل تسالونيكي : صلوا بلا انقطاع ، وبين معنى ذلك صاحب رسالة الأصول والفروع فيقول : « معنى هذا أن نستحضر في أذهاننا روح الصلاة على الدوام ، وكلما خطر على البال ذكر الله ومحبه نرفع قلوبنا إليه ، سواء أكان بالقول أو بالتوجيهات القلبية بدون كلام . والله يعلم ما في القلوب . »

من شعائر المسيحية :

٧١ — للمسيحية شعائر يجب القيام بها ، ولا يصح التخلي عنها ويقولون فيها إنها فرائض مقدسة وضعها المسيح ، وهي أعمال حسية تشير إلى بركاته

روحية غير منظورة ، ومن هذه الشعائر الواجب اعتقادها والعمل بها التعميد والعشاء الرباني

التعميد والعشاء الرباني :

وقد جاء في إنجيل متى عن التعميد : تقدم يسوع وكلهم قائلاً دفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض ، فاذهبوا وتلبثوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن وروح القدس ، وعلوهم جميع ما أوصيكم به ، وجاء بالنسبة للعشاء الرباني في رسالة بولس لأهل كورنثوس ما نصه : « إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزاً ، وشكر ، فكسر وقال : خذوا وكلوا ، هذا هو جسدى المكسور لأجلكم ، اصنعوا هذا لذكرى . » كذلك ذكر الكأس أيضاً بعد ما تعشوا قائلاً : هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي ، اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى . فانكم كلما أكلتم هذا الخبز ، وشربتم هذا الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء . »

بهذه النصوص ثبت التعميد ، والعشاء الرباني ، والتعميد يقول فيه صاحب كتاب الأصول والفروع : « فريضة مقدسة يشارفها بالغسل بالماء باسم الآب ، والابن والروح القدس إلى تطهير النفس من أدران الخطية بدم يسوع المسيح ، وهي ختم عهد النعمة كما كان الختان في الشريعة الموسوية ، والمعمودية تدل على اعترافهم العلني بأيمانهم وطاعتهم الآب والابن والروح القدس كأهلهم ومعبودهم الوحيد ، ولا يجوز أن يعمدوا إلا إذا اعترفوا بأيمانهم جهاراً أمام كنيسة الله ، ويقول في العشاء الرباني : « هو فريضة رسمها المسيح في الليلة التي أسلم فيها ، ويستعمل في هذه الفريضة قليل من الخبز والخمر ، فيأخذ كل من المؤمنين لقمة من الخبز ، وقليلاً من الخمر على المثال الذي رسمه المسيح تذكراً لموته ، فالخبز يشير إلى جسده المكسور ، والخمر إلى دمه المسفوك ، فالمؤمنون الذين يشتركون في هذا العشاء يقبلون المسيح بالإيمان كالخبز الذي نزل من السماء وكل من يأكل منه لا يجوع . ولكنهم لا يقبلونه طعاماً جسدياً بل طعاماً روحياً حياة روحية لأجل النمو في النعمة . »

والإيمان ويقول أيضا : « ويشير العشاء الرباني إلى مجيء المسيح الثاني ، كما يشير إلى موته فيكون تذكراً للماضي والمستقبل .
من تنظم الأسرة :

٧٢ - في الإنجيل ورسائل من يعتقدون أنهم الرسل في المسيحية ذكر للزواج والطلاق ففيها بيان لبعض شريعة الأسرة مختصرة ، وخلاصة ما جاء في كتبهم المعتبرة أن الزواج قدس للإنسان ، وشرع له ، بل إن الزواج شرعه الله للإنسان وهو في جنة عدن ، خلق لآدم من ضلعه حواء ، لأنه كما في سفر التكوين « ليس جيداً أن يكون آدم وحده ، فأصنع له معيناً نظيره » ، على أن المسيح في إنجيل متى قد أجاز العزوبة في حال عدم القدرة التناسلية ، وذلك بدهى ، وجاء في رسالة بولس لأهل كورنثوس أنه تجوز العزوبة إذا استطاع الرجل أو المرأة أن يضبط نفسه ، ويتوقى الزنى ، فقد جاء في الأصحاح السابع من هذه الرسالة « ولستكني أقول لغير المتزوجين ، وللأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ، ولستكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فيتزوجوا ، لأن الزوج أصلح من الخرق . وشرعية الزواج عندهم لا تحل للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ولا يطلق ، وقد فهموا ذلك من إنجيل متى ، ففي الأصحاح التاسع عشر منه : « قال له تلاميذه إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج ؟ فقال ليس الجميع يقبلون هذا الكلام ، بل الذى أعطى لهم ، ولا يفترق الزوجان إلا بالموت ، وبعد موت أحدهما يحل للحي أن يتزوج غيره ، وهذا نص ما جاء في رسالة بولس لأهل رومية » إن الناموس يسود على الإنسان ما دام حياً . فإن المرأة التى تحت رجل هى مرتبطة بالناموس بالرجل الحى ، ولستكن إن مات الرجل ، فقد تحررت من ناموس الرجل ، فإذا ما دام الرجل تدهى زانية إن صارت لرجل آخر ، وقبل موت أحدهما لا يحل لها الطلاق . وهذا نص ما جاء في متى في الأصحاح التاسع عشر منه : « جاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لسكل سبب ؟ فأجاب وقال لهم أما قرأتم أن الذى

خلق من البدء خلقهما ذكرًا وأنثى ، وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، ويكون الإثنين جسداً واحداً ، إذن ليس بعدائنين ، بل جسد واحد ، فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان . قالوا فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق ، فنطلق . قال لهم : إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ، ولكن من البدء لم يكن هذا ، وأقول لكم إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنى ، وتزوج بأخرى يزنى ، والذى يتزوج بمطلقة يزنى ، الطلاق لا يجوز ولا يقع ، ولكن استثنيت حالان يجوز فيهما الافتراق . الحال الأولى : حال زنى أحد الزوجين ، فلأخر أن يطلب التفريق ، ويحجب في هذه الحال إن ثبت الزنى . الثانى : إذا كان أحد الزوجين غير مسيحي فيصح التفريق عند تهجرهما ، وعدم وجود الألفة بينهما . ولذا جاء فى رسالة بولس إلى أهل كورنثوس : والمرأة التى لها رجل غير مؤمن ، وهو يرتضى أن يسكن معها فلا تتركه ، لأن الرجل غير المؤمن مقدس فى المرأة ، والمرأة غير المؤمنة مقدسة فى الرجل ، وإلا فأولادكم نجسون ، وأما الآن فهم مقدسون ، ولكن إن فارق غير المؤمن فليفارق .

ولقد أمرت المسيحية فى وصايا رسلهم بأن يحب الرجال نساءهم ، فقد جاء فى إحدى رسائل بولس : أيها الرجال أحبوا نساءكم ، كما أحب المسيح أيضا الكنيسة ، وأسلم نفسه لأجلها ، وفيها أيضا : وأما أنتم أيها الأفراد فليحب كل واحد امرأته ، هكذا كنفسه ، وأما المرأة فلتحب رجلاً ،

شرائع التوراة والمسيحية :

—مقالة شرائع
التوراة فى المسيحية

٧٣ — ولقد كان المفهوم من أن المسيحية تعتبر التوراة وأسفار النبيين السابقين كتباً مقدسة تسميها كتب العهد القديم ، أن تأخذ بكل الشرائع التى نصت عليها التوراة إلا ما خالفه المسيح بنص قد أثر عنه ، ويظهر أن المسيحيين استمروا على ذلك نحواً من اثنتين وعشرين سنة من بعد المسيح ، وهم فى هذا كانوا يسرون على المنهاج الذى سنه ، والطريق الذى بينه ، ولكن التلاميذ اجتمعوا بعد مضى اثنتين وعشرين سنة من تركه لهم ، وخطب يعقوب فيهم ،

مقترحا عليهم أن يحصروا المحرم على الأمم في أربعة ، وهى الزنى ، وأكل الخنزير والدم ، وما ذبح للأوثان . وكان ذلك لأنهم وجدوا أن الختان يشق على بعض من يدعوهم إلى النصرانية ، فيفرون منها بسببه ، وهذا نص ماجاء فى الإصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال بعد بيان خلاف التلاميذ بشأن الختان ، واجتماعهم لأجل الفصل فى شأنه . حينئذ رأى الرسل والمشايخ أن يختاروا رجلين منهم ، فيرسلوهما إلى أنطاكية مع بولس وبرنابا وبهوذا الملقب برسبابا وسيلا رجلين متقدمين فى الأخوة ، وكتبوا بأيديهم هكذا : الرسل والمشايخ يهدون سلاما إلى الأخوة الذين هم من الأمم فى أنطاكية وسورية وكيليكية ، إذ قد سمعنا أن أناسا خارجين من عندنا أزعموكم بأقوال مقامين أنفسكم ، وقائلين أن تحتنوا وتحفظوا الناموس من الذين نحن لم نأمرهم . وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ، ونرسلهما إليكم مع حبيبتنا برنابا ، وبولس ، رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح ؛ فقد أرسلنا يهوذا وسيلا ، وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاها ، لأنه قد رأى الروح القدس . ونحن — ألا نضع عليكم ثقلا أكثر ، غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم والخنزير ، والزنى التى إن حفظتم أنفسكم منها ، فنعما تفعلون . كونوا معافين .

فى هذا الخطاب يتبين أن المشايخ والتلاميذ يحللون للناس كل ما حرمه الناموس ، أى التوراة وكتب النبيين السابقين ، ولا يجعلون محرما عليهم إلا أربعة أمور والامتناع عنها هو الأمر الواجب فقط ؛ وبذلك حل لهم كل شئ . حرمة التوراة حل لهم الخمر والخنزير ، والربا ، وكل ما كانت التوراة وشرائع النبيين قد حرمت ، وبأى شئ أعطى هؤلاء القدرة على التحليل والتحرير ، قد قالوا إن ذلك بإلهام من روح القدس وتجليه . وقد ذكر صاحب سفر الأعمال على لسان بطرس ، أنه قال فى افتتاح ذلك الاجتماع الذى أصدر ذلك القرار مانصه ، « أيها الرجال الأخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بسمى يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون . والله العارف القلوب

شهد لهم معطياً لهم روح القدس ، كما لنا أيضاً . ولم يميز بيننا وبينهم بشيء . إذ طهر بالإيمان قلوبهم . فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله ، لكن بنعمة الرب يسوع المسيح تؤمن أن نخلص ، كما أولئك أيضاً ، فمن هذا النص يستفاد أن الذي يسوع لهؤلاء أن ينصرفوا جهاً عما كانوا عليه ، وعما تركهم المسيح عليه ، هو أنهم ينزل عليهم روح القدس ، كما كان ينزل على التبيين الصديقين ، وذلك في اعتقاد كتاب المسيحية ، وقد بينا حقيقة ذلك في موضعه من كلامنا في الكتب .

تعليق لحم الخنزير
مع تحريمه في التوراة

ولقد أحلوا فيما أحلوا من محرمات التوراة لحم الخنزير ، وكان المعروف أنه حرام في النصرانية التي تأخذ بكتب العهد القديم ، وعلى رأسها التوراة ؛ ويروي ابن البطريق في هذا المقام أن اليهود لما دخلوا في النصرانية بسبب اضطهاد قسطنطين لهم بعد تنصره تشكك النصارى في إيمانهم ، فأشار بطريك القسطنطينية على قسطنطين أن يختبرهم بحملهم على أكل لحم الخنزير وقال له : « إن الخنزير في التوراة حرام ، واليهود لا يأكلونه ، فتأمر أن تذبح الخنازير : وتطبخ لحومها ، ويطعمون منها هذه الطائفة ، فمن لم يأكل علمت أنه مقيم على اليهودية » عندئذ آمن قسطنطين بتحريم الخنزير ، إذ نصت على التحريم التوراة المقدسة في نظر النصارى ، كما هي مقدسة في نظر اليهود ، وقال « إن كان الخنزير في التوراة محرماً فكيف يجوز لنا أن نأكل لحمه ، ونطعمه للناس ، ولكن البطريك ما زال به حتى حمله على الاعتقاد بأنه حلال فقد قال له : « إن سيدنا المسيح قد أبطل سائر ما في التوراة ؛ وجاء بتوراة جديدة هي الإنجيل ، وقال في إنجيله المقدس إن كل ما يدخل الفم ليس ينجس الإنسان ، إنما ينجس الإنسان كل ما يخرج منه من فيه يعني السفه والكفر ، وغير ذلك مما يجري مجراه ، ويقص قصة عن بولس رسولهم بأن بطرس رأى رؤيا تفيد التحليل ، وبذلك يحللون الخنزير .

المجامع المسيحية

تاريخها . وأسبابها . وقراراتها

٧٤ — قد شرحنا فيما أسلفنا من القول العقائد المسيحية ، كما هي في كتبهم ولم نزمع إلى الآن لدراستها دراسة نقدية ، لأننا نجدهم يجتهدون في تصويرها ويشعرون بعظم المشقة في ذلك حتى إذا يأسوا قالوا إنها فوق العقل ، وإن العقل لا يستطيع تصويرها تصويرا كاملا ، وأنها ستنجلي يوم القيامة ، ولذلك نجد من الظلم لأنفسنا أن نناقشها ، لأن العقل لا يستطيعها باعترافهم فكيف نناقشها ، وهم يلقنون الصبية بأن يجتهدوا في تصورها وتصديقها ، لا في البرهنة لها وإثباتها ، ولذلك نترك الآن مناقشتها بالعقل ، ونحيل القارئ الكريم على ما كتب الذين ناقشوها من فطاحل العلماء ، ونخص بالإشارة كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي وكتاب الفارق فيما بين المخلوق والخالق ، والقول الصحيح لابن تيمية بل الله ثراه ، فإن هؤلاء لم يتركوا مقالا لقائل .

ويهمنا الآن في بحثنا التاريخي أن نبين الأدوار التي مرت عليها هذه العقيدة ؛ فإنه من المقرر في تاريخ المسيحية بالبداهة أن التثليث بالشكل الذي يعتقدونه جماهير المسيحيين ، أو السكثرة الغالبة فيهم ، لم يعلن للناس دفعة واحدة ، بل في أزمان متفاوتة مختلفة ، وكان بأعلان المجامع التي كانت تعقد من الأساقفة ، وفيها يقرر المجمع رأيا معيناً ولا يهمنا عما كانت تقرر تلك المجامع إلا ما يتعلق بالعقيدة ، وإن كنا سنعرض أحيانا لما كان يحى في ثنايا قراراتها من بعض النظم .

كيف وجدت
فكرة جمع مجامع

والمجامع في المسيحية هي كما يقول علماءهم جماعات شورية في المسيحية قد رسم رسلهم نظامها في حياتهم ، حيث عقدوا المجمع بأورشليم بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة ، وقرر ذلك المجمع ، كما علمت قريبا عدم التمسك بمسألة الختان ، بل زاد فقرر عدم التمسك بشرائع التوراة ، وما وليها من سائر أسفار العهد القديم المقدس عندهم . إلا تحريم الزنى ، وأكل الخنوق وأكل الدم ، وأكل ذبائح الأوثان ، فقد قالوا إن التلاميذ والمشايع بهذا المجمع الذى بينه سفر الأعمال فى إصحاحه الخامس عشر قد سنوا للمسيحيين سنة جمع المجامع ؛ لدراسة ما يتعلق بالعقيدة والشرعية .

المجامع العامة
والمجامع الخاصة

والمجامع عندهم قسمان : مجامع عامة أو على حد تعبيرهم مجامع مسكونية أى تجمع رجال الكنائس المسيحية فى كل أنحاء المعمورة ، والمجامع المسكونية وهى التى تعقد كنائس مذهب أو أمة فى دوائرها الخاصة من أساقفتها وقسوسها إما لإقرار عقيدة ، أو لرفض عقائد عامة .

ويقسم المجامع صاحب كتاب سوسنة سليمان إلى ثلاثة أقسام فيقول : وهذه المجامع تنقسم بالنظر إلى عدد أربابها ودرجاتهم ، وشوكتهم إلى ثلاثة أقسام وهى : مجامع عامة ، ويقال لها مسكونية ومجامع محلية ، أى خاصة بطائفة دون غيرها ، ومجامع إقليمية أى خاصة بإقليم مخصوص ، لكن مقاصد كلامنا لا تحتاج إلا إلى ذكر المجامع التى تعتبر عامة سواء صادق عليها الجميع أو أنكرها بعضهم على بعض ، لما فى ذلك من معرفة النتائج التى تولدت عنها ، هذا كلام صاحب ذلك الكتاب المسيحى ، وإذا كان هو لا يعنى فى تاريخ ديانته إلا بالمجامع العامة ، فنحن كذلك لا نعنى إلا بها ، وقد أحصى المجامع العامة من القرون الأولى للمسيحية إلى سنة ١٨٦٩ فكانت عدتها عشرين مجعاً ، وقد ذكرها جميعاً بالإجمال ، وذكر قراراتها بالإشارة وسنحذو حذوه فى بعضها ، وسنترك الأجمال إلى بعض التفصيل فى بعضها الآخر ، وخصوصاً فى المجامع التى كانت فى القرون الأولى للمسيحية ، لأنها

هى التى حدثت الأخلاف حدود العقيدة المسيحية فى نظر مقرئها ، وهى التى رسمت المسوح والتقاليد الكنسية القائمة فى الكنائس ، أو بعضها الكثير إلى الآن ، وهى التى فلحت الأرض لتبذر بذور هذه المسيحية التى سادت أفكار المسيحيين فى الأجيال من بعد .

ونبدأ بأعظم هذه المجامع ، وأبعدها أثراً ، وأكبرها شأنًا ، وأولها وجوداً وأعظمها ذكراً ، هو :

١ — مجمع نيقية ٣٢٥

٧٥ — اشتد الاختلاف بين الطوائف المسيحية الأولى ، وتباعدت مسافات الخلف تباعداً شديداً ، لا يمكن أن يكون معه وفاق ، وكان الاختلاف يدور حول شخص المسيح ، أهو رسول من عند الله فقط من غير أن تسكون له منزلة أكثر ممن له شرف السفارة بين الله وخلقه ، أم له بالله صلة خاصة أكبر من رسول ، فهو من الله بمنزلة الابن ، لأنه خلق من غير أب ، ولكن ذلك لا يمنع أنه مخلوق لله ، لأنه هو كلمته ، ومن قائل إنه ابن الله ، له صفة القدم ، كما لله تلك الصفة ، وهكذا تباينت نحلهم ، واختلفت ، وكل يزعم أن نحلته هى المسيحية الصحيحة التى جاء بها المسيح عليه السلام ، ودعا إليها تلاميذه من بعده ، ويظهر أن ذلك الاختلاف ، وتلك النحل المتباينة المتضاربة المتنازعة ، قد ظهرت بعد أن دخلت طوائف مختلفة ، من الوثنيين من الرومان ، واليونان ، والمصريين ، فتسكون فى المسيحية مزيج غير تام التكوين ، غير تام الاتحاد ، والامتزاج ، وكل قد بقى عنده من عقائده الأولى ما أثر فى تفكيره فى دينه الجديد ، وجعله يسير على مقتضى ما اعتنق من القديم من غير أن يشعر أو يريد ، ومن دخل فى ذلك الدين فلاسفة لهم آراء فلسفية أرادوا أن يفهموا ما اعتنقوه جديداً على ضوءها ، وعلى مقتضى منطقها وتفكيرها .

سبب انعقاد العالم
الاختلاف بينهم فى
شخص المسيح

ولقد كانت تلك الاختلافات كامنة لا تظهر مدة الاضطهادات الرومانية، لأنهم شغلوا بدفع الأذى، ورد البلاء، واستقبال المحن والكوارث، وكانوا يستسرون بدينهم ولا يظهرون، ويخفون عقائدهم، ولا يعلنونها، حتى إذا رزقوا الأمان، ونزلت عليهم سحاب الاطمئنان ظهرت الخلافات الكامنة، وإذا هم لم يكونوا متفقين إلا في التعلق باسم المسيح، والاستمسك بالانتساب إليه من غير أن يتفقوا على شيء في حقيقته، ولذا لما منحهم قسطنطين عطفه، واعتزم الدخول في النصرانية، ووجد هذا الاختلاف الشديد، أمر بعقد مجمع نيقية.

الاختلاف
الخاص الذي انعقد
المجمع بعده

كلام أريوس

٧١ — هذا هو السبب في عقد مجمع نيقية بشكل عام، لكن له سبباً خاصاً يتعلق بنوع من هذه الخلافات، وهو ما يسمونه في تاريخهم بدعة أريوس، كان هذا الرجل في مصر داعية قوى الدعاية، جريئاً فيها، واسع الحيلة، بالغ الأرب، قد أخذ على نفسه مقاومة كنيسة الاسكندرية فيما تبثه بين المسيحيين من ألوهية المسيح وتدعو إليه، فقام هو محارباً ذلك، مقرأً بوحداية المعبود، منكرأ ما جاء في الأناجيل بما يوهي تلك الألوهية، وقد قال في بيان مقالته ابن البطريق: «كان يقول أن الآب وحده الله والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الآب إذا لم يكن الابن،

ولم يكن بدعاً في القول بهذه الفسكرة بين المسيحيين، بل إنها كانت معروفة مذكورة مشهورة من قبله، كما يقول المسيحيون أنفسهم، ولقد جاء في كتاب تاريخ الأمة القبطية مانصه: «الذنب ليس على أريوس بل على فئات أخرى سبقت في إيجاد هذه البدع، فأخذ هو عنها، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً، كما كان تأثير أريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية، حتى انتشر هذا التعليم، وعم، ولقد كان لرأى أريوس في اعتبار المسيح مخلوقاً لله مشايعون كثيرون، فقد كانت الكنيسة في أسبوط على هذا الرأي، وعلى رأسها ميليتوس، وكان أنصاره في الاسكندرية

انتقار رأي أريوس
وطرق محاربه

نفسها كثيرين من حيث العدد ، أقوياء من حيث المجاهرة بما يعتقدون ، كما كان لهذا الرأي مشايعون في فلسطين ومقدونية ، والقسطنطينية فيما بعد . وقد أراد بطريرك الاسكندرية أن يقضى على هذه الفكرة ، فلم يعمد إلى المناقشة والجدل ، حتى لا يتسع الخرق على الراقع ، وحتى لا يلحن بالحجة عليه أريوس ولكنه عمد إلى لعنه وطرده من حظيرة الكنيسة ، وبينى ذلك على أنه رأى المسيح يتبرأ من أريوس وبلغنه ، نفى من الكنيسة مرتين لهذا الرأي ، وبحجة تلك الرؤى المنامية ، ومن أمثلتها قول البطريرك بطرس الذي أمر بنفيه : « إن السيد المسيح لعن أريوس هذا فاحذروه . فاني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب ، فقالت له ياسيدى من شق ثوبك ، فقال لى أريوس ، فاحذروا أن تدخلوه معكم ، ولم يجد النفي وإعلان الرؤى والأحلام في القضاء على رأس أريوس وجمع الناس حول قول الكنيسة ، حتى إذا ولى أمر الكنيسة البطريرك اسكندر أخذ يعالج المسألة بنوع من الحيلة والصبر ، فكتب إلى أريوس ، وزعماء هذا الرأي يدعوهم إلى رأى كنيسة الاسكندرية ، ولكن محاولته لم تجد أيضاً ، فعقد مجمعاً في كنيسته بالاسكندرية وحكم على أريوس بالحرمان ، فلم يخضع لهذا ، ولم يخنع ، وغادر الاسكندرية إلى فلسطين ، وقد كان مذهب عدم ألوهية المسيح ذائعاً منتشراً ، وكان أسقف نيقومدية على مذهب أريوس أيضاً ، ويعطى على أساسه ، وفي الحق أننا نجد أن أسقف مقدونية وأسقف فلسطين ، وكنيسة أسيوط ، كل أولئك على رأى أريوس ، والاسكندرية وحدها هي التي تحاربه ، فالخلاف محصور إذن بين أريوس ، ومعه أسيوط وفلسطين ، ومقدونية ، وبين بطريرك الاسكندرية .

تدخل قسطنطين
وجمع مجمع نيقية

٧٧ — وقد تدخل قسطنطين أمبراطور الرومان في الأمر ، فأرسل كتاباً إلى أريوس والاسكندر يدعوهما إلى الوفاق ، ثم جمع بينهما ، ولكنهما لم يتفقاً فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، ويقول ابن البطريرك المسيحي في وصف المجتمعين وعددهم ما نصه : « بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان فجمع البطارقة

عدد المجتمعين
ونحلهم

والأساقفة ، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة ، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان ، فمنهم من كان يقول ان المسيح وأمه إلهان من دون الله ، وهما البربرانية ، ويسمون الريميتين ، ومنهم من كان يقول ان المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها ، وهي مقالة سابليوس وشيعته ، ومنهم من كان يقول لم تحبل به مريم تسعة أشهر ، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب ، لأن الكلمة دخلت في اذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها ، وهي مقالة إيليان وأشياعه ومنهم من كان يقول ان المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره وإن ابتداء الابن من مريم ، وإنه اصطنع ليكون مخلصاً للجوهر الانسى صحبته النعمة الالهية ، وحلت فيه بالحبة والمشيمة ، ولذلك سمي ابن الله ، ويقولون إن الله جوهر قديم واحد ، وأقنوم واحد ، ويسمونه بثلاثة أسماء ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس ، وهي مقالة يواس الشمشاطي بطريرك أنطاكية وأشياعه ، وهم البوليقيانيون ، ومنهم من كان يقول انهم ثلاثة آلهة لم تزل ، صالح وطالح ، وعدل بينهما ، وهي مقالة مرقيون اللعين ، وأصحابه . وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين ، وأنكروا بطرس ، ومنهم من كان يقول بالوهية المسيح وهي مقالة يولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، اه المراد منه .

موقف قسطنطين
من المناظرين

المحيازه لأرى
مؤيدى المسيح مع
أنهم ليسوا
الكثرة

اجتمع أولئك المختلفون ، وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من ممثليها ، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع ، فأمرهم أن يتناظروا لينظر مع من الدين الصحيح وأخلى داراً للنناظرة ، ولكنه جنح أخيراً إلى رأى يولس الرسول وعقد مجلساً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأى وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة ، ويقول في ذلك ابن البطريق : وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً ، وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه ، وسيفه وقضيبه ، فدفعه إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتي ، لتصنعوا ما ينبغي لكم

أن تصنعوا بما فيه قوام الدين ، وصلاح المؤمنين ، فباركوا الملك ، وقلدوه سيفه ، وقالوا له : أظهر دين النصرانية ، وذب عنه ، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع منها ما يصلح للملك أن يعمل به ، ويعمل به ، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به .

العقيدة التي فرضها
المجمع

وضع هذا لجمع المحدود من الأساقفة قرارات في العقيدة والشرائع ؛ ليقيدوا بها المسيحيين ، ولا يهمننا إلا بيان العقيدة التي قررها المجمع ، وفرضها على المسيحيين وقد ذكرها صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية ، فقال عنها ما نصه : وإن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء ، أو من يقول إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب ، وكل من يؤمن أنه خلق أو من يقول إنه قابل للتغيير ، ويعتريه ظل دوران ،

قراراته تزيد برهنة
السلطان

٧٨ — إذن قرر المجمع ألوهية المسيح ، وأنه من جوهر الله ، وأنه قديم بقدمه ، وأنه لا يعتريه تغيير ولا تحول . وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة مؤيدة بسلطان قسطنطين ، لا عنة كل من يقول غير ذلك . والذين فرضوا هذا القول ٣١٨ أسقف ، ويخالفهم في ذلك نحو سبعمائة وألف أسقف . وأن لم يكونوا متفقين فيما بينهم على نحلة واحدة ، فهل ذلك المجمع لم يخل من نقد ؟ إن باب النقد فيه متسع :

١ — وأول ما يلاحظه الناقد أن الذين دعوا إليه ، وجابوا الأمصار ، ووصلوا إلى نيقية بدعوة من قسطنطين ، وبفهام البطارقة فيما بينهم بلغوا ثمانية وأربعين وألفين من الأساقفة ، ولكننا نجد العدد ، ينزل إلى ثمانية عشر وثلاثمائة أسقف فإهي آراء الباقين ، ولماذا أهملت كل هذا الإهمال ، أكانوا جميعاً مختلفين ، في النحل والآراء ، حتى أن نحلة لم يصل عددها إلى ٣١٨ ، فلما تعذر الأخذ بالكثرة المطلقة التي يزيد عددها على النصف ، ولو واحداً اتجهوا إلى الأخذ

النقد الموجه إلى
المجمع وأوله فله عدد
من قرروا بالإضافة
إلى المجتمعين

بالكثرة النسبية ، وهو اعتناق الرأى الذى يأخذه أكبر عدد فى الأصوات وإن لم يصل النصف أو يقاربه . إن المروى غير ذلك ، لأن ابن البطريق يقول : إن قسطنطين هو الذى اختار أن يعقد أولئك الإساقفة الذين يبلغون فقط ٣١٨ مجلساً خاصاً بهم ، وحضر هو المجلس ، وأعطاهمشارة الملك والسلطان لأنهم أفلجوا على إخوانهم فى زعم ابن البطريق المسيحى التثليثى ، ولأن الرواة يقولون إن أريوس لما اجتمع بهم وألقى بدعوته ونخلته إليهم . انضم إلى آرائه أكثر من سبعمائة أسقف ، وذلك العدد هو أكبر عدد نالته نخلة من تلك النحل المختلفة ، فلو كانت النصره بالكثرة النسبية ، لكان الواجب إذن أن يكون الغلب لأريوس الذى احتج بما تحت أيديهم من أناجيل ، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على ألوهية المسيح ادعى تحريفها .

الزغبة والرأى
السلطان لما
فى القراءه

ويظهر أن عصا السلطان ، ورهبه الملك كان لهما دخل فى تكوين رأى الذين رأوا ألوهية المسيح ، فلقد يروى أن أولئك ٣١٨ لم يكونوا مجتمعين على القول بألوهية المسيح ، ولكن تحت سلطان الأغراء بالسلطة الذى قام به قسطنطين بدفعه إليهم شارة ملكه ، ليتحكموا فى الممالك أجمعوا . فقد دفعهم حب السلطان إلى أن يوافقوا هوى قسطنطين الذى ظهر فى عقده مجلساً خاصاً بهم دون الباقين ، لاعتقاده إمكان إغرائهم ، فأمضى أولئك ذلك القرار تحت سلطان الترهيب أو الترغيب ، أو هما معا ، وبذلك قرروا ألوهية المسيح ، وقسروا الناس عليه بقوة السيف ، ورهبه الحكام .

المجمع نفسه
سلطاناً على
الناس بك نعمه
النصر عليه فى
الهم

ب - أن المجمع فرض نفسه حكومة ، وجماعة كهنوتية تلقى على الناس أوامر الدين وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين ، وقرر أن تعاليم الدين لا يتلقونها من كتب المسيحية رأساً . بل لا بد من تلقيها من أفواه أولئك العلماء ورجال الكهنوت ، وأن أقوالهم فى ذاتها حجة ، سواء أخالفت النصوص أم وافقت ، وسواء أكانت الصواب ، أم جافت الحق ، وإن ذلك كان له ما بعده

في المسيحية ، وهو مخالف كل المخالفة لما جاء في تعاليم المسيح المنصوص عليها حتى في كتبهم التي يقرءونها ويعترفون بها ، فقد جاء في الأصحاح العشرين من إنجيل متى ما نصه : رؤساء الأمم يسودونهم ، والعظماء يتسلطون عليهم ، فلا يكن فيكم هذا ، ولكن العلماء تسلطوا على إخوانهم المسيحيين لما أعطاهم قسطنطين خاتمه وسيفه وقضيه ، وبذلك خالفوا المسيح عليه السلام ليطيعوا قسطنطين .

أمره بتحريق
ما يخالفه

ج - أن المجمع أمر بتحريق الكتب التي تخالف رأيه ، وتتبعها في كل مكان ، وحث الناس على تحريم قراءتها ، فهو بهذا يمنع أن يصل إلى الناس علم بأى أمر من الأمور التي تخالف رأيه ، وهو بهذا يحاول التحكم في القلوب ، والسيطرة على النفوس بحملها على قراءة ما وافق رأيه ، ومنعها منعاً باتاً جازماً من أن تقرأ غيره ، ويسد عليها منافذ النور للاهتمام إلى ما يخالفه ، ولعل المجمع مخطيء في ذلك التحريم ، وآثم في ذلك التحريق ، بل إن المجامع العامة من بعد قد خطأت ، فأهادت إلى حظيرة التقديس كتباً حرمها ، وردت من اللى كتباً حرقها ، قد حرم كتباً من كتب العهد القديم ، ولم يعترف بها فاعترفت بها المجامع المسيحية من بعده ، وحرم من كتب النصارى المعتمدة الآن : رسالة بولس إلى العبرانيين ، والرسالة الثانية لبطرس ، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا ورسالة يعقوب ورسالة يهوذا ، ومشاهدات يوحنا ، ولكن المجامع من بعده أقرتها ، وأجمعت عليها . إذن لم يكن المجمع مصيباً من كل الوجوه ، وإن أخطأ في معرفة الصحيح من الكتب ، فأراؤه الأخرى أكثر عرضة للخطأ وأكثر استهدافاً ، للنقد ولعل أشدها صلة بالباطل ، وأقربها به رحماً ، وأدناها إليه ما يتعلق بالعقيدة .

د - بقى أمر نشير إليه إشارة خفيفة ، وهو مقام قسطنطين في المسيحية عند انعقاد ذلك المجمع ، أكان مسيحياً عالماً بالمسيحية في ذلك الأبان ، حتى ساغ

قسطنطين يتدخل
ذلك التدخل وهو
لم ينتصر

له أن يحكم لبعض المجتمعين . وإن لم يكونوا الكثرة ، على أى اعتبار كانت الكثرة ، أ كثره مطلقة أم كثره نسبية . يقول المؤرخ أبوسبيوس الذى تقدر كلامه الكنيسة ، وتسميه سلطان المؤرخين : « إن قسطنطين عُمِّد حين كان أسير الفراش ، وأن الذى عمده هو ذلك المؤرخ نفسه ، وقد كان له صديقا ، والتعميد اعلان دخول المسيحية ، إذن فقسطنطين ما كان مسيحيا فى إبان انعقاد ذلك المجتمع ، وما كان من حقه أن يحكم بفلج هؤلاء . ويسوغ لنا أن نقول إنه كان له فى هذا إرب خاص ، وهو تقربها من وثنيته ، أو على الأقل عندما رجح رأى فريق على فريق كان يرجح ما هو أقرب إلى وثنيته ، وأدنى إلى ما يعرفه من عقيدة . فلم تكن الحجة القوية فى جانب ترجيحه على هذا الاعتبار ، أو كان متهما فى ترجيحه على الاعتبار الأول ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فهو قد رجح ما هو أقرب إلى الوثنية لوثنيته .

تلقى المسيحيين
اقرارات المجمع

٧٩ — ولكن هل أمت ذلك الرأى الوجدانية التى كان يجاهر بها أريوس وهل قضى ذلك المجمع القضاء المبرم عليها ، إنه لو فرض أبعد الفروض عن الحق ، وكانت كثرة المجمع العام على غير رأى أريوس ما انتصروا عليه ولا قضوا على ما يدعوا إليه ، لأن الآراء لا تنتصر بكثرة العدد ، بل بقوة الدليل وقوة تصور العقيدة ، وقوة الاقتناع بها ، وسهولة دخولها إلى العقل ، واستساغتها لها ، ولذلك لم يقض المجتمع على فكرة الوجدانية ، بل ربما كانت المحاولة للقضاء عليها سببا فى شدة الاستمسك بها ، والمبالغة فى المحافظة عليها مما يراى بها ، ولذلك أخذ البطارقة الذين لعنوا لاعتناقها يعملون الحيلة للأحتفاظ بها وحياطتها ، واتخذوا الخديعة سبيلا لذلك ، فتقربوا من قسطنطين ، وأظهروا له الأقلع عما كانوا عليه ليعودوا إلى ما كان لهم من مناصب ، ويستطيعوا مناصرة أفكارهم ، ولينالوا ثقة قسطنطين ، ومن طريق هذه الثقة يتفدون إلى نفسه ، ويقتنعونه هو بالتوحيد ، ليستطيع أن يخدعه بسلطانه وقوته ، كما خدم

الوهية المسيح . أو على الأقل ليقف موقف الحياد ، ويترك الآراء تسير في مجراها الطبيعي ، ولنقص عليك محاولة من محاولات الموحدين .

يذكر ابن البطريق أن أوسايبوس أسقف نيقومدية كان مواحدا من مناصري أريوس في المجمع العام قبل أن تبعد عنه كثرة ؛ ولعن من أجل هذا ، وأراد أن يتقرب من قسطنطين ، فأظهر أنه وافق على قرار الثمانية عشر والثلاثمائة ، فأزال عنه اللعنة قسطنطين ، وجعله بطريرك القسطنطينية ، فما إن ولي هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية في الخفاء ، فلما اجتمع المجمع الأقليمي في صور ، وحضره هو وبطريق الاسكندرية الذي كان يمثل فكرة الوهية المسيح ويدعو إليها ، وينفرد من بين البطارقة في المبالغة في الدعوة إليها ، والحث عليها ، ولعن كل من يقاومها . انتهز أوسايبوس فرصة ذلك الاجتماع وأثار مقالة أريوس ، ورأيه في المسيح ، وإنكار الوهية ، وكان في ذلك المجمع كثيرون من الموحدين المستمسكين به ؛ إذ لم يحتاطوا بإبعادهم ؛ كما فعلوا في المجمع العام بنيقية ، واشتد النقاش بين رئيس كنيسة الاسكندرية ، وبين المجتمعين ، ولم يكتفوا بالنقاش القولي بل امتدت الأيدي إلى بطريق الاسكندرية وعمدت إلى رأسه لإخراج الوثنية منها ، فضربوه حتى أدموه ، وكادوا أن يقتلوه ، ولم يخلصه من أيديهم إلا ابن أخت الملك الذي كان حاضرا ذلك الاجتماع ، ولكن لما بلغ ذلك قسطنطين كرمه .

مجمع صور يرفض بالاجماع قرار مجمع نيقية

وما سقنا ذلك القصص لرضانا عن تأييد الرأي بالعصا وجمع اليد ؛ ولكن سقناه ليتبين منه القارىء مقدار حماسة الموحدين من المسيحية الأولى لعقيدة التوحيد ، وأنهم في تلك الحماسة لا يأبهون بشيء ، ولا يهمهم إغضاب ذوى السلطان أو إرضائهم ، وسقناه لتعلم أن الموحدين كما يظهر من رواية الكتب المسيحية ، وكما يستنبط كانوا السكثرة الغالبة في المسيحيين ، ففي مجتمع نيقية كانوا السكثرة ، وفي مجمع صور الخاص كانوا الجميع ماعدا رئيس كنيسة الاسكندرية

ما يستنبط من هذا

وإذا كانوا السكثرة في المؤتمرات خاصة وعامة ، فلابد أن يكونوا السكثرة في جمهور المسيحيين ، وإذن تكون فكرة ألوهية المسيح هي المعارضة ، والأصل هو التوحيد ، كما يستنبط القارىء من المصادر المسيحية نفسها ، وسقناه لتعلم أن قسطنطين كان يشجع دائماً المخالفين للتوحيد ، وإن كان لا يظهر السخط على غيرهم أحياناً ، وسقناه لتعلم أن مجمع صور كان يخالف كل المخالفة بجمع الثمانية عشر والثلاثمائة ، وأخيراً سقناه لتعلم أن موطن الدعاية لألوهية المسيح كان كنيسة الاسكندرية وحدها ، فهي التي حاربت أريوس ، وهي التي لعنته مرتين ، ورئيسها هو الذي خالف في صور ، ونال عقاب المخالفة جزاءً وفاقاً ، فهل لنا أن نقول إن التثليث الذي اشتهمت عليه فلسفة الاسكندرية كان يعلن على السنة بطاركتها ، وأنهم كانوا يمثلون تلك الفلسفة بأرائهم أكثر من تمثيلهم لمسيحية المسيح عليه السلام إن ذلك هو مفتاح التاريخ الصحيح ، فمن أراد أن يعرف كيف حالت بالمسيحية من توحيد إلى تأليه للمسيح ، فليستعن به .

٨٠ - ولم ين الموحدون عن إعلان الاستمساك بعقيدتهم ، وتخطئة الذين أعلنوا ألوهية المسيح ، ومعهم في ذلك السكثرة العظمى من المسيحيين ، كما يدل على ذلك ما سننقله من تاريخ ابن البطريق ، فلقد حاولوا أن يجذبوا قسطنطين ابن قسطنطين إلى رأيهم بعد أن مات أبوه ، فاجتمعوا به ، وحسنوا رأى الموحدين له ، وبيّنوا له أنه صميم المسيحية ، وأن الاساقفة الذين ناقضوه ، خالفوا وجه الحق ، ولم يكونوا آخذين بتعاليم السيد المسيح التي بشر بها بين الأنام ، وليكنه لم يعمل على نصرتهم ، ولم يعاونهم في دعايتهم ، مع أن أكثر المسيحيين في ذلك العصر كانوا موحدين . يقول ابن البطريق : وفي ذلك العصر غلبت مقالة أريوس على القسطنطينية ، وأنطاكية وبابل ، والاسكندرية ، وأسيوط قد علت أن كنيستها كانت موحدة ، ويقول في بيان حال الاسكندرية ومصر بعد الاجمال السابق : فأما أهل مصر والاسكندرية فكان

أكثرهم أريوسيين ، فغلبوا على كنائس مصر والاسكندرية وأخذوها ،
ووثبوا على أنثاسيوس بطريرك الاسكندرية ليقتلوه ، فهرب منهم واختفى ،
وقد كان على كثير من الكنائس رؤساء موحدون يستمسكون بالتوحيد ،
ويحثون على الاستمسك به ، وكلما ولى أسقف غير موحد ثاروا به ، وهموا
بقتله ، وهذا ابن البطريق يقص علينا أن بطريق بيت المقدس لم يكن موحداً ،
فيثور عليه الموحدون ، ويهمون بقتله فيهرب منهم ، فيقول في ذلك
« وثب أهل بيت المقدس ، من كان منهم أريوسياً على كورللس أسقف
بيت المقدس ليقتلوه ، فهرب منهم ، فصيروا أراقليوس أسقفاً على
بيت المقدس ، وكان أريوسياً ، وهكذا نجد مغالبة قوية بين التوحيد ،
والوهية المسيح ، الأولى تغالب بالскثرة وقوة الايمان ، وسعة الحيلة ،
والثانية بقوة السلطان ، وبقايا الوثنية ، والذين كانوا متأثرين بها ، ووجدوا
موامة بينها وبين ما يألفون ، فابتغوها لقربها مما ألفوا وعرفوا ، وأمكنته
التقاليد من نفوسهم ، ولكن قوة السلطان طمست بقوتها نور المذهب
الأول ، إذ أنها احتاطت فجعلت كل الاساقفة ممن لم يكونوا موحدين .
واحتاطت أشد الاحتياط في ذلك ، وأخذ أولئك يسيطروا على قلوب
العامة بالرؤى والأحلام وإلهامات يزعمونها ، حتى اختفى المذهب الحق
في لجة التاريخ ، ولم يبد على السطح إلا الوهية المسيح .

٢ — المجمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١

٨١ — تقرر في مجمع نيقية أن المسيح إله ، وأنه ابن الآب وأنه جوهر
قديم من جوهر الآب ، ولم يتعرض للروح القدس أهو إله أم روح مخلوق ،
وليس بإله . ولم يكن مجمع نيقية قد أصدر قراراً في هذا الأمر ، لذلك ظهرت
أفكار بين المسيحيين لا تعترف له بالوهية ، ويظهر أن الاسكندرية التي كانت
مهدياً للأفلاطونية الحديثة التي تقول بالتثليث ، وأن المسيطر على العالم ثلاث

قوى مؤثرة فيه ، قوة المكون الأول ، والعقل (الابن) والنفوس العامة (الروح القدس) — تريد أن تفرض ذلك فرضاً على المسيحيين ، كما كانت العامل القوى في إعلان ألوهية المسيح .

أخذ يجاهر رجل اسمه مقدونيوس بأن الروح القدس ليس بإله ، ولكنه مخلوق مصنوع ، وشاعت مقالته بين الناس ، ولم يجدوا فيها نكراً ، ولا أمراً لا يقره العقل أو تأباه المسيحية ، فاجتمع إلى الملك ذوو الأمر من وزرائه وقواده ، وبلغوه أن العامة قد فسدوا ، فهم لا زالوا متأثرين بوحداية أريوس ، واعتنقوا مذهب مقدونيوس في أن الروح القدس ليس بإله قديم ، بل هو مخلوق مصنوع ، وحرصوه على أن يجمع جمعاً من الأساقفة يثبتون عقيدة المجمع النيقوى ، ويدحضون قول مكدينيوس ، فاجتمع في القسطنطينية خمسون ومائة أسقف وكان المقدم فيها بطريرك الاسكندرية ويظهر أن ذلك العدد لم يكن ممثلاً لكل الكنائس ، ولكل الأقاليم ، ولذلك كان اعتباره جمعاً عاماً من الأمور التي نارت حولها الأقوال ، فيقول في ذلك صاحب كتاب سوسنة سليمان : قال الرهبان البندكتيون إن المجمع الذي لم يكن أربابه إلا مائة وخمسين أسقفاً لا ينظم في سلك المجامع المسكونية إلا بعد أن يقره جميع الكنائس .

عدد المجمع والعلم
في كونه عاماً

بطريرك
الاسكندرية هو
الذي يقرر ألوهية
روح القدس

اجتمع هذا المجمع في القسطنطينية ، وتذاكر المجتمعون فيمن هو أولى بالرياسة ، ففر رأيهم على أن تكون الرياسة لأسقف القسطنطينية ، وبذلك نحي عنها رئيس كنيسة الاسكندرية ، وكان لذلك أثره في نفوس تابعي تلك الكنيسة ، كما جاء في كتاب تاريخ الأمة القبطية ، ولكن مع إبعاد ممثل كنيسة الاسكندرية عن مكان الرياسة ، وموضع الزعامة الذي كان لسلفه في مجمع نيقية كان هو المقدم في المناقشة ، وتقرير الرأي الذي أجمع عليه المؤتمر بعد ذلك ، وهذا ما نقله بن البطريق عنه بنصه : قال ثيموثاوس بطريرك الاسكندرية ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ، وليس روح الله شيئاً غير حياته

قرار المجمع بواقع
رأى بطريرك
الاسكندرية

فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا إن روح الله مخلوق ، وإذا قلنا إن روح الله مخلوقة ، فقد قلنا إن حياته مخلوقة ، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حي ، وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به ومن كفر به وجب عليه اللعن ، واتفقوا على لعن مكندونيوس ، فلعنوه هو وأشياعه ، ولعنوا البطارقة الذين يكونون بعده ، ويقولون بمقاتته ، إذن كان للاسكندرية فضل الصدارة في القول ، والقيادة في الرأي ، وإن لم تكن لها الرياسة .

نظرة فاحصة

ونريد أن نستطرد استطراد صغيرة عاجلة ، وهي أن ننظر في تلك السلسلة الفكرية التي ساقها في شكل دليل شرطي كثرت مقدماته ، وكثرت تالياته ، وإن نظرة سريعة فاحصة إلى الأساس الذي قامت عليه السلسلة ترىنا أنه جعل روح القدس هي روح الله ، وهذا لا يسلم له مخالفه ، ولا يستطيع أن يقيم عليه دليلا . إن روح القدس خلقه الله ، واتخذ له ليكون رسولا بينه وبين من يريد أن يلتقي عليه وحيا من خلقه أو أمرا كونيا ، فهي ليست روح الله ، وليس عنده من دليل على ذلك ، ولكن هكذا ساق السلسلة ، وهكذا اقتنع سامعوه ، وبذلك تم له الثالث الذي يتشابه تماما مع فلسفة الاسكندرية ، وقد أعلنها بطريرك الاسكندرية ، وزادوا بذلك على مجمع نيقية هذا الاقنوم الثالث . ويقول ابن البطريك في بيان قرارهم : زادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر اسقفا الذين اجتمعوا في نيقية الإيمان بروح القدس الرب المحي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له ، ومجد ، وثبتوا أن الآب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، وثلاثة وجوه ، وثلاث خواص ، وحادية في تثليث ، وتثليث في وحادية ، كيان واحد في ثلاثة أقانيم ، إله واحد ، جوهر واحد ، طبيعة واحدة .

هذا القرار زيادة
ليست في قرار مجمع
نيقية

إذن تقرر التثليث ، وتمت أقانيمه ، ولكن مازال للمؤتمرات العامة والمجامع العامة موضع ، فإن طبيعة المسيح الإنسانية والإلهية ، كيف تجتمعان ؟ هذا موضع الخلاف ، ولهذا تجتمع المؤتمرات .

٣ — مجمع افسس الأول سنة ٤٣١

٨٢ — أول خلاف بينهم بعد تقرير الثالث أن بطريرك القسطنطينية فسطور رأى ان هناك اقنوماً وطبيعة ، فاقنوم الألوهية من الآب ، وتنسب إليه ، وطبيعة الإنسان ، وقد ولدت من مريم ، فريم أم الانسان ، وليست أم الاله ، ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس ، وخاطبهم كما نقله عنه ابن البطريق : « إن هذا الانسان الذي يقول إنه المسيح ، بالحجة متحد مع الابن ، ويقال إنه الله وابن الله ليس بالحقيقة . ولكن بالموهبة ، ويظهر من هذا ان المسيح الذي ظهر بين الناس لم يكن إلهاً بحال من الأحوال ، ولكنه مبارك بما وهبه الله من آيات وتقديس : ولذا جاء في تاريخ الأمة القبطية عن نخلته ما نصه : « اما هرطقة نسطور هذه ، فلم تكن كغيرها نشأت عن اختلاف في عقائد وضعها الآباء والأخبار ، بل هي جوهرية تختص بأعظم موضوعات الايمان والاركان في الدين المسيحي . ذلك ان نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حد ذاته ، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة ، أو هو ملهم من الله ، فلم يرتكب خطيئة ، وما أتى أمراً إداً . »

النسطوريون
يشكرون ألوهية
المسيح

على هذا التخريج يكون نسطور لا يعتقد ألوهية المسيح ، وإن كان يعتقد انه فوق الناس ، وليس مثلهم ، ولقد جهر بهذا الرأي ، ونادى به ، وهو رئيس لكنيسة القسطنطينية ، ولها مكانتها ، ولكن خالفه غيره من الأساقفة ، فكان اسقف رومة يعلن برأيه المخالف له ، ومعه مارآه من بينات وأدلة ، ولقد بلغت مقالة فسطور بطريرك الاسكندرية ، وجرت المراسلات بين أسقف الاسكندرية واساقفة انطاكية ورومة وبيت المقدس ، فاتفقوا على عقد مجمع افسس للنظر في هذا الرأي ، وإعلان صاحبه بالتبرؤ منه ، ولعنه إن أصر على رأيه ، ودعوه

ليسمع حكمهم في رأيه ، ويظهر أنه عرفه قبل أن يجتمع المجمع ، وأنهم
مصريون على ما أعلنوه ، كما أنه مصر على رأيه ، فلم يجد كبير فائدة في حضور المجمع
فلم يحضر لا هو ولا بطريك انطاكية ، وانعقد المجمع وعدده نحو مائتين
من الأساقفة ، وقرروا مانصه كما جاء في تاريخ ابن البطريق : أن مريم
العذراء والدة الله ، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين ، متوحد
في الأقبوس ، ولقد لعنوا نسطور ، فلما بلغ ذلك القرار يوحنا بطريك
أنطاكية غضب ، واحتج على المجمع ؛ فاختالف المجتمعون على رأيين ،
وأصر المشرقيون على الرأي الذي أعلنه المجلس أولا ، وكتبوا صحيفة فيها
: إن مريم القديسة العذراء ولدت إلهنا وربنا يسوع المسيح الذي مع أبيه
في الطبيعة ، ومع الناس في الناسوت والطبيعة ، وأقروا بطبيعتين ، ووجه
واحد وأقبوس واحد ، ولكن خالفهم بطريك الاسكندرية أولا ، ولكن
يقول ابن البطريق إنه وافق بعد ذلك وكتب إليهم : إن أماتى التى
في صحيفتكم .

فرار المجمع
والاحتجاج عليه

ولكن لم يخضع نسطور لذلك القرار ، فنفى إلى مصر ، ولم يندرس مذهبه
بذلك النفي ، ولقد وجد أرضا صالحة لها في الشرق ، فلقد نهضت النسطورية
في نصيبين ، ويقول ابن البطريق : تكاثرت النسطورية في المشرق والعراق
والموصل والفرات والجزيرة .

انتشار النسطورية
في الشرق

٤ — مجمع خليكندونية سنة ٤٥١

٨٣ — ولم يحسم ذلك المجمع الخلاف في مسألة اجتماع العنصر الانسانى
والعنصر الإلهى في المسيح ، فلم يقض على نحلة نسطورس قضاء مبرما ، وإن
كان قد نفاه وآذاه ، بل نمت نحلته بعد ذلك في المشرق ، وذاعت في البلاد التى
ذكرها ابن البطريق ، ولم يقف الخلاف في ذلك عند نسطور وأتباعه ، بل إن
كنيسة الاسكندرية قد خرجت هي الأخرى برأى جديد عرضته على الملأ من

سبب انعقاده

كنيسة الاسكندرية
نعن أن المسيح إله
قد انجذت فيه اللاهوت
والناسوت وصارا
طبيعة واحدة

الأساقفة ، وجمعوا له بمجعا قرروه فيه ، وذلك الرأى أن للمسيح طبيعة واحدة
اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت ، وانعقد لأجل هذا مجمع إفسس الثانى الذى
تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص ، وفى هذا المجمع أعلن ذلك
الرأى ، فلما عارضه بطريرك القسطنطينية ، وأعلن انسحابه من المجلس ،
وعدم احترامه لقراره ، أمرهم رئيس المجلس بإعلان حرمانه ، وحدث
خارج المجلس صخب شديد ، وضجة كاد أن يقتل فيها رئيس كنيسة
القسطنطينية ، وقد أشد الاختلاف بعد ذلك حول هذا المجمع ، أهو صحيح
محترم السلطان ، أم هو مجتمعة غير عام لا تلزم بأرائه الكنائس كلها ، واشتد
الاختلاف فى قرارات الحرمان التى أصدرها أمهى محترمة واجبة التنفيذ ،
أم هى باطلة ، لأنها صادرة عن غير سلطة ، حتى جاءت مائة على الرومان
تخالف ذلك الرأى ، وتميل لغيره ؛ فلتنفيذ رأيا ولأجل هذا الخلاف الشديد
حول مجمع إفسس الثانى وقراراته أمرت هى وزوجها بعقد مؤتمر عام ، فاجتمع
فى مدينة خلسكيديونية عشرون وخمسمائة أسقف ، وكان الاجتماع تحت
إشراف زوج المائكة ، واجتمع فى شهر أكتوبر سنة ٤٥١ ، وتقول مؤلفة تاريخ
كتاب الأمة القبطية : كان أول اقتراح طلبه مندوبو رومية انسحاب ديسقورس
بطريرك الاسكندرية من المجلس ، فسأل الرئيس عن الباعث لهذا الانسحاب
وعن الأسباب التى تلجىء المجمع إلى إخراج هذا البطريرك من قاعته ؟ فكان
اعتراض هؤلاء إن ديسقورس شكل بمجمعاته أن يستأذن الكرسي
الرسولى ، ويقصدون بالكرسي الرسولى بابا رومة . . . فلم يصادق مندوبو
الحكومة على هذا الرأى السقيم ، وقررا المجمع بقاء ديسقورس ، ولكن على
غير كرسي الرئاسة ، كما كان فى المجمع السابق لأنها أصبحت فى يد رجال
الامبراطورة ، وقد حدث ضجيج وصخب ومنازعات فى أثناء الاجتماع مما
جعل مندوبى الحكومة يصيحون فيهم قائلين بلسان أحدهم : إنه لا يجدر بالأساقفة
وأئمة الدين أن يأتوا مثل هذه الأعمال الشائنة من صياح ، وصراخ وسب

طلب انسحاب
بطريرك
الاسكندرية
ورفض الطلب

الشغب فى المجمع

وقذف ، وضرب ، ولكم ، بل يجب عليهم أن يكونوا قدوة للشعب في الهدوء
وتسيير الأمور على محور الحكمة والسداد ، ولذلك نرجوكم أن تستعملوا
البرهان بدل المهاترة ، والدليل عوضاً عن القول الهراء ، وأميلوا آذانكم إلى
سماع ما سيتلى عليكم ، وسارت المناقشة بعد ذلك في جو عنيف متعصب
وانتهى المجمع إلى أن قرر أن المسيح فيه طبيعتان لا طبيعة واحدة ، وأن
الالوهية طبيعة وحدها ، والناسوت طبيعة وحده ، التقتا في المسيح ، وقد قال
ابن البطريرك في بيان قرار المجمع : « قالوا إن مريم العذراء ولدت إلها ، ربنا
يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الالهية ، ومع الناس في الطبيعة
الانسانية ، وشهدوا أن المسيح طبيعتان ، وأقنوم واحد ، ووجه واحد ،
ولعنوا نسطور ، ولعنوا ديسقورس ، ومن يقول بمقالته ، ونفوه ، ولعنوا
المجمع الثاني الذي كان بأفسس ، وقد نفي ديسقورس إلى فلسطين » .

قرار المجمع أن
المسيح له طبيعتان

٨٤ — هنا نرى إنشقاقاً بين المسيحية المثلثة ، واختلافاً يكون بعيد
المدى في الأجيال المقبلة ، وهو أساس في اختلاف الكنائس إلى يومنا
الحاضر فهذا المجمع يرى أن المسيح له طبيعتان إحداهما إنسانية يشارك فيها
الناس ، والأخرى لاهوتية ، وأقنوم الابن مكون من الطبيعتين ، وهو
بذلك يخالف النسطوريين ، لأنهم يقولون : إن أقنوم الابن لم يكن
العنصرين ، بل العنصر الإنساني وحده ويخالف قرار أفسس الثاني الذي يقول
إن المسيح طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتي من الروح القدس ،
ومن مريم العذراء مصيراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية
منزهة عن الاختلاط والاستحالة ، بريئة عن الانفصال ، وبهذا الاتحاد صار
الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشيدة واحدة ، وقد بدت آثار
ذلك المجمع سريعة واضحة ، فإن المصريين عندما بلغهم ما نزل برئيس كنيستهم
غضبوا ، وأجمعوا أمرهم على عدم الاعتراف بقرارات ذلك المجمع وتقول
مؤلفة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « ولما طرق مسامع المصريين ما لحق

الاتفاق ومداه

عدم اعتراف
المصريين بقرار
المجمع

بطيريركهم من الحرمان والعزل هاجوا وغضبوا ، واتفقوا على عدم الاعتراف بقرار المجمع الذى أصدر هذا الحكم ، وأعلنوا رضاهم ببقاء بطيريركهم رئيساً عليهم ، ولو أنه محروم مشجوب ، وأن إيمانه ومعتقده هو عين إيمانهم ومعتقدهم ، ولو خالفه فيهما جميع امبراطرة القسطنطينية . وبطاركة رومية ، ولقد اعتبر المصريون أن الحكم الذى صدر ضد بطيريركهم ماس بحريتهم الوطنية ، يحذف بحقوقهم السياسية ، ولو أنه حكم دينى صرف ، ولقد اشتد النزاع بسبب هذا بين المصريين والرومان فثار المصريون وغضبوا عندما رأوا بطيريركا يعين على غير مذهبهم ، وعلى غير رغبتهم ، واستمروا على غضبهم ، فصاروا ينتفضون الحين بعد الحين ، كلما لاحت لهم الفرصة ، وديسقورس لم يمنعه النفي من أن يدعو المسيحيين إلى اعتقاده فى منفاه ، ويقول ابن البطريق : « لما نفي سار إلى فلسطين ، وبيت المقدس ، فأفسد دين كل من بفلسطين وبيت المقدس ، حتى قالوا بمقاتته ،

المصريون يرفضون
تعيين بطيريرك على
غير مذهبهم

٨٥ — ولقد كان الاختلاف يشتد كلما عين الرومان بطيريركا ، فأن المصريين يرفضونه محتجين بأنه على غير مذهبهم ومن غير جماعتهم ، ويجب أن يكون بطيريركهم بعد هذا الاختلاف من المذهب الذى ارتضوه ديناً ، وباختيارهم ، فكأن بعض الامبراطرة يأخذهم بانعنف ، وأولئك هم الأكثرون ، وبعضهم يأخذهم بحسن السياسة ولطف الكياسة ، فيترك لهم الحرية فى اختيار بطيريركهم ، والاطمئنان إلى مذهبهم ، وكانت الأيام والسنون هكذا تسير أحياناً على نهج من الهوادة والرفق ، وأحياناً كثيرة على شطط وعنف .

يعقوب البراذى
ونسبة المذهب
المصرى اليه

وفى هذه الأثناء يتغلغل فى ربوع الدولة الرومانية الدعاة إلى المذهب المصرى والدعاة إلى المذهب الرومانى أو مذهب رومية والامبراطرة أو المذهب الملكى كما سماه العرب من بعد ، ولقد ظهر للمذهب المصرى داعية قوى الشكيمة قوى العارضة ؛ بليغ الأثر ، اسمه يعقوب البراذى ، قد أخذ يحول فى وسط

القرن السادس الميلادي البلاد الرومانية إلى مصر ، يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية ، ويثبت ذلك المذهب في نفوسهم ، ويدخله في قلوبهم ، ويسلك في سبيل ذلك المخاطرة والجرأة ، لا يأبه لقوة مهما تكن ، ولا لذي خطر مهما يكن شأنه ، وتقول صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « قيل إنه رسم ٨٩ أسقفا ، وألوا من السكينة والقسوس ، ومن ذلك الحين أطلقت كلمة يعقوبيين على جميع الذين يذهبون إلى أن للمسيح طبيعة واحدة اشتقاقا من اسم يعقوب البراذع زعيم هذا الحزب ، ولكن من الخلط الكبير ، والخطب الذي يدل على الجهل إطلاق لفظ يعقوبيين على الكنيسة القبطية المصرية ، إذ لا علاقة لها بـ يعقوب أما إذا سميت الكنيسة الرومانية بمصر بالكنيسة الملكية ، فأنت مصيب غير مخطئ ، لأن هذا الاسم صار علما للكنيسة المذكورة من بعد الفتح الاسلامي ، وهو اسم عربي الأصل مشتق من كلمة ملك ، ومعناها الذين يتجازون إلى الملك ، أو الامبراطور الروماني مذهباً وسياسة »

انفصال الكنيسة
المصرية نهائياً

٨٦ — ولقد كان قرار مجمع خلقيدونية هو السبب في إنقسام الكنائس ، أو بعبارة أدق هو السبب في انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الغربية ولقد لخص صاحب كتاب تاريخ المسيحية في مصر عقيدة الكنيسة المصرية فقال : « كنيسةنا المستقيمة الرأي التي تسلمت إيمانها من كيرلس ، وديسقورس ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية ، والسريانية الأرثوذكسية تعتقد بأن الله ذات واحدة ، مثلثة الأقانيم ، أقنوم الآب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس ، وأن الأقنوم الثاني أي أقنوم الابن تجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، فصير هذا الجسد معه واحداً ، وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط ، والامتزاج والاستحالة ، بريئة من الانفصال ، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشية واحدة »

هذه هي قرارات تلك الكنيسة وهي تخالف ما تقرر في مجمع خلقيدونية كما علمنا

المجامع الباقية

المجامع السابقة تقرر
المسيحية الحاضرة

٨٧ - عنيانا ببيان المجامع الأربعة السابقة ببعض التفصيل ، ولم نضن على القرطاس فيها ببعض الأطناب ، لأنها المجامع التي قررت بها العقيدة المسيحية الحاضرة ، فأولها قرر ألوهية المسيح ، وثانيها قرر ألوهية الروح القدس ، وثالثها قرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله ، لا الإنسان فقط ، وأن مريم ولدت الاثنين ، ورابعها قرر أن المسيح ذو طبيعتين منفصلتين ، لا طبيعة واحدة متحدة ، والمجامع الثلاثة الأولى اتفقوا على أنها مجامع عامة تلزم بأحكامها المسيحيين أجمعين . أما المجمع الرابع فهو ليس بمجمعاً عاماً في نظر المصريين ، والسكنائس التي تنهج نهج كنيستهم ، والمجامع الآتية بعد ذلك ليس فيها مجمع قد أجمع عليه المسيحيون قاطبة بأنه مجمع عام مسكوني كما يعبرون ، فكل هذه المجامع لم تمثل فيها الكنيسة المصرية بعد انشقاقها على كنيسة رومة ، أو انشقاق كنيسة روما عليها ، وإنما نشير إلى هذه المجامع إشارة ، ولا نخرج عليها بتفصيل لذلك ، ولأن قراراتها كانت في فروع جزئية لا تتصل بلب التثليث إلا في بعض المجامع ، وبقدر يسير ، لا يمس الجوهر ، ولا يتغلغل في صميمه ، وقد نعرض لهذا بقليل من التفصيل .

المجمع القسطنطيني
الثاني وسبب انعقاده

ولقد كان المجمع الخامس بالقسطنطينية سنة ٥٥٣ ، ويسمى المجمع القسطنطيني الثاني ، ويذكر ابن البطريق إن ذلك المجمع انعقد بسبب أن بعض الأساقفة اعتنق فكرة تناسخ الأرواح ، وسار فيها إلى أقصى مداها ، حتى لقد قال إنه ليس هناك قيامة ، وبسبب أن بعض الأساقفة قدزعموا أن شخص المسيح لم يكن حقيقة ، بل كان خيالا ، فاجتمع لذلك هذا المجمع ، وكانت عدة الحاضرين فيه أربعين ومائة ، فقرروا حرمان هؤلاء الأساقفة ، ولعنهم وطردوهم من زمرة المسيحيين ، ولم يكتفوا في اجتماعهم بإصدار قرارهم في هذه الأمور ، بل

ثبتوا قرارات المجامع السابقة ، ومنها قرار مجمع خليكدونية ، وبذلك ثبتوا عقيدة كون المسيح ذا طبيعتين ، وأكدوا إنكار الطبيعة الواحدة التي اعتنقتها كنيسة مصر ، ومن والاهما من المسيحيين .

المارونية

٨٨ — وقد ظهر رجل اسمه يوحنا مارون في القرن السابع الميلادي سنة ٦٦٧ كان يقول إن المسيح ذو طبيعتين ، ولكنه ذو مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد ، ولكن يظهر أن هذه المقالة لم ترق في نظر البطارقة ، لذلك أوعزوا إلى الامبراطور أن يجمع بجمعاً عاماً في زعمهم ، ليقر بأن المسيح ذو طبيعتين ، وذو مشيئتين ، بعد أن استوثقوا من أن الإمبراطور ، واسمه يوغاناقوس على رأيهم ، بمكاثبات تبادلوها معه . فقد جاء في أحد كتبه : نحن نقر ، ونؤمن بطبيعتين ، ومشيتين ، وفعلين لسيدنا المسيح ، وأقنوم واحد ونلعن من خالف هذا . اجتمع لذلك المجمع السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠ م . وقد كان من عمله لعن وطرد كل من يقول بالمشيئة الواحدة ، كما لعن وحرم وكفر من قال بالطبيعة الواحدة ، وكان مؤلفاً من نحو تسعة وثمانين ومائتي أسقف . وبعد أن قرروا لعن وطرد من يخالفهم كشأنهم دائماً . قالوا : « إننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الآب الإله في أقنوم واحد . ووجه واحد ، يعرف تاماً بناسوته ، تاماً بلاهوته في الجوهر الذي هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيتين في أقنوم واحد ، وشهدوا كما شهد المجمع الخلقيدوني أن الإله الابن في آخر الأزمان اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة جسداً إنسانياً بنفس ناطقة عاقلة ، وذلك برحمة الله محب البشر ، ولم يلحقه في ذلك اختلاط ولا فساد ولا فرقة ، ولا فصل ، ولكن هو واحد يعمل ما يشبه الإنسان أن يعمل في طبيعته ، وما يشبه الإله أن يعمل في طبيعته ، الذي هو الابن الوحيد للكلمة الأزلية المتجسدة التي صارت بالحقيقة لحماً ، كما يقول الإنجيل المقدس

مجمع القسطنطينية
الثالث

من غير أن تفتقل من مجدها الأزلى وليست بمتغيرة ، لكنها بفعلين ، ومشيتين وطبيعتين إله وإنسان وبهما يكمل قول الحق ، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتهما فتعملان بمشيئتين غير متضادتين .

هذا بعض قرار ذلك المجمع كما جاء في تاريخ ابن البطريق ، وقد أطلنا في النقل ، ليسكون كلام القوم مبيناً لفكرهم كما يريدون ، فنقلناه خشية أن نحرف كلامهم عن معناه ، أو نحيد به عن مرماه ، ولقد كان من آثار هذا القرار أن خرج من جماعة كنيسة روما والقسطنطينية طائفة المارونيين ، كما خرج من قبل الأقباط وكنيستهم ، ومعهم الأحباش والأرمن والسريان .

مجمع تحريم اتخاذ الصور

٨٩ — وقد جاء مجمع غير عام بأقرار الجميع انعقد بأمر قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤ وفيه جمهور من الأساقفة ، وفدوا إليه من جهات مختلفة ، وقد قرر تحريم اتخاذ الصور^(١) والتماثيل في العبادة ، وحرم طلب الشفاعة من العذراء ولأجل هذا انعقد المجمع السابع بأمر الملكة إيريني بمدينة نيقية ، ويسمى المجمع النيقاوى الثانى سنة ٧٨٧ وكان أعضاؤه ٣٧٧ أسقف

صلة ذلك التحريم بالاسلام

(١) يقرر الأستاذ أمين الخولى في رسالته (صلة الاسلام بأصلاح المسيحية) أن فكرة تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في أماكن العبادة اسلامية وأن أشد من ظهر بمعاداتها ليون الثالث مكسر الأصنام الذي ألقى الكنيسة واتخذ العنف سبيلاً لتنفيذ رأيه له صلة وثيقة بالمسلمين ، وينقل عن صاحب كتاب الطرق النقية قوله : « ان ليون فعل ذلك لأسباب سياسية اذ رغب في التقرب الى المسلمين بذلك ، أو فعل ذلك تقليداً لحركة من هذا النوع قام بها في ذلك العصر المسلمون في ديارم » ويقول الأستاذ أمين الخولى « والحركة الاسلامية التي سمعت خبرها في تحطيم التماثيل هي التي قام بها الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠ م (وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦) اذ كتب يزيد الى حنظلة بن صفوان والى مصر أن يكسر الأصنام والتماثيل ، فكسرت كلها ، وحيت من ديار مصر وغيرها في أيامه » .

وأصدروا القرار بتقدّيس صور المسيح والقديسين ، لا بعبادتها ، وجاء في هذا القرار : « إنا نحكم بأن توضع الصور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة ، والملابس الكهنوتية فقط ، بل في البيوت ، وعلى الجدران في الطرقات ، لأننا إن أطلعنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسول ، وسائر القديسين في صورهم شعرنا بالميل الشديد إلى التفكير فيهم ، والتكريم لهم ، فيجب أن تؤدي التحية والأكرام لهذه الصور ، لا العبادة التي لا تليق إلا بالطبيعة الإلهية . » هذا هو المجمع السابع ، قد وافق عليه عدد كبير من الكنائس فاعتبرته عاما ، وخالفته أخرى ، فلم تعتبره كذلك .

٩٠ — ولنتقل بعد ذلك إلى المجمع الثامن ، وهو أساس انفصال الكنائس الشرقية التي ترأسها كنيسة القسطنطينية عن الكنائس الغربية التي ترأسها كنيسة روما .

انفصال الكنيسة
الشرقية عن الغربية
وسببه

قد علمت أن المجامع الماضية التي انفصلت بسببها فرق مسيحية كان أساس الخلاف فيها طبيعة المسيح . ولم يتعرض أحد للروح القدس ، ومن أى شيء انبثق ، حتى أثار بطريرك القسطنطينية ، كيف كان انبثاقه ، فحكم بأن انبثاق الروح القدس كان من الآب وحده ، فعارضه في ذلك بطريرك رومة . قائلا : إن انبثاق الروح القدس كان من الآب والإبن معاً ، ولم يكن من أحدهما . وكل عارضد رأيه بمجمع قد جمعه ، وكلاهما قد اعتبر هو ومشايعوه بجمعه عاما ملزماً للآخر ، ومجمع الآخر خاصاً غير ملزم ، وكل لعن الآخر وطرده ، واعتبره محروماً مطروداً من حظير المسيحية ، كشأنهم عند كل اختلاف .

أعلن بطريرك القسطنطينية رأيه ، وهو أن الروح القدس انبثق من الآب فقط ، وفوق ذلك قد تولى هذا البطريرك كرسية من غير إرادة رئيس الكنيسة بروما ، وبعد أن دس لسلفه ما أبعده عن كرسية ، فاجتمع في القسطنطينية مجمع

بعد عزل هذا البطريرك سنة ٨٦٩ ، وأصدر قراراً يتضمن البت في ثلاثة أمور : « أولها كون انبثاق الروح القدس من الآب والابن ، ثانيها أن كل من يريد المحاكمة في أمر يتعلق بالمسيحية وعقائدها يرفع دعوى إلى الكنيسة بروما . ثالثها أن جميع المسيحيين خاضعون لكل المراسيم التي يقوم بهارثيس كنيسة روما ، وتلك القرارات كانت مع قرار آخر يعتبر عندهم سنة متبعة ، وهو لعن ذلك البطريرك المعزول واسمة فوسيوس ، وحرمانه هو وأتباعه . استطاع فوسيوس هذا أن يعود إلى منصبه ، فلما عاد إليه كان أول ما صنعه أن عقد مجمعاً آخر في القسطنطينية سنة ٨٧٩ ، ويسمى هذا المجمع الشرقي اليوناني كما يسمى الأول الغربي اللاتيني ، وقد قرر فيه رفض كل مآقره المجمع الأول ، وقرر أن انبثاق الروح القدس من الآب فقط . وقد صار كل مجمع يعتبر عاماً عند مشايحيه ، كما يعتبرون الآخر خاصاً ، بل باطلاً غير ملزم ، وكل يكفر الآخر أو يفسقه ، وكل حزب بما لديهم فرحون . »

٩١ — كان هذان المجمعان السبب في انقسام الكنيسة إلى شرقية يونانية ، وغربية لاتينية ، ورئيس هذه الكنيسة هو البابا في روما ، وهو مستقل بسياستها وله السلطان على كل الطوائف المنقادة إلى تعاليمها . وتسمى الكنيسة البطرسية لكون مشايحيها يعتقدون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسول في زعمهم ، ويزعمون أنه كبير الخواريين ورئيسهم ، ويقولون إنه رأس هذه الكنيسة ، والبابوات خلفاؤه من بعده ، وتسمى الغربية لكون سلطانها في بلاد الغرب ويقول صاحب كتاب سوسنة سليمان « وهي تدعى أنها أم الكنائس ، ومعلمتهن وربما حق لها ذلك ، لجهة التفاسير التي تبني عليها أصول التعاليم التقليدية ، ونظامات المجمع ، وترتيبها ، وهي أيضاً التي تأمر بها . وتمتد شوكتها على الخصوص في بلاد إيطاليا ، وبلجيكا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وشعوبها منتشرة في أقطار الأرض . »

الكنيسة الغربية
أم الكنائس

وأما الكنيسة اليونانية ، ويقال لها أيضا كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية ، فأكثر مشايعها في الشرق وسلطانها فيه ، وهي تشترك مع الكنيسة الكاثوليكية في كثير من التقاليد المسيحية ، ولكنها تخالفها في انبثاق الروح القدس ، فتقول إنه من الآب فقط ، كما بينا ، ولا تعترف إلا بالجامع السبعة السابقة على المجمع الذي أوجد الانفصال ، كما لا تعترف لبابا رومة بالسيادة أو الرئاسة ، ولكن لمرور الزمن ، وما أحيط به من تقديس بين مشايعيه ، وعند الملوك ، ولكثرة معتنقي مذهبه ، تتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم لا بالسلطان ، ويليه في الرتبة بطريرك القسطنطينية . والمشايعون لها في بلاد روسيا واليونان والسرب ، وكثير من جزر البحر الأبيض وغير هؤلاء .

٩٢ — قد انفصلت الكنيسة الشرقية عن الغربية كما علمت ، فالجامع الآتية كلها مجامع غير عامة في نظر الكنيسة الشرقية ، لأن الأساقفة الذين كانوا يجيبون الدعوة فيها من اتباع الكنيسة الغربية فقط ، ولذلك لا تعتبر تلك المجمع عامة إلا في نظر الغربية .

المجامع اللاحقة كلها
غير مكوّنة إلا في
نظر الكنيسة
الغربية

فالمجمع التاسع انعقد في رومة سنة ١١٢٣ ، وأعظم قراراته شانا الحكم بأن تعيين الأساقفة ، ليس من شأن الحكام ، بل من عمل البابا وحده . والمجمع العاشر انعقد في رومة أيضا سنة ١١٣٩ . وكان أعضاؤه ١٠٠٠ عضو ، وقد حاول هذا المجمع إزالة الفرقة بين السكّيسين ، فلم ينجح . والمجمع الحادى عشر انعقد في رومة سنة ١١٧٩ كان لوضع نظام للتأديب السكّسى ، وفيه تقرر انتخاب البابوات بثلاثى عدد الكرادلة . وكان فى هذا العصر قد شاع القول باستحالة الخبز والخمر فى العشاء الربانى إلى جسد المسيح ودمه ، ولكن لم يقرر ذلك المبدأ ، حتى جاء المجمع الثانى عشر سنة ١٣١٥ وفيه تقرر ذلك المبدأ نهائيا ، ومبدأ آخر سيكون له خطر مع سابقه ، وهو مبدأ أن الكنيسة البابوية

محاولة التقريب بين
السكّيسين

تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء ، وتتوالى بعد ذلك المجمع الكاثوليكية لأغراض عامة أو أقليمية ، وفي بعضها تتجدد محاولة توحيد الكنيستين المتصلتين ، وفي بعضها تقرر التفتيش عن القلوب ، ومحاربة الخارجين عن التعاليم المسيحية ، وأهم هذه المجمع ، وأعظمها أثراً ، وأقواها عملاً المجمع التاسع عشر الذى انعقد فى تريدنتوا والذى دام انعقاده من سنة ١٥٤٢ إلى سنة ١٥٦٣ ، وفيه الرد على البروتستانتية .

وختام هذه المجمع هو المجمع المتمم للعشرين المنعقد فى رومة سنة ١٨٦٩ وفيه أثبتوا العصمة للبابا . وقد قال فى ذلك صاحب سوسنة سليمان : (قد نشأ فى ذلك انقسام فى الطوائف الكاثوليكية ببلاد أوروبا والشرق . والذين خالفوا هذه العقيدة من أهالى أوروبا سمووا أنفسهم الكاثوليكين القدماء ، ونهاية ذلك لم تزل مجهولة) .

الفرق المسيحية

٩٣ — من البيان الذى سقناه فى المجمع ، وما انعقدت بسببه من خلافات يظهر لنا أن المسيحية قد أتى عليها حين من الزمن كان التوحيد هو السائد بين معتققيها ، والغالب على كل نخلة سواه من نخلها ، وإنك لترى ذلك واضحاً فيما بيننا من أن أريوس عندما ظهر مقاوماً لفكرة ألوهية المسيح ، ومنازعا كنيسة الأسكندرية فى ذلك المبدأ الذى كانت تبته فى النفوس ، وتنادى به على رؤوس الأشهاد كان أتباعه فى مصر وفلسطين والقسطنطينية ، (وهذه مواطن المسيحية فى ذلك الإبان أكثر عدداً وأقوى مكانة ، فكثير منهم أساقفة ورؤساء كنائس ، وكل ذلك مع أن قسطنطين الإمبراطور الحاكم بأمره الذى لامعقب لحكمه كان يشابع فكرة ألوهية المسيح ويناصرهما ، ويحميها ويؤيدها ، كما بينا فى الكلام

في مجمع نيقية إذ أظل القائلين إن المسيح فيه ألوهية بحمايته ، ووضعهم تحت ظله ، وأمدهم بالجاء والسلطان .

وإذا كان قد أتى حين كان فيه التوحيد هو السائد ، فيصح لنا أن نقسم عصور المسيحية إلى قسمين ، عصر التوحيد ، ونجعل نهايته الزمن الذي انعقد فيه مؤتمر نيقية ، أو ما ولى ذلك الزمن بقليل ، إذ غالب التوحيد فكرة ألوهية المسيح ردحا غير قصير من الزمان بعد مجمع نيقية ، والعصر الثاني عصر تأليه المسيح ، وذلك العصر يبتدىء بعد مجمع نيقية ، وبعد أن استطاع امبراطرة الرومان أن يطمسوا نور التوحيد في وسط المسيحيين ويمنعوا الموحدين من نشر دعاياتهم .

وإذن فمن الحق علينا أن نراعى هذا التقسيم عند الكلام في الفرق القديمة عند المسيحية ، فنقسم تلك الفرق إلى قسمين : فرق ظهرت في عصر التوحيد ، وربما كان وجود بعضها إرهابا لعهد التثليث ، وفرق ظهرت في عصر تأليه المسيح وعصر التثليث .

ونقصد بالفرق القديمة الفرق التي ظهرت قبل عصر النهضة في أوربا أي قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، ونقصد بالفرق الحديثة الفرق التي ظهرت بعد عصر النهضة ، وهي التي ظهرت في عهد الإصلاح الديني ، وما والاها .

٩٤ — والفرق التي ظهرت في عهد التوحيد كثيرة ، بعضها كان مستمسكا بالتوحيد ، ومعه الكثرة الغالبة من المسيحيين كما استنبطنا من السياق التاريخي وكما يستفاد من ثنايا التاريخ . وبعضها كان قد انحرف عن التوحيد ، حتى كان وجوده تمهيدا للتثليث أو سيرا ببعض الخطوات في سبيله .

وأظهر الموحدين أريوس وأتباعه ، وقد كانوا كثيرين ، فقد شرحنا أنه قد كان يأخذ بمذهبه بطريرك القسطنطينية وغيره من البطارقة ، وكان رأيه منتشرا في مصر والشام ومقدونية ، وهي مواطن المسيحية ، كما علمت ويقول ابن حزم في بيان فرقة أريوس ، والنصارى فرق منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً

الفرق التي ظهرت في عصر التوحيد

فرقة أريوس

بالألكندرية ، ومن قوله التوحيد المجرد ، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق وأنه كلمة الله تعالى التى بها خلق السماوات والأرض ، وكان فى زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس ، وهذا الكلام يحتاج جزؤه الأخير إلى نظر ، فهو يزعم أن قسطنطين كان على مذهب أريوس ، وقد بينا عند الكلام فى مجمع نيقية ، أنه هو الذى تدخل بنفوذه وسلطانه ، فعزل أنصار لاهوت المسيح ، واعتبر المجمع مكونا منهم دون سواهم ، وقد كان المجتمعون أول الأمر أكثر من ألفين فرفض رأى السكثرة ، وعقد مجمعا مؤلفا من ثمانية عشر وثلاثمائة ، بينما يذكر الثقات من المؤرخين أنه قد صرح بنصرة أريوس من المجتمعين أكثر من سبعمائة . نعم إن الأريوسيين قد حاولوا بعد ذلك جذبهم إلى رأيهم ، وضمهم إلى مذهبهم ، ليستفيدوا منه قوة وسلطانا ، فقال إليهم أخيراً ، أو أظهر الميل ، وإن كان لم يعمل على نصرة مذهبهم ، ولم يعقد مجمعا ليقرر رأيهم ، كما فعل بالنسبة لغيره ، وأقصى ما عمله أنه رد المحرومين إلى حظيرة المسيحية ، وأعاد المنفيين من منقاهم ، ومكنهم من الاستمتاع بنعمة الحرية ، ولعل ذلك كان كياسة منه وسياسة ، إذ رأهم كثرة المسيحيين الغالبة ، وأقوالهم هى الشائعة الرائجة ، فأظهر الميل إليهم حتى لا ينتفضوا عليه .

أصحاب بولس
الشمشاطى

٩٥ — ومن الموحدين الذين ظهرُوا أصحاب بولس الشمشاطى ، ويقول فيه ابن حزم : كان بطريركا بأنطاكية ، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام ، خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلهية فيه وكان يقول لا أدري ما الكلمة ، ولا روح القدس ، ومن هذا يتبين أن مذهب بولس هذا كان توحيداً خالصاً ، وأن عيسى ليس إلا رسولا من رب العالمين ، وأنه كان إذا عرض له البحث فى كلمة الله ، وروح القدس أمسك عن ذلك ، ولم يخض فيه ، وتوقف واعتصم

بذلك ، ويظهر من هذا أن هاتين الكلمتين كانتا المثار الذي يثير منه أنصار
 ألوهية المسيح الشبهات حول التوحيد ، ليلقوا الريب في نفوس معتنقيه ،
 فإذا استولى الريب عليهم ألقوا أمانهم ، ووجدوا من الحيرة والاضطراب
 مايتخذونه ذريعة إلى مايريدون . ويقول ابن البطريق في بيان مذهب
 بولس هذا : « إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره ،
 وإن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الانسى
 صحبته النعمة الإلهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشية ، ولذلك سمي ابن الله ،
 ويقولون إن الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد ، ويسمونه بثلاثة أسماء
 ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس ، وهي مقالة بولس الشمشاطى
 بطريك أنطاكية ، وهم البوليقيانيون ، هذا ماقاله ابن البطريق في معتقد
 بولس الشمشاطى ، وهو لا يختلف في جوهره عن كلام ابن حزم
 الأندلسى فيه ، وإن اختلفت العبارات ، فالاصطفاء لتخليص الجوهر الانسى
 هو ما عبر عنه ابن حزم بآثر سالة ، والنعمة الإلهية التى حلت فيه هى الوحي
 واختياره ليكون رسول الله إلى الناس يهديهم ، والبنوة التى جاءت فى عبارة
 ابن البطريق حكاية لقول بولس هذا كتابه عن المحبة ، ولعل بولس
 لم يجرها على لسانه ، أو لم تجيء فى بيانه ، ولكن ابن البطريق المسيحى
 المثلث تكلم عن الموحدين بمنطقه وتعبيره ، وإن كان المراد غير
 موافق المثلثين .

٩٦ — وكان بجوار الموحدين الذين كانت أقوالهم السائدة المنتشرة فى ربوع
 المسيحيين ، وجدت آراء كثيرين ممن دخلوا فى المسيحيين ، وفيهم بقايا الوثنية
 ولا تزال رؤوسهم مملوءة بما درسوه ، ففهموا المسيحية على ضوء ما عرفوه
 أولا ، واهتضموا المسيحية متمثلة فى نفوسهم بما استكن فى تلك النفوس
 من آراء ومعتقدات سابقة ، وإن ذلك ليشبه من بعض الوجوه تلك النحل
 المختلفة التى ظهرت فى المسلمين فى إبان الفرقة التى تلت مقتل الخليفة الثالث

دخول الوثنية
 على التوحيد

والرابع ، وما أدخل من آراء ونحل في عصر يزيد ، ومن وليه ، ولكن الاسلام بنور القرآن الكريم وحفظه ، وهدى النبي ﷺ ، وما استحفظه عليه المسلمون من كتاب وسنة ، وما كلاً الله به هذا الدين المتين ، قد نفى عنه الدخل ، وذهب الزبد جفاء ، وبقي الدين ، كما بعث به نبيه صافياً من غير رنق ولا تكدير . أما في المسيحية فلأن الكتب قد عراها ما يبناء في الكلام عليها ، واختلط الحابل بالنابل والطيب بالخبث ، وضلت العقول ، فلم تستطع أن تميز بين الصحيح وغير الصحيح ، وذهب الكوكب السارى الذى يضىء وسط الدجنة الحالكه ، وهو كتاب مبين لآياته الباطل ، ولا يتطرق إليه الريب ، يكون في فصل التفرقة بين المسيحية الحق ، والأساطير الباطلة التى أفسدتها .

اتباع مرقيون

دخلت تلك الأوهام على المسيحيين الموحدين وبرزت بينهم ، كما تبرز رموس الشياطين ، وسط أرض قد كسيت بالسندس الأخضر من الزرع ، وجاءت على نحل مختلفة ، وأهواء متباينة ، ونزعات متضاربة ، وبأسماء كثيرة ، فمنهم من كان يقول إن هناك آلهة ثلاثة : صالح ، وطالح ، وعدل بينهم ، وهم أتباع مرقيون ، ولعل هذه النحلة من آثار المجوس ، لأنهم هم الذين يقولون بأله الخير وإله الشر ولقد قال ابن البطريق في هذه النحلة وأصحابها ، زعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين ، وأنكروا بطرس السليح ، فالمنتحلون لهذه النحلة يزعمون أن مرقيون داعيتها والمنادى بها حوارى من حوارى عيسى عليه السلام ، بل كبير الحواريين وشيوخهم ، والمقدم فيهم ورئيسهم .

البربرانية

ومنهم فرقة تسمى البربرانية كانت تقول إن المسيح وأمه إلهان ، ولعل هؤلاء هم الذين ذكرهم الله تعالى كلماته في قوله تعالى مينا ما يكون بينه سبحانه وتعالى وعيسى عليه السلام يوم القيامة : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت

قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله ، . ولعل فريقاً منهم كان موجوداً عند نزول القرآن الكريم .

ويقول ابن البطريق في بيان بعض فرق كانت موجودة قبل مجمع نيقية :
 • ومنهم من كان يقول إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية ، وهي مقالة بابليدوس وشيعته ،
 ومنهم من كان يقول لم تحبل به مريم تسعة أشهر ، وإنما مر في بطنها ، كما يمر الماء في الميزاب لأن الكلمة دخلت في أذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعته ، وهي مقالة اليان وأشياعه ، .

نحل آخر

٩٧ — هذه هي بعض المقالات والآهواء والنحل التي جاءت في عصر التوحيد ورنقت صفاءه ، وكانت فسكتا سوداء في وسط خضرته النضرة ، ولقد كان من الممكن أن تزول تلك الأمور العارضة ، ويبقى الأصل سالماً نقياً ، لم يتأشبه شيء من المفاسد . ولكن شرط ذلك أن يكون ثمة كتاب محفوظ لا يعتريه الشك من أى جانب ، ولا يتطرق إليه الظن والاحتمال ، ليكون ميزاناً للحق والباطل ، وليكون مقياساً تقاس به الآراء ، وليكون مرجعاً يرجع إليه المختلفون ، ولكن الاضطهادات التي نزلت بالمسيحيين ، ومصادرة الكتب وتحريقها بأمر الرومان ، والأيدى العابثة المفسدة ، كل هذا جعل مصادر المسيحية يعتريها الشك والريب ، ومن وراء ذلك نفدت الآهواء والأساطير إلى القلوب وأخذت تنال من المسيحية وصميمها من غير أن يعقب معقب بنص قاطع معتمد ، وكتاب ثابت السند ، فكل نخلة تدعى لا تجدد مردأ لها من نص ، وهي تروج لدى العامة لا بقوة الدليل أو النص ، بل بقوة الداعي ومقدار لحته بالحجة الباطلة والصحيحة ، ومقدار نشاطه وبيانه وسعة حيلته ودهائه ، ودربته على جذب الجماهير ، ولقد كان جمهور المسيحيين يقدس المسيح أبلغ تقديس ، فكانت مهارة الدعاة ، وقوتهم البيانية متجهة إلى هذه الناحية يزيدون في تقديس المسيح

ضباع التوحيد
 بسبب تحريق
 الكتب

فيريدون كلامهم قبولاً لدى العامة ، ثم انتقلوا من التقديس المعقول إلى الغلو المردول ، فغالوا حتى عدوه إلهاً ، وهكذا أخذت العقيدة تفسد ، وكان العامة بين حبلين قوين ، وكل حبل في يد عصبة من أولى القوة ، فحبل التوحيد ، ومعه العقل ، ومعه الأصل ، ومعه السيادة للتوحيد ، وحبل آخر قد أخذ يجتذب العامة إليه بقوة ، وعمل على أخذهم بعاملين : عامل الاستهواء جاء من الناحية التي يحبونها ، وأرضى شهوتهم فيها ، وهي ناحية تقديس المسيح عليه السلام ، وأخذ يلقي تعاليمه في النفوس ، وقد وضعها في ذلك اللون الشهى ، وذلك الطعم المستساغ ، وعامل السلطان والجاه بتقريب من يقول مقالة تأليه المسيح ، وإدناؤه من ذوى السلطان ، وتمكينه من الرقاب ، وتغريب من لا يقول هذه المقالة ، واضطهاده ، وإبعاده عن حظيرة المسيحية ، ولعنه وطرده ، وتصويره للناس بصورة من لا يقدر المسيح ، ولا يرجو له وقاراً وإجلالاً .

كان العامة بين هذين العاملين مع فقد الكتب المسيحية القاطعة في الاستدلال ، والتي تقف المغالين عند حد الاعتدال ، وقد كانت كفة التوحيد هي الراجحة ، حتى بعد مجمع نيقية ، ولكن جاءوا بعد ذلك ، وأخفتوا صوت المنادين بالتوحيد ، وحيل بينهم وبين ما يدعون إليه ، ولم يتمكنوا من أن تصل دعوتهم إلى العامة ، فصار العامة بعد ذلك لا يسمعون إلا جانباً واحداً ، وخاضعين لعامل واحد ، وهو الخروج عن نطاق التوحيد ، قتم للحكام ، والقسيسين ما أرادوا ، واختفى دين المسيح عليه السلام ، وقام دين البطارقة والقسيسين .

الفرق القديمة في عهد التتليث

٩٨ — بعد مجمع نيقية أبعد التوحيد رسمياً عن الديانة المسيحية ، وإن كان أتباعه أكثر عدداً ، وأعز نفراً ، ولم تستطع الحكومة الرومانية أن تقضى على

التوحيد بذلك المجمع ، ولكنها أخذت تبعد الموحدين عن مكان الرياسة في الكنائس ، ولا تجعل صوتهم يصل إلى الشعب بالنفي والتشريد ، وكل ذرائع الأذى والاضطهاد . حتى حيل بين العامة وبين سماع صوت التوحيد ، وفعل الزمن فعله ، وتغلبت الظلمة على النور ، وأخفى ظلام الليل نور النهار الساطع ، وعندئذ كانت الفرق التي تظهر بعد ذلك في ظل ألوهية المسيح في الجلمة إن استثنينا مقدونيوس وفرقة .

فرقة مقدونيوس .

وأول فرقة ظهرت في ذلك العصر فرقة مقدونيوس هذا ، فقد أنكرت أن يكون روح القدس إلها ، وقاومت ما ترمى إليه الكنيسة العامة من فرض تلك الألوهية ، ودعوة الناس إليها ، وحثهم على اعتناقها ، وأهل مقدونيوس هذا كان من الموحدين الذين لا زالوا يعتنقون التوحيد ، ويشايعون في ذلك أريوس وسائر الموحدين ، وإن كانت الغلبة لغيرهم ، فهاهنا أن يبدأ الأساقفة بتأليه المسيح ، ويثنون بتأليه الروح القدس ، فجاءه بأنكار الثاني ، لأنه لم يعد في قوس الصبر منزع . يقول ابن البطريق : « وفي عشر سنين من ملكه (قسطنطين ابن قسطنطين الثاني) صير مكدونيو بطريركا على القسطنطينية ، وكان يقول إن روح القدس مخلوقة ، وأقام عشر سنين ومات . . ولكن مقالته لم تمت بموته بل كان له أشياع ، وأتباع خصوصاً من بين الموحدين الذين لم يزولوا من المملكة الرومانية ، وإن أصبحوا في الجلمة لا سلطان لهم . لأجل ذلك انعقد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ، وقد ذكرنا بعضاً من قراراته وكان المقرر والمناظر والمجادل في هذا المقام بطريرك الاسكندرية مهاد الأفلاطونية الحديثة ، كما نوهنا آنفاً ويسمى المقدونيون الأبولناريين ، فقد جاء في كتاب سوسنة سليمان في بيان المجمع القسطنطيني : المجمع القسطنطيني المنعقد سنة ٣٨١ بأمر ثيودوس الملك ضد الأبولناريين ، وهم المكدونيون تثبتنا اللاهوت الروح القدس

ويعتقد الكنسيون أن إنكار ألوهية الروح القدس وليد من مذهب الموحدين ، فيقول صاحب كتاب تاريخ الكنيسة وقد انبعث من جوف هذه الأرطقة (رأى أريوس) أرطقة أخرى لم تكن أقل مناقضة للثالوث الأقدس فكانت تنكر ألوهية الروح القدس ، وكان منشئها مكدونوس ، وهو نصف أريوسى قد اختلس كرسى القسطنطينية واحتجب مدة سنين عديدة تحت رداء المذهب الأريوسى ، ولم تكن له شهرة خصوصية في بهوة الأسجاسى التى أحدثها الأريوسيون ، وهذا زعم له نصيب من الواقع ، لأن الذين ينكرون ألوهية المسيح ، ويعتقدون التوحيد الصحيح لا يقرون ألوهية الروح القدس ، ولكن يجب أن يلاحظ أنه فى الوقت الذى أنكر فيه مقدنيوس لم تكن عقيدة التثليث قد أعلنت فى مجمع عام ، وقد يكون موضع حديث البطارقة وتعاليم بعضهم كون الروح القدس إلها ، فتصدى مقدنيوس لإنكار ذلك ، وتلقى الناس كلامه بالقبول ، ولذا لم ينعقد المجمع للرد عليه إلا بعد أن مات بعدة سنين .

النسطوريون :

٩٩ — هذه النحلة تنسب إلى نسطور ، وقد كان بطريك القسطنطينية ، ومكث فى هذا المنصب أربع سنين وشهرين ، وقد رأى أن مريم العذراء لم تلد الإله بل ولدت فقط الإنسان ، وهو بذلك يرى أن الألقنوم الثانى وهو الابن لم يتجسد وتلاه مريم كما يرى غيره من المثلثين ، بل كان يرى أن مريم ولدت الإنسان فقط ، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالألقنوم الثانى ، وليس ذلك الاتحاد بالمزج وجعلهما شيئا واحدا ، أو ذلك الاتحاد ليس اتحاداً حقيقياً ، بل اتحاداً مجازياً . لأن الإله منحه المحبة ، ووهبه النعمة ، فصار بمنزلة الابن ، وهذا التخرىخ لاشك يؤدى إلى أن المسيح الذى خاطبهم ، وكلهم وحوكم وعوقب فى زعمهم لم يكن فيه عنصر إلهى قط ، فلم يكن إلها ولا ابن الإله ، وقد

نقلنا فيما مضى عند الكلام على المجمع الثالث أن صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية تقرر أن كلام نسطور معناه ، أو يلزم منه حتما إنكار ألوهية المسيح . ولما قال نسطور ذلك القول كاتبه كيرلس بطريرك الإسكندرية ، ويوحنا بطريرك أنطاكية في ذلك الأبان ، ليعدل عن رأيه ، فلم يصح لإيهما ، ولم يجب طلبهما ، فانعقد مجمع إفسس سنة ٤٣١ ، وقرر لعنه وطرده ، وإثبات أن مريم العذراء قد ولدت الإنسان والإله ، وقد بينا ذلك القرار ببعض التفصيل عند الكلام على ذلك المجمع . ولقد أبعد ذلك نسطور عن منصبه ، ونفى ، فسار إلى مصر وأقام في أنخيم إلى أن مات ، ويقول ابن البطريق : « كانت مقالة نسطور قد اندثرت ، فأحيها من بعده بزمان برصوما مطران نصيبين في عهد قباذ بن فيروز ملك فارس ، وثبتها في الشرق ، وخاصة أهل فارس ، ولذلك تكاثرت النسطورية في الشرق ، في العراق والموصل والجزيرة ، . ولا زال إلى الآن في الأماكن التي ذكرها ابن البطريق نسطوريون ينتحلون هذه النحلة ويأخذون بهذا المذهب ، ويقول صاحب سوسنة سليمان إن « النسطورين في هذا العصر يسمون الكلدان يسكنون خاصة فيما بين النهرين ، والبلاد المجاورة لها ، ولهم تعاليم كثيرة مختصة بهم ، غير أنهم يمتازون عن باقي المذاهب باعتقادهم أن نسطوريوس حرمه مجمع إفسس ظلما . أضف إلى ذلك اعتقادهم بأنه لم يكن في المسيح طبيعتان فقط ، بل أقنومان أيضا ، وكان يحسب هذا المعتقد في الزمن القديم ضلالا مبينا ، وأما في هذا الزمان فيحسبه العلماء ، حتى الكاثوليك الرومانيون غاطا لفظيا لا معنويا ، لأن هؤلاء الكلدانيتين يعتقدون أن في المسيح أقنومين ، كما أن فيه طبيعتين ، ويقولون أيضا بأن هذين الأقنومين ، وهاتين الطبيعتين قد التصقتا ، حتى صار منهما رؤية واحدة ، . وهذا الكلام يدل على أمرين أحدهما أن الكنيسة الرومانية التي كانت تشدد في القرون الخالية في طرد كل من يخالف معتقدها ، وتعدده كافرا ، لا يبلغ الإيمان قلبه قد تساهلت في

هذه الأعصر ، فوسعت صدرها للخالفين لها ، وتأولت لهم ، لتدخلهم في حظيرتها بعد سابق الحرمان والطرود واللعن والتفكير .

ثانيهما أن النسطوريين قد انحرفوا عن مبادئ نسطور ، لأن نسطور كما قررت صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية ، وكما قرر ابن البطريق . لا يرى أن الألقوم الثاني ما زج المسيح قط ، بل هو يرى أن بنوة المسيح بالموهبة والمحبة لا بالحقيقة ، واستنبطنا ، كما استنبط غيرنا أنه يرى أن المسيح خال من العنصر الألهي خلواً تاماً ، وهو يصرح بأن مريم ولدت الانسان فقط ، بينما غيره يقرر أنها ولدت الآله والانسان ، وهذا اختلاف جوهري في الحقيقة والمعنى لافي الشكل واللفظ ، وإن كان النسطوريون في هذا الزمان قد قالوا بامتزاج اللاهوت في الناسوت ، كما يقول غيرهم ، فقد انحرفوا عن مقالة نسطور .

والنسطوريون يقيمون كما ذكرنا في بلاد العراق والموصل ، ومنهم طائفة تقيم في الهند ، وأخرى تقيم في بلاد العجم . وهم جميعاً لا يلتزمون بتقاليد وطقوس دينية مما يلتزم به غيرهم من الكنسيين ، وليس عندهم من تقليد إلا أن أساقفتهم يلتزمون ، التبطل ، والامتناع عن الزواج ، وذلك من منذ سنة ١٨٣٠ م وهذا كما جاء في كتاب سوسنة سليمان .

اليعقوبيون :

١٠٠ — هم أتباع يعقوب البراذعي ، وهم الذين يقولون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة قد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الانسان ، وتسكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت ، ونسبة ذلك المذهب إلى يعقوب البراذعي لأنه من أنشط الدعاة اليه ، لا لأنه مبتدعه ومنشئه ، فإن ذلك المذهب أسبق من يعقوب هذا ، فإن أول من أعلنه بطريك الاسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي . وبسبب ذلك الاعلان انعقد مجمع خلكدونية ، وقرر أن المسيح ذو طبيعتين لا طبيعة واحدة ، وبسبب ذلك القرار

انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية ، أما يعقوب فقد وجد في القرن السادس الميلادي ، ويقرر صاحب سوسنة سليمان في إطلاق اسم يعقوبيين على أصحاب هذا الرأي : « يطلق عليهم اسم يعقوبيين نسبة إلى يعقوب البراذعي الذي أعاد هذه الشيعة ، ورتبها في القرن السادس للتاريخ المسيحي ، بعد أن كادت تتلاشى .

وقد فصلنا الكلام في هذه النحلة والأدوار التي مرت عليها عند الكلام في مجمع إفسس الثاني الذي تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص ، وفي مجمع خليكندونية ، فلا نعيد ما ذكرناه ، حتى لا نقع في التكرار الممل . والذين يقولون إن المسيح ذو طبيعة واحدة ، ينقسمون إلى أسيويين وأفريقيين ، ولكل قسم رئاسة دينية خاصة به ، فريثس الأسيويين هو بطريرك السريان ، ومن هؤلاء الأسيويين من اعترفوا برئاسة الكنيسة الكاثوليكية ، فقبلتهم وإن استمروا على رأيهم ، ورئيس الأفريقيين هو بطريرك القبط المقيم بالقاهرة ، ويتبعه في هذه الرئاسة سكان الحبشة المسيحيين ، فهم خاضعون لبطريرك الكنيسة القبطية ، وهو يعين لهم أسقا يسوسهم .

ومن الذين يعتقدون أن المسيح ذو طبيعة واحدة ، ويتحدون مع الكنيسة القبطية في ذلك الاعتقاد ، ولكنهم لم تقاليد دينية وطقوس ، ولهم بطاركة يرأسونهم ، ولا يندمجون في كنيسة القبط ، ولا كنيسة السريان بآسيان الأرمن .
المارونية :

١٠١ — هم أتباع يوحنا مارون ، وقد اشتهر يوحنا هذا برأيه سنة ٦٦٧ ، ودعا إليه وشايعه بعض القسيسين فيه ، ومعهم بعض من مسيحي آسيا ، وهو أن المسيح ذو طبيعتين ، ولكنه ذو إرادة أو مشيئة واحدة ، ومن أجل هذه النحلة الجديدة اجتمع المجمع العام السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠ من بعد الميلاد ، وقرروا حرمان مارون ، ولعنه وتكفيره ، وكل من يذهب

مذهبه ، وينتحل نحلته ، وقد أشرنا إلى ذلك المجمع ، ونقلنا لك قراره في هذا المذهب ، فلا نعيد نقله ، ويظهر أن المنتحلين لهذا الرأي لم يكونوا ذوي شوكة وقوة ، حتى يكونوا بمنجاة من الأذى والاضطهاد ، فقد نزلت بهم اضطهادات شديدة لم يكن لهم من يدفعها عنهم إلا الفرار ، فلم يجدوا لهم مأمنا يعتصمون به إلا بعض البلاد في جبل لبنان ، فاعتصموا بها ، وقد استمروا على اعتصامهم وبعدهم ، حتى أدنتهم إليها الكنيسة الرومانية ، وقربتهم منها ، وأعملت الحيلة والسياسة ، حتى أعانوا الطاعة للكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها على أن يبقوا على رأيهم ، ولقد كان اتحادها مع الكنيسة الرومانية سنة ١١٨٢ بعد الميلاد ، ولا زالت هذه الطائفة متوطنة بجبل لبنان ، ولها بطريرك خاص ، وإن كان يقر بالرياسة لبطريرك روما .

الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية

١٠٢ — فيما ذكرنا أعظم الفرق القديمة شأنا ، وأبعدها أثرا ، إن استثنينا انقسام الكنيسة إلى يونانية ولايتينية وما يتبع ذلك الانقسام من انشقاق في المسيحية كلها ، وما انفرع من الأولى من فروع وفرق . ولما نكتفي بهذا القدر من القول في الفرق القديمة التي لا زال منها بقايا إلى أيامنا الحاضرة ، ونحتم القول فيها بانقسام الكنيسة إلى يونانية شرقية ولايتينية غربية ، وقد نوهنا إلى هذا الانقسام عند الكلام في المجمع . وأشرنا إلى أسبابه بالأجمال .

أساس انقسام
الكنيسة إلى شرقية
وغربية

وقد تبين من هذا أن أساس الخلاف بين كنيسة القسطنطينية التي آلت إليها رياسة الكنيسة الشرقية اليونانية قاطبة ، وكنيسة رومة التي آلت إليها رياسة الكنيسة الغربية اللاتينية أمران : أحدهما — يتعلق بالاعتقاد ، وهو أن كنيسة القسطنطينية ومن والاها من بعد اعتقدوا أن الروح القدس من الآب وحده ، لا من الآب والابن ، وكنيسة رومة ومن والاها قد

اعتقدوا أن الروح القدس منبثق من الآب والابن معاً ، وعقد كل مجمعاً شايح اعتقاده وتابعه فيما اقتنع به . وكان المجمع المشايح لرومة سنة ٨٦٩ ، والمشايح للآخرى بعده بعشر سنوات سنة ٨٧٩ .

ثانيهما — لا يتعلق بالاعتقاد ، ولكن يتعلق بالرياسة الكهنوتية ، أهى لكنيسة القسطنطينية أم لكنيسة رومة ؟ لقد قرر المجمع الذى شايح رومة أن تكون لرومة ، فرئيس كنيستها هو الحبر الأعظم ، والرئيس الروحى للجميع . وقرر المجمع الذى شايح القسطنطينية رفض تلك الرياسة وعدم الاعتراف بها ، ويعتبرون رئيس القسطنطينية رئيساً عاماً للكنائس . ولقد تباع هذا الاختلاف فى تلك المسألتين الرئيسيتين خلاف فى مسائل أخرى أوجدها تتابع السنون واستمرار الشقاق ، فقد كثرت أوجه الاختلاف فى مسائل فرعية منها :

(١) استعمال الفطير فى العشاء الربانى بدل الخبز ، فإن ذلك أقرته الكنيسة الغربية ، ولم تعترف به الكنيسة الشرقية .

(٢) أكل الدم والمخنوق فإن الكنيسة الغربية أباحته وهو مخالف لمجمع الرسل فى أورشليم الذى انعقد بعد مفارقة المسيح بنحو اثنتين وعشرين سنة .

(٣) أكل الرهبان دهن الخنزير ، فهو مباح عند الكاثوليك دون الكنيسة الشرقية .

(٤) لبس الأساقفة الخواتم فى أصابعهم وحلق الكهنة لحاهم ، وجاء فى حاشية لكتاب سوسنة سليمان مانصه : يوجد اختلافات غير هذه بين الروم واللاتين لم يصرح بها هؤلاء البطارقة وربما ذلك لسكونها ما كانت تحدت وقتئذ كقاعدة دينية فى كنيسة رومة ، كالمطهر الذى لم يثبت إلا فى مجمع فلورنسا المنعقد فى سنة ١٤١٩ ، ثم أوجب قبوله على كل الكنائس الغربية المجمع التريدينى فى القرن السادس عشر . أما الفرق بينه وبين عقالات جهنم التى

يقررها الروم ، فهو أن المطهر نار مطهرة يتخلص منها الخاطئ بعد أن يقاص فيها بمقدار جرم ذنوبه. أما عقالات الجحيم ، وهي نظير حبس يقيم فيه الخطاة إلى يوم الدينونة الذي به ينالون القصاص الأبدي في جهنم ، والصلوات التي يقدمونها لأجل الموتي ، يعتقدون أنها تلتطف نوعاً أحوال هذا الحبس عليهم تلطيفاً وقتياً فقط .

وكذلك منع الشعب من الاشتراك في السكأس إذ لم تثبت كنيسة رومية إلا في مجمع كونستانس سنة ١٤١٥ .

تقدم الزمن يوسع
الخلاف

١٠٣ — كان كلما تقدم الزمن على النقطة التي ابتدأ منها الخلاف اتسعت فروقاته ، وكبرت زاوية الانفراج ، وكلتا الكنيسيتين ذات بأس وقوة ، وكانت في القديم لها دولة تحميها ، إذ كانت دولة الرومان منقسمة إلى شرقية وغربية ، فكان استقلال كل واحدة من الدولتين وانفصالها عن الأخرى مما أكد الفرقة ، وقوى الانقسام ، ولقد كان يأتي الفينة بعد الأخرى صوت يدعو إلى الوحدة والالتئام بدل الاستمرار على الفرقة والانقسام ، فتعقد لأجل هذا مجامع ، وترسل الوفود ، ولكن ما إن يتلاقى المتخاصمان ، حتى تعاد أسباب النزاع جذعا ، إذ كل واحدة ترغب في أن تنزل الأخرى عن رأيها ، فتلاحى كل واحدة عما تعتقد ، فيشتد الجدل ، ويحمى وطيس القول ، فيفترقان ، وقد زادت القطيعة قوة واحتداما ، حاول أحد بطارقة روما في منتصف القرن الحادى عشر أن يجمع الشتات ، ويلم الشمل ، وعرض مبادئ تكون أساسا للبصالحه ، فرفضها بطريرك القسطنطينية ، وأصدر الأول قراراً بحرمان الثانى ، فأصدر هذا قراراً بحرمان الوفد الذى عرض عليه الشروط ، وهكذا ازدادت الفرقة بسبب ذلك التلاقي ، وأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، ويظهر أن السبب في ذلك ما تعتقده كل واحدة منهما من أن الأخرى خارجة على الدين ، ورغبة كل واحدة في أن تجتذب الأخرى إليها ، كما بينا ، ويقول في

محاولة إزالة
الخلاف

ذلك صاحب بوسنة سليمان : « إن الكنيسة الرومانية تدعى أن كل المذاهب المسيحية على وجه الإطلاق هي شيع هرطوقية خارجة منها ، ومنفصلة عن شركتها ، وهذه الدعوى تصح لاية كنيسة أمكنها أن تثبت لذاتها الأقدمية في الثبات على المعتقدات الصحيحة الأصلية . أما كنيسة رومة ، فليس لها في هذه الدعوى إلا الاستيلاء على أمانة صندوق التقاليد . غير أن سلامة الذوق تقتضى بأنه كلما قلت التقاليد في كنيسة من الكنائس دل على أقدميتها بالنسبة إلى التي تزيد عليها فيما هو من هذا القليل ، لأن التقليد على ما يستبين من ماجريات رومة قابل للزيادة والزيادة لإحداث ، والأحداث في الدين لا يرب في إنه بدعة . والإبداع هو عين ما يسميه المسيحيون هرطقة ،

انتقاد مسيحي
للكنيسة الغربية

ونرى من هذا أن صاحب هذا الكتاب ينتقد الكنيسة الغربية بكثرة ما أحدثته من تقاليد ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة هرطقة كما يعبرون ، ولعل السبب في ذلك النقد ليس مجرد الحق ، بل كونه ليس من مذهبها ، وإلا كان كل ما نقوله مقدساً لا بدعة فيه .

بطاركة الكنيسة
الشرقية

١٠٤ — قد بينا البلاد التي تتبع الكنيسة الغربية ، وكانت فيما مضى كل أوربا تقريباً ، وبعض طوائف في آسيا .

أما البلاد التي تتبع الكنيسة الشرقية ، فأكثرها في الشرق ، كما أسلفنا من القول ، ولها بطاركة أربعة أولهم بطريرك القسطنطينية ، وهو كبيرهم ، ويضيفون إلى لقبه وصف أنه البطريرك المسكوني ، ويقول صاحب سوسنة سليمان « إنه ليس إلا لقباً تشريفياً فقط ، فليس له تسلط على غيره من البطاركة أو الأساقفة المستقلة بوجه قانوني أصلاً ، ويليه في الرتبة والمكانة الدينية بطريرك الإسكندرية للأروام الأرثوذكس ، ثم بطريرك أنطاكية ، ثم بطريرك أورشليم ، ثم المجمع الروسي ، ثم عدة مجامع لأسقفيات مستقلة أخرى كأسقفية أينا ، وأسقفية قبرص وغيرهما ، وشوكة تلك الكنيسة تمتد في بلاد

روسيا واليونان والصرب وكثير من جزائر بحر الروم .

وقد ظهرت في روسيا التي كانت تسودها هذه الكنيسة شيع وفروق كثيرة بلغ عددها نحو مائتي نخلة ، وتعدادها مجتمعة لا يزيد عن خمسة عشر مليوناً ، فمنهم فرقة لا ترى تعيد الأطفال ، ومنهم شيعة تحسن للنصراني أن يقتل نفسه في حب المسيح ، ومنهم شيعة يحرقون أنفسهم لتعمدهم النار ، فيتطهروا بها ، ومنهم شيعة تلتزم الحتان باعتباره كان في المسيحية الأولى ، وفي التوراة التي تعتبر النصرانية مجردة لها . وهكذا تختلف الذحل وتباين ، وكل واحدة تعتقد أن رأيها هو محض الحق المبين .

الاسلام يظل
الكنائس الشرقية
بحريته

١٠٥ — ذكرنا أن العلاقة بين الكنيستين على أشد ما يكون الخلاف ، كل تعد الأخرى قد خرجت عن نطاق الدين ، وقد كانت الحال من قبل كذلك بين كنيسة القبط بمصر ، والكنائس الأوربية ، وقد نزل بمصر أشد البلاء ، ولم ينقذهم إلا الفتح الإسلامي ، فمن وقت حكم المسلمين لمصر والشام إلى الآن شعر المصريون بحريتهم الدينية التي لم يستمتعوا بها من قبل ، حتى أهداها إليهم الإسلام السمع الكريم . ولما اختلفت الكنيسة الغربية مع الكنيسة الشرقية كان من المنتظر أن تنزل إحداها بالأخرى أشد البلاء ، ولكن ذلك لم يتم أول الأمر لانقسام الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية ، واعتصام كل واحدة منهما بدولة ، لذلك لم تتمكن واحدة منهما من رقبة الأخرى ، فلم تقبض على ناصيتها ، ولكن لما أخذت الدولة الشرقية في الانحلال ، وبخلفها المسلمون على بعض أملاكها ، ويقصونها من أطرافها ، أخذت ترجع إحدى الكفتين على الأخرى فتقويت الغربية ، وصارت لها السيادة ، واعترف بطريك القسطنطينية له بالتقدم عليه في الجلسة ، وإن لم يعترف بأنه على حق فيما يختلفان فيه ، وما اختلفا فيه من قبل ، والبلاد التي اقتطعها المسلمون كانت تنعم بالحرية الدينية كشأن المسلمين في معاملتهم لغيرهم .

ولما جاءت الحروب الصليبية ، استولى الصليبيون على أورشليم التابعة
كنيستها للكنيسة الشرقية وغيرها من المدن الإسلامية التي يعيش في ربوعها
المسيحيون آمنين مطمئنين ، لا يزجهم اضطهاد ، ولا يرنق صفاءهم ضغط
ثم ثنى أولئك الصليبيون اتباع الكنيسة الغربية ، فاستولوا على دولة الرومان
الشرقية نفسها ، فأنزلوا بأخوانهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون ، ولترك
الكلمة للمسيحي صاحب سوسنة سليمان ، فهو يقول . «حرك البابا أنوسنت
الثالث قواد الصليبيين لنزع المملكة الشرقية من يد اليونان ، فافتتحوا
القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، وداموا متسلطين عليها إلى سنة ١٢٦١ م فاستعملوا
ما أمكنهم من البربرة في الأراضي التي امتلكوها من بلاد سورية وفلسطين ،
ليخضعوا بطاركة أورشليم ، وجميع الأكرس اليوناني بواسطة الحبس ،
واقفال الكنائس إلى أن أحوجوهم أن يفضلوا موادة العرب حكام البلاد
الأصليين على موادتهم ويختاروا تسلط شعب يرتضى بجزية على أن يتسلط
عليهم ملك روجي طمعه وطمع إقصاده لا يشبعان ،

حينئذ أحس أولئك المسيحيون بنعمة الإسلام عليهم ، ونعمة حكم المسلمين
لهم فقد سامتهم الكنيسة الغربية وملوكها الخسف والهوان ، ونقبوا عن
قلوبهم ، وبحشواهما تسكنه الصدور ، ولكن نعمة الإسلام كانت تلاحقهم ،
فلم ينقض زمن طويل ، حتى جاءهم الإسلام في القسطنطينية وأعطاهم الأمن
والدعة والقرار والاطمئنان ، حتى لقد قالوا كما حكى صاحب السوسنة
«عمامة السلطان محمد الفاتح ، ولا تاج البابا المثلث ، وهكذا كان الإسلام
رحيما تسع رحمته المخالفين .

الفرقة الحديثة « البروتستانت »^(١)

أو الإصلاح الديني

حال الكنيسة قبل الإصلاح :

شدة الكنيسة على
الناس والعلماء

١٠٦ — اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين ، وبالغت في فرض آرائها عليهم مبالغة تجاوزت حد الغلو ، ولم تسلك في ذلك سبيل الموعظة الحسنة ، والدعوة الصالحة ، والارشاد القويم ، ومخاطبة الأرواح والنفوس ، وتمكينها من أن تتبعها ، وهي حرة مريضة مختارة ، بل سلسكت سبيل العنف ، وركبت متن الشطط ، فجعلت كل رأى في العلوم الكونية يخالف رأيها كفرأ ، ولا تدعو معتنقه إلى الهداية ، وترشده إلى الرشاد ، كما يليق برجل الدين مع من يراه ضالاً ، بل تكفر لأوهى الأسباب وتحرق أو تعذب من تراه كافراً بلا رفق ولا هوادة ، فهذا المجمع الثاني عشر من مجامع تلك الكنيسة وهو المجمع المسمى باللاتيرانى الرابع المنعقد سنة ١٢١٥ يقرر استئصال الهرطقة ، ويعنون بذلك كل من يرى رأياً مخالفاً للكنيسة ، ولو كان رأياً في السكون أو طبائع الأشياء ، ولم تكتمف الكنيسة بقتل من يجهرون بأراء تخالف آراءها ، بل أخذت تنقب على القلوب وتستكنه خبايا النفوس ، وتكشف عن سرائر الناس بما أسماه التاريخ محاكم التنقيش ، التى دنست تاريخ الأديان بما ارتكبت من آثام ، وما أزهقت من أرواح ، وما سفكت من دماء ، وما عذبت من أحياء ، وإن جهر رجل من رجال الدين بالدعوة إلى الإصلاح ، داعياً رجال الكنيسة إلى أخذ الناس برفق ، وحائاً رجال الدين على الأخذ

(١) سعى الذين اعتنقوا مبدأ الإصلاح الكفى ، وخرجوا على الكنيسة الكاثوليكية بروتستنت ، لأنهم عندما أريد تنفيذ قرار الحرمان عليهم أعلنوا احتجاجاً يسمى بالإنجليزية بروتست ، فسمى الذين أمضوا القرار بروتستنت أى المحتجين .

بهديه كان عقابه الحرمان والقتل ؛ حدث في أوائل القرن الخامس عشر أن أحس أساقفة فرنسا بوجوب إصلاح حال البابوات ، فانعقد لذلك مجمع مؤلف من ١٥٠ أسقفاً ، و ١٨٠٠ من رجال الدين ، ولكن هذا المجمع انتهى في قراراته بالأمر باحراق يوحنا هوس مصلح كنيسة بوهيميا ورفيقه جيروم .

ولقد حرق وعذب في هذا السبيل علماء استشهدوا في سبيل العلم بسبب مظالم تلك الكنيسة ، وضيق صدر القوامين عليها ، وما يذكر في هذا أن أحد العلماء واسمه ايلارد كان له رأى في تكفير المسيح عن خطيئة آدم خالف به رأى الكنيسة فقال ليست حياة المسيح وصلبه وما لاقى في ذلك من تعذيب سيلاً لارضاء الله وإنزال عفوه عن خطيئة الانسان ، فغفوا الله أيسر من ذلك وأقرب ، إنما لاقى المسيح ما لاقى لإعلاناً لما يكنه قلبه من حب الله ، وعسى أن يشير في الناس عاطفة الشكر وعرفان الجليل ، فيعيدهم إلى طاعة الله ، ولكنه ما إن قال ذلك القول حتى انعقد مجلس لمحاكمته ، فكان نصيب كتبه التحريق ، ونصيبه السجن الدائم ، إحتى وافته منيته ، وجيلو يرى رأياً في الكون ، فيسجن لذلك الرأى ، مع أن رأيه ليس من الدين فى شىء .

١٠٧ — بالفت الكنيسة فى شدتها ، كما رأيت ، ولم ينج حتى الملوك من طغيانها ، فقد كان انقسام الدولة الرومانية الغربية إلى ممالك مختلفة ، واعتبار كل مملكة وحدة سياسية لا تتصل بالآخرى إلا اتصال محبة وسلام ، أو حرب وخصام — كان ذلك سبباً فى أن صار البابا لاسلطان لأحد من ولادة الأمر عليه ، وقد تقرر هذا من بعد كما صار تعيين البابوات باختيار المجمع ، لابتعيين ملك أو أمير ، مهما تكن قوته وسطوته ، وصار البابوات بعد تعيينهم غير خاضعين بأى نوع من أنواع الخضوع لأى ملك من الملوك ، وعلى النقيض من ذلك لهم هم السلطان الذى لا يرد على كل مسيحي ، مهما تكن مكانته يستوى فى ذلك

فرض سلطانها
على الملوك

الأمير والحقير ، والراعي والرعية ، فليس لأى ملك سلطان على البابا ، وللبابا سلطان على كل ملك ، لأنه مسيحى ، وله السلطان الكامل على كل المسيحيين لأن البابا خليفة لبطرس الرسول ، وبطرس الرسول أقامه المسيح رئيساً على الخواريين من بعده ، فالبابا على هذا الأساس خليفة للمسيح ينطق باسمه ، ويتكلم بخلافته ، وينفذ بسلطانه ، ومن خرج عن طاعته ، فقد خرج عن طاعة المسيح ، وحارب دينه .

قرارات الهرمان
تعال الملوك

وهذا المنطق فرضوا أوامره على الملوك ، كما فرضوها على سائر الناس ، ولذا لم ينبج بعض الملوك من قرارات المجامع بجرمانهم ، وطردهم من حظيرة المسيحية ، ولعنهم ، فقد جاء فى كتاب سوسنة سليمان : المجمع الثالث عشر انعقد فى ليون من أعمال فرنسا سنة ١٢٤٥ بأمر البابا اينوسنت الرابع لأجل عزل فردريك ملك فرنسا وحرمة ، وهذا المجمع لم تسلم كنيسة فرنسا حتى الآن بصحته أو بسلطانه مطلقاً .

لم ينبج إذن الملوك من قرارات الهرمان والطرده ، وإن لذلك لآثره فى نفوس شعوبهم ، كما أنه يحفز الملوك على العمل من جانبهم على حماية أنفسهم ، وهم فى ذلك لا يمتنعون عن أن يثيروا القالة فى رجال الكهنوت ، ويكبروا صغائرهم ، ويروجوا عنهم ما يحبط من قداستهم ، حتى ينفردوا بالاحترام ، ولا يكون سلطان لأحد غيرهم .

فرض الكنيسة
لائاتادات

١٠٨ — هذه هى الكنيسة فى معاملتها للناس ، عنف وزجر وقسوة ، لإرشاد وهداية وإصلاح ، وهى تضرب كل من يعترض طريقها ، لا تفرق بين سائس ومسوس ، وحاكم ومحكوم ، وراع ورعية ، وقد احتكت لهذا بدوى السلطان فكان لابد من مغالبة بينهما ، ولم يكن الأمر مقصوراً على الأذى البدنى تنزله بمن يخالفها ، ولو فيها ليس بينه وبين الدين نسب ، ولا يتصل به بسبب ، بل

تجاوز ذلك إلى إرهاب المسيحيين بأناوات مالية، يفرضونها وضرائب كبيرة يأخذونها وعلى ذلك صار المسيحيون قاطبة يثنون تحت نير ثقيل ، سواء في ذلك من خالف ومن وافق ، فالتخالف بالعذاب يهرأ به جسمه ، والموافق بالمال يثقل به ، وتفرض عليه الضرائب لأسباب غير معقولة وغير مقبولة أحيانا وما يجمع من أموال الفقراء والمحدودين التي حصلوا عليها بالكسب واللغو يتوزعه رجال الدين بينهم ، وينفقونه إسرافا وبدارا في سبيل أهوائهم ، وبذلك كانوا يجمعون المال من غير حله ، وينفقونه في غير حله أيضا ، وبذلك انغمسوا في شر ما في هذه الدنيا ، وتركوا لب الدين .

استبداد الكنيسة
بفهم الكتب
المقدسة

١٠٩ — ولقد احتجرت الكنيسة لنفسها الحق في فهم الكتب المقدسة عندهم ، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس ، ولا معقب لما تقول في هذا التفسير ، أو في أى رأى تبديه ، أو أمر تعلنه ، وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول ، وافق العقل أو خالفه ، وعلى المسيحي إذ لم يستسخ عقله قولا قالته أو مبدأ دينيا أعلنته أن يروض عقله على قبوله ، فإن لم يستطع ، فعليه أن يشك في العقل ، ولا يشك في قول البابا ، لأن البابا خليفة المسيح لسلسلة الخلافة التي بينها ، ولقد كانت تعلن أموراً ماجاء بها الكتاب المقدس عندهم ، وما تعرض له المسيحيون الأولون ، ولا الجامع الأولى ، وهى أمور غريبة جداً غريبة ، بعيدة عن القبول في أحكام العقل جد البعد ، وتلزم المسيحيين بها ، وتفرضها عليهم فرضاً ، ومن قال كلمة فيها قالويل له ، ينزلونه به في الدنيا ، ولا ينتظرون حساب الديان في الآخرة . ونذكر للقارئ على سبيل المثال مسألتين كان لهما أثر في الفكر المسيحي ، وبسببهما هما وغيرهما تقدم المصلحون في جرأة ، داعين إلى إصلاح الكنيسة بالحسن أو بغير الحسن ، هاتان المسألتان هما مسألة الاستحالة ، ومسألة الغفران .

١٠٠ — أما مسألة الاستحالة فالأساس فيها ما علمت في شرح الشعائر

مسألة الاستحالة
والغفران

النصرانية ، من أن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزاً ، ويشربون خمرأ ، ويسمون ذلك العشاء الرباني ، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح ، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك ، فمن أكلها وقد استحالة هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه ، وذلك أمر غريب في العقل ، لا يستطيع أن يستسيغه بيسر وسهولة ، بل لا يستطيع أن يستسيغه قط ، إذ كيف يتحول الخبز لحمأ ، وكيف يصير لحم شخص معين معروف ، وكيف تتحول الخمر دمأ ، وتصير دم شخص معين معروف ؟ ذلك غريب ، بل مستحيل التصور والقبول في العقل ، ولسكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته ، وإلا عرضوا للطرد والحرمان ، وهل هذا أمر ورد في الكتب المقدسة ، حتى يجب الأخذ به من غير تفسير أو تأويل ، إنه أمر استقلت به الكنيسة ، وأعلنته وأيدته في أحد مجامعها ، غير معتمدة في ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم . ولقد خالف في بعض شأنه الكنيسة الكاثوليكية — غيرها من الكنائس ، فالكنيسة الشرقية ترى أن العشاء الرباني لا يكون بالفطير ، بينما تراه الكنيسة اللاتينية ، ووجد من أحرار الفكر من ينكرون هذه الاستحالة ، ويعتقدون أنها غير ممكنة في العقل ، ولا سائغة في الفكر .

١١١ — أما المسألة الثانية فهي مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسيء في الدنيا ، فقد قرره الكنيسة حقاً لنفسها في المجمع الثاني عشر أيضاً . وقد جاء في كتاب تاريخ الكنيسة في بيان قرار المجمع في هذا الشأن : « أنهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران فقال : إن يسوع المسيح لما كان قد قلد كنيسة سلطان منح الغفرانات ، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى قد أعلم المجمع المقدس ، وأمر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي . والمثبتة بسلطان المجمع ، ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة ، أو ينكرون .

على الكنيسة سلطان منحها ، غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظة قديما ، والمثبتة في الكنيسة ، لتلايمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط التساهل ،

هذا قرار المجمع ، وفيه تمكين للكنيسة من سلطان قوى جبار ، وهو سلطان مسح الذنوب ، وغفرانهاهما يكن مقدارها ، ومهما تكن قد دنست النفس ، وأركست القلب ، ولكنه قد أوصى الكنيسة بالاعتدال والاحتراز . حتى لا يؤدى الإفراط في منح الغفران إلى ترك التهذيب الدينى ، وهجر تعاليم الكنيسة ، والعبث بهدى الدين ، فمل أخذت الكنيسة بما أعطاه المجمع ، ورأعت حق الرعاية ما أوصاها به من عدم الإفراط فى الإعطاء والمنح ؛ لقد أنى حين من الدهر من بعد أن أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق ، أن أفرطوا فى إعطائه إفراطاً شديداً ، وأنشئوا له صكوكا تباع وتشترى ، فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا ، ومتعة من متعها . وبذل العصاة فى سبيلها المال ، وما كان عليهم من حرج فى أن يرتكبوا ما شاءوا من الموبقات ، وينالوا ما تهوى الأنفس من معاص . ما دام ذلك يفتدى بمال قل أو جل ، وهذا نص صك الغفران الذى كان يباع يبيع السلعة

الإفراط الكنيسة
فى استعمال حق
الغفران

« ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان ، ويحكك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة . وأنا بالسلطان الرسول المعطى لى أحلك من جميع القصاصات . والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبته ، وأيضا من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفضيحة ، ومن كل علة ، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى ، وأحو جميع أقدار المذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر وأردك حديثا إلى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرنك فى شركة القديسين ، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك ، حتى إنه فى ساعة الموت

صورة من صك
الغفران

يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح ، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتى ساعتك الأخيرة . باسم الاب والابن والروح القدس .

هذه صورة من صور صك الغفران تذكر أنها تمحو الالماس ، وتغفر ذنوب العاصى ما تقدم منها وما تأخر ، تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهراً ، ثم لا يصير قابلاً لأن تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا . ومهما ينغمس فى المعاصى ، كأن ذلك الصك جواز المرور إلى النعيم المقيم ، لا يعوق حامله عائق ، ولا يرده عن الوصول خازن أو حارس ، هذا مايدل عليك الصك ، وهذا ما كانت تحاول الكنيسة أن تلقيه فى روع الناس تمكيناً لسلطانها ، ورغبة فى نقودهم التى يبذلونها للكنيسة فى سبيل الحصول على ذلك الصك الذى يكون سر الأمان ، وطريق الوصول إلى الغاية .

لقد ابتدأت الكنيسة حق الغفران بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة ، ثم تولى القسيس مسح هذه الذنوب والشخص يودع الدنيا ، ثم انتقلت من ذلك إلى أن جعلت لنفسها الحق فى الغفران ، والشخص قوى يستقبل الحياة ، ولا يودعها ويقبل على متعها ، ولا يدبر عنها ، وغالت فجعلت لنفسها غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب ، ثم أغرقت فى المغالاة فاتخذها رجال الدين باباً من أبواب الكسب للكنيسة . ثم انهم ينفقون ما يجمعون من مال فيما يحله الدين والأخلاق ، وما يحرمه ، وبذلك طم السيل ، حتى جاوز الحزام الطبيين .

سلوك رجال الدين
الشخصى

١١٩ — وهل كان رجال الدين فى سلوكهم الشخصى ، وفى استمساكهم بعروة الأخلاق ، وهدى الدين يستحقون أن يبذل الناس فى طاعتهم ما يبذلون ويروضون أنفسهم على الخضوع لآرائهم ، وقبولها بقبول حسن ، متهمين العقول ان حاولت التمرد والعصيان ، لأن حال رجال الدين بعيدة عن

الظنة ، منزهة عن الريبة ، قد سموا بأنفسهم ، حتى سامتوا في العلو القديسين والشهداء والصالحين . وجعلوا أنفسهم عنوان العفة . وبجح النفس عن الشر ، وافتدوا الفضيلة بأنفسهم ، أو عرضوا أنفسهم للفداء كما كانوا يرون أن المسيح قد فعل من قبل ؟ لقد كانت حال رجال الدين تحوطها الريب من كل جانب ، وتأخذهم الانظار المتعقبة من كل ناحية من نواحي الحياة ، حرموا على أنفسهم الزواج إذ سادت الرهبانية ، وسيطرت على نفوسهم ، فجعلوا زواجهم حراما ، لينصرفوا لخدمة كنيسة الرب ، ويقوموا على سداتها ويرعوها حق رعايتها ، ولكن ما إن توردت عليهم الأموال ، وكثرت أمامهم أسباب التعميم ، حتى فككوا فيها مترفين ، وانغمسوا في الملاذ يستطيون أطيبها ، ويطلبون أحدها ، ولما مكثوا لأنفسهم من السلطان ، اندفع بعضهم في طلبها اندفاعا ، ومنهم من استهتر في سبيلها استهتارا . وخرجت حال أولئك المنغمسين في الخطايا من السر إلى الجهر ، ومن التستر إلى التفحش ، ومن الخفية إلى الإعلان ، واتصل بعضهم بالنساء اتصال سفاح ، بعد أن حرموا على أنفسهم النكاح ، ولم تتمنع النساء المتصلات بهن من أن يعان ذلك مفاخرات به ، وجاء من ذلك الاتصال الآثم أولاد لا آباء لهم ، ولكن لهم حظوة ، لأن رجال الدين يعرفون آباءهم ، كما يعرفون أبناءهم ، فيمكنون لهم بسلطانهم الديني سلطانا دنيويا . ولقد كانت تلك الحياة الماخنة اللاهية العابثة الفاسقة ميزة اختص بها رجال الطبقة العالية الدينية أنفسهم ، أما التحوت من رجال الدين ففي فقر مدقع ، وفي حياة هي أقرب إلى الدين المسيحي من حياة كبرائهم ، وذوى السلطان فيهم وفي الشعب .

إبتداء الإصلاح :

١٣٠ — هذا سلطان الكنيسة ، وتلك لجال رجالها ، يتدخلون في كل شيء ينقبون عن القلوب ، وقد سترها علام النيوب ، ويرهقون من يهتمونهم بأقصى أنواع العذاب ، ويفرضون سلطانهم على الراعي والرعية ، حتى يتملئ

الاسلام والاصلاح
المسيحي

دعوة بعض رجال
الدين إلى الاصلاح

من تحكمهم الملوك والأمراء ، وذوو الفـكر من الشعوب . ويجبـون الاتاوات
ويضربون الضرائب حتى كأنهم الجباة العشـارون ، لا رجال الدين المهذبون
ويعطون أنفسهم حق مسح الخطايا بعد اعتراف المذنب ، في آخر أيامه في
الدنيا ، وأول أيامه في الآخرة ، ثم يغالون ، فيمنحون أنفسهم حق غفران
الذنوب السابقة واللاحقة للقوى الصحيح ، ويكتبون في ذلك صكوكا
يبيعونها بـشمن قليل أو كثير ، ثم يقضون حياة كلها لهو ومجون ، وحوـلهم
الناس ينظرون ولقد بلغ السيل الزبي في العصر المشهور في التاريخ الأوربي
بعصر النهضة ، وفيه نهضت الإرادة الإنسانية ، والعقل الإنساني يفرضان
وجودهما ، وفيه استطاع الأوربيون أن يروا نور الله في الاسلام ، والتدين
الحقيقي فيما يدعو اليه هذا الدين ، إذ اتصل الشرق بالغرب فيما قبس الغرب
من دراسات تلقاها على أساتذة من المسلمين بشكل خاص ، ومن الشرقيين
بشكل عام ، وفيه علم أن لا سلطان لأحد من رجال الدين على القلب ،
وأن لا واسطة بين الله والعبد ، وأن الله قريب لمن يدعو ، ويجيب دعوة
الداعي إذا دعاه . حينئذ أخذت الأنظار المتربصة تحصى على رجال الدين
ما يفعلون ، ووجد من بينهم من استنكروا حالهم ، وأخذوا يدعون زملاءهم
إلى إصلاح حالهم ، ليردوهم إلى حكم دينهم قبل أن يفوت الوقت ، وقبل أن
ينفض الناس ، وقبل أن يحملهم العامة على الإصلاح ، ولقد جاهر بذلك
جيروم وهوس ، ولكن كان نصيبهما أن أعدما تحريقا بالنيران ، وكان
ذلك بقرار من مجمع كونستانس الذي انعقد من سنة ١٤١٤ إلى سنة ١٤١٨ ،
ولقد قرر ذلك قتل هذين العالمين حرقا بالنار لأنهما دعوا الكنيسة
إلى عدم الأخذ بما يسمى سر الاعتراف ، مبينين أن الكنيسة ليس لها
سلطان في محو الإثم أو تقريره ، وإنما التوبة مع رحمة الله هي التي تمحو
الآثام ، وتطهر النفس من الخطايا ، ولقد تقدم إلى المجمع يوحنا هوس
ليدافع عن آرائه ، وهذا ما قاله كاتب متعصب للكاثوليك في ذلك الدفاع

و لدى دخوله أخذ يعلن غواياته قبل انتظاره حكم المجمع على تعليمه ، فقر
الرأى على إلقاء القبض عليه ، وفوض المجمع إلى بعض أعضائه أن يفحصوا
مؤلفاته وألحوا عليه أن يقلع عنها ، ولكنهم لم يستفيدوا شيئا . . ووجدوا
في مؤلفاته فصولا كثيرة تتضمن أضرارا ، وقد خولوه الحرية ليوضح
أقواله في كل منها ، وحرصوه على الخضوع لحكم المجمع ، وعرضوا عليه
صورة الرجوع عن ضلاله ، فأبى أن يمضيها ، وبقى مصرا على غيه ،
ولم يشأ المجمع أن يتوصل معه إلى المضايقة الأخيرة ، بل حاول مرارا
أن يرده عن عناده ، فحكموا أولا على كتبه بالنحريق رجاء أن يخيفوه
بذلك ، لكنه لبث مصرا على عناده ، فحينئذ خطوه عن الدرجات المقدسة
حطا احتفاليا ، وأسلموه لحكومته ، فحكمت عليه بالخرق حيا بمقتضى
نواميس المملكة ثم نال جيروم تليذه وقرينه في العناد هذا العقاب نفسه .
أما المجمع فلم يطلب قط هذا العقاب بل ترك للقضاء المدني أن يعمل بموجب
شرائع المملكة التي كانت تعطى الملك حقا في أن يعاقب من يفسدون النظام
المدنى ، ببشهم تعاليم سيئة تقلق راحة الجمهور .

هذا ما يقوله الكتاب المدافعون عن الكنيسة ، ومهما يكن قولهم
في برائتها من دم أولئك الذين حاولوا من رجال الدين إصلاحها ،
فما لاشك فيه أنها لم تصغ إلى أقوالهم ، بل عاقبتهم عليها بالحرمان . فسلبتهم
المنصب الدينى ، ثم عاونت في قتلهم أفضع قتلة ، إن لم تكن هى الفاعلة .

١٢١ — كانت إرهابيات الإصلاح تبدو الوقت بعد الآخر ، ويظهر به
رجال استعدوا للفداء زمنا بعد زمن ، وكانت البلاد التي تظهر فيها آراء
الإصلاح فى شمال أوربا وإنجلترا ، وفرنسا ، لأن فرنسا قد ذاق بعض ملوكها
أذى الحرمان من الكنيسة ، وأحس الفرنسيون بشدتها ، وإنجلترا أرأت من سلطان
البابا عليها تدخلا فى شئونها ، ولأن أمم شمال أوربا قد اقترنت حضارتها بالدين

ابتداء الإصلاح من
غير رجال الدين

فكانت شديدة الغيرة عليه ، قوية الرغبة في فهمه على وجهه ، جاعلين قبلتهم
المكنيسة ورجالها ، فعثروا بما أوتوا من رغبة دينية وعقل فاحص على
عيوبها ، فأرادوا أن يصلحوها من غير أن يهدموها ، لذلك ظهرت حركات
الإصلاح ووجدت آذاناً مصغية في تلك البقاع ، ولم ينبثق فجر القرن
السادس عشر حتى انبثقت معه أصوات قوية جريئة تدعو إلى إصلاح
المكنيسة ، وتنقد حالها وتندد بأعمالها ، وتشر عيوب القوامين عليها ،
عساهم يصلحون أمرهم ، ويعودون إلى آداب الدين وتهذيبه .

الدعوة المادية

وقد ظهر في فجر القرن السادس في أزمان متقاربة أصوات رجال
مصلحين ، ومن أشدها ظهوراً صوت أرزم ، وقد ظهر بالأراضي المنخفضة
وعاش من ١٤٦٥ إلى ١٥٣٦ . وقد أخذ يدعو الناس إلى قراءة الكتاب
المقدس عندهم ، وإلى تهذيب عقولهم ، وتنمية مداركهم ، ليستطيعوا فهمه ،
والانتفاع به ، وإدراك مراميهِ وغاياته ، وأخذ يدعو إلى إصلاح المكنيسة ،
ويظهر أنه لم يوجه دعوته إلى الشعب ، بل وجهها إلى الحكام المستنيرين ،
وإلى رجال المكنيسة أنفسهم ، فقد كان البابا ليو العاشر صديقه ، وكان ممن
يقدر آراءه ، ويعجبون بتفكيره ويوافقون بالأولى على وجهة نظره ،
وقد سار في طريق ذلك الإصلاح السلمي مجتهداً الاجتهاد كله في أن يحافظ
على مركز البابا وقداسته ، حريصاً على ألا ينال أحد منهما ، وألا يخاطب
دعاة الإصلاح بين إصلاح المكنيسة ومراكز رجالها وما يستحقون من
إجلال وتقديس ، فهو يرى أن الإصلاح واجب على أن تقوم به المكنيسة
في داخلها ، أو يعاونها الحكام على إصلاح نفسها ، ولذلك عندما رأى
ثورة لوثر العنيفة ، وما أدت إليه من مس سلطان المكنيسة ونقص مالها
من قداسة ، نبذ آراءه ، ولم يعاونه .

وظهر كذلك في هذا الألبان تومس مور من ١٤٧٨ إلى ١٥٣٥ ، وقد ظهر
بانجلترا ، ودعا إلى إصلاح المكنيسة أيضاً بالطريق السلمي ؛ ولذلك دعا بنفسه

إلى وجوب سيادة البابا ، وأن يكون له السلطان الديني على الجميع .
١٢٢ — ولكن دعوات أولئك السلبية لم تفد فائدتها ، ولم تنتج ثمراتها ،
وان شئت فقل ان تحول الأفكار وانتقال الفكرة إلى الشعوب ، واصطدام
الكنيسة بالمفكرين ، وبعض الأمراء جعل نقد الكنيسة عنيفاً ، وجعل
خطوات الدعاة أسرع مما يريد أولئك السليون ،
وأشد من ظهر من أولئك تأثيراً . وأقوامهم نفوذاً : مارتن لوثر ، وزونجلي ،
وكلفن . ولنتكلم عن كل واحد من هؤلاء بكلمة موجزة .

أما مارتن لوثر ، فقد ولد سنة ١٤٨٢ من أبوين فقيرين ، ولكن أباه
أجهد نفسه ، وأراد أن يصل به إلى أقصى درجات الثقافة ، ومكن له
ليكون قانونياً ، فأرسله إلى الجامعة ، واسكنه عدل عن اتمام دراسة القانونية ،
وعكف على دراسة اللاهوت ، وانصرف إليها ، لما أحس بنزعة دينية
قوية تدفعه إلى الانقطاع لذلك ، وقد كان شديد التورع ، مبالغاً في تقدير
سيئاته ، قد سيطرت على مشاعره نفسه اللوامة ، حتى لقد قال بنفسه إنه
لن ينجو من عذاب الجحيم إلا برحمة الرب الرحيم ، وكان لهذا الاحساس
الديني الدقيق ، وذلك النزوع اللاهوتي موضع رعاية رجال الكنيسة ، حتى
لقد أوصوا به خيراً أولى الأمر من رجال الدنيا ، فعين مدرساً للفلسفة ،
وظل عاكفاً على هذه الدراسة التي كان يشك في صلاحيتها ، إذ كان يدرس
فلسفة أرسطو ، وما كان في نظره إلا من عبدة الأوثان ، ويجب أن يلاحظ
أن دراسة الفلسفة في ذلك العصر كانت تحت ظل الدين ، وفي خدمته ،
ويقوم بها رجال الدين أنفسهم ، ولذلك لم تكن دراسته الفلسفية مبعدة
له عن دراسته الدينية ، بل كانت تتميماً لها .

ولقد دفعته نزعته الدينية الخالصة ، واجلاله للكنيسة ورجالها إلى أن يحج
إلى روما ، ليتيمن بلقاء رجال الدين ، ولكي تحل عليه بركات روما موطن
المسيحية ومقر الكنيسة المقدسة ، ولكنه ما ان وطئت قدماه أرض روما ، حتى

رأى ما صدم حسه ، وأزعج نفسه ، لقد توقع أن يرى النسك والعبادة والزهادة ، فوجد مدينة لاهية عابثة ، ووجد رجال الدين قد دنست بعضهم بالمفاسد ، وأحاطت بهم الريب ، وظنت بهم الظنون ، وجد جرأة على الخطايا ، واستهانة بأحكام الدين ، ووجد الذين تحيلهم قديسين صالحين ، وأنهم ملائكة الله تسير على الأرض ، قد انغمسوا في الرزيلة ، ورتعوا في حماها زاعمين أن سحاب الرضوان قد نزلت عليهم ، وغفر لهم سابق ذنوبهم ولاحقها ، وأن يدهم مفاتيح الملكوت في السماوات والأرض وسر التوبة ، وأبواب الغفران ، يغفرون لمن شاءوا ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، رأى لوثر كل هذا وهو المرهف الحس الديني ، ذو النفس اللوامة الذي يرى أن خطايا الإنسان أكثر من أن يحسوها ، وأنه لا سبيل لغفرانها إلا أن تسعها رحمة الله ، لذلك شده من هول ما رأى ، وتحير بين ما تخيله في رجال الدين من زهادة ، والواقع المستقر الذي صدمه صدمة عنيفة ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى انتقل من الحيرة إلى الاستنكار ، لذلك عاد إلى ألمانيا حائقا مستنكرا ، بعد أن ذهب راضيا مقدسا . ولقد أخذ يعلن من ذلك الإبان أن التبرك بالمقدسات ، والحج إليها وتكرار الصلاة لا يجدي العاصي ، ولا يغنيه عن توبة نصوح ، وندم مطهر ، ورجاء رحمة الرحيم ، وأن أحدا من الخلق مهما تكبر قدسيته لا يملك لأحد غفرانا ، ولا يستطيع أن يسترد ذنبا قد ارتكب .

١٣٤ — كان لوثر بعد عودته مأخوذا بهذه الأفكار ، قد استولت على نفسه وسوغ له كل هذا أنه قد عرا ثقتة برجال الدين ضعف ، وإن لم يعتزم الثورة عليهم أو على آرائهم ، ولكن الحوادث كانت تدفعه إلى أن يعلن استنكار آراء رجال الدين ، والجهر بذلك ، وذلك لأن البابا ليو أراد أن يعيد بناء كتيبة بطرس في روما . وذلك يحتاج إلى مقدار من المال غير يسير ، فقرر أن يجمعه من صكوك الغفران يبيعها ، فذهب الراهب تنزل إلى ألمانيا ، ومعه تلك الصكوك

التي نقلنا لك نموذجاً منها فيما أسلفنا من القول ، وأخذ يعلن من أمرها ،
ويبالغ في قدسها وسرها ، عندئذ ثار لوثر الذي لا يعرف أن شيئاً يستر
الذنب إلا الندم على ما كان ، والاقلاع عنه فيما يكون ، ورجاء رحمة الديان ،
والذي رأى في رجال الدين ما رأى ، ثار لوثر على تلك الصكوك ، وكتب
في بطلانها احتجاجاً على باب الكنيسة ، ولقد كان لذلك أثره في العامة
والخاصة ، ولم يكن من المعقول أن تقابل الكنيسة ذلك بالصمت
أو الإغضاء ، فقد أرسلت إليه تدعوه إلى الحضور لمحاكمته أمام محكمة
التفتيش التي كانت تديره اتخذته المجمع ذريعة للقضاء على مخالفيها ، وهنا
نجد بعض الأمراء يتدخل ، فيوصيه ألا يجيب طلبها ، فلم ير البابا بداً من
أن يصدر قراراً بحرمانه ، وبعده زائغاً ، وهنا تأخذ الحمية لوثر ، ويشدد
في دعوته ، ويجاهر بالاستهانة بأمر الحرمان ، حتى إنه ليحرقه في وسط
وتنبرج ، والجوع حاشدة ، حرمان البابا وقرار زيغ ، ولم يبق إلا أن تنفذ
السلطة المدنية قرار الحرمان ، فتحرمه من الحقوق القانونية والمدنية ،
أثراً لقرار الحرمان الديني ، فاجتمع مجمع ورمز سنة ١٥٢١ لمحاكمته ، ولكنه
طالب البابا بأن يقنعه بخطته فيما ارتأى ، فلم يجب إلى ما طلب ، فانفض
المجمع من غير نتيجة في هذا ، ولكن الأمبراطور أعلن حرمانه من
الحقوق المدنية إلا أن أمير سكسونية حماه .

ثورة لوثر على
الكنيسة

ومن هذا الوقت تخضع دعوة لوثر لحكم الأحداث السياسية ، فتجد
سلماً من الدولة ، إذا كان الأمبراطور مشغولاً بحرب ، ولا يريد إثارة
فتنة . ونجد حرباً إذا خلا الأمبراطور لهم . وفي كلتا الحالتين تزداد
الدعوة حدة ، ويزداد أتباعها عدداً ويشدد ساعدهم بموالاته أمراء
أعزاء في النفرة ، وفي سنة ١٥٢٩ حاول الأمبراطور أن ينفذ قرار
الحرمان الصادر سنة ١٥٢١ ، ولكن أنصار لوثر يحتجون على ذلك ، ومن
ذلك الحين سموا البروتستانت أي المحتجين ، ثم جرت الأمور سلماً حرباً ،
حتى إذا مات لوثر ، وكان الأمبراطور قد خلع من كل الحروب التي

تشغله أنزل بالبروتستنت أقصى العذاب وأشدّه بلاء ، ثم يعقب ذلك صلح بين الفريقين .

لوثر يرد هدم
الكنيسة

١٢٥ — لم يكن لوثر من الغلاة الذين يرمون إلى هدم الكنيسة ، ولا إلى محاربة سلطانها بوصف كونها مرشدة وواعظة ومبينة للناس شئون دينهم ، ولكنه كان يريد إصلاح حال رجال الكنيسة ، وحملهم على الجادة ، وإعطاءهم من الحق ما أعطتهم لها الكتب المقدسة ، ووصايا رسلهم ، والمأثور عنهم ، وهو لم ينظر إلى البابا على أنه خليفة المسيح لا يخطئ ، ولا يأتى الباطل إلى قوله ، بل نظر إليه على أنه كبير المرشدين الواعظين ، ولما أراد لهم الإصلاح ، وكان يائسا من أن يقوموا هم بذلك دعا الأمراء إلى أن يتدخلوا ، وقرر أن لهم عليهم سلطانا ، وأن لهم الحق في عزل رجل الدين إذا لم يقيم بما يأمره به الدين ، ووجد أن جزءا من فساد رجال الدين يرجع إلى عدم الزواج ، ورأى أن المنع منه لم يكن في المسيحية في عصورها الأولى ، فقرر حقهم في الزواج ، وتزوج هو فعلا مع أنه من رجال الدين ، وكان زواجه من راهبة ، ووجد أن الكنيسة تحتفظ لنفسها بحق فهم الانجيل ، وذلك من أسباب غلوها ، وفقداء الرقيب ، فجعل لكل مسيحي مثقف الحق في فهمه ، واشتغل بترجمته إلى الألمانية ليقرأه كل ألماني .

وأنكر أن المسيح يحل في بدن من يأكل العشاء الرباني ، فقد أنكر استحالة الخبز إلى عظام المسيح المكسورة ، وأنكر استحالة الخمر إلى دم المسيح ، وحلوا في جسم الآكل ، واكتفى لكي يكون العشاء الرباني تذكيرا لما قام به المسيح من فداء للخليقة أن يعتقد المسيحي أن المسيح معه بجسده عند تناول هذا العشاء . هذا كله مع إنكاره حق الكنيسة في الغفران ، ذلك الحق الذي كان عود الثقب الذي أشعل ثورة لوثر ، وكانت منها تلك النيران التي لم تستطع الكنيسة لها إطفاء .

١٢٦ — وفي الوقت الذي كان يغالب فيه لوثر الكنيسة وأنصارها من

ذوى السلطان ، كان فى سويسرة صوت قوى آخر ينادى بما يقارب ما نادى به لوثر ذاك ، ذلك هو زونجلى (١٤٨٤ — ١٥٣١) فقد آلمته حال الكنيسة ودعا إلى مثل ما دعا إليه لوثر فى مسائل الدين ، وقد ابتدأت ثورته بالثورة على صكوك الغفران ، كما ابتدأ لوثر ، وقد مات فى أثناء صراع وقع بين أنصاره ، والمعتنقين لمبادئه ، وأنصار الكاثوليك ، وآراؤه فى الجملة تتقارب من آراء لوثر ، ولقد كان يرى أن العشاء الربانى مناولة تذكارية لموت المسيح ، وفدائه لخطيئة الخليقة ، وإن المسيح يحضر ذلك العشاء بروحه فقط ، ويفسر ما جاء خاصا بالعشاء الربانى فى إنجيل متى بمعناه المجازى ، وهذا نص ما جاء فى ذلك الانجيل فى إصحاحه السادس والعشرين : « وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز ، وبارك ، وكسر ، وأعطى للتلاميذ ، وقال : خذوا ، كلوا هذا هو جسدى وأخذ الكأس وشكر ، وأعطاهم قائلا : اشربوا منها كلكم ، لأن هذا هو دمي الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا . »

ودعوة زونجلى هذه ، وإن كانت تتلاقى فى مبادئها فى الجملة مع مبادئ لوثر كانت منفصلة عنها ، فلم تتوحد الدعوتان ، بل كانت كلتاهما تعمل فى محيط إقليمها ، بيد أن حركة لوثر كانت أوسع دائرة ، وأسرع انتشارا ، لسعة الاقليم الذى نشأت فيه ، ولرعاية بعض الأمراء لها ، بل لاعتناقهم مبادئها ، ولأن الأحوال السياسية فى ألمانيا كانت تسمح لمثل هذه الدعوة بالذيع والانتشار .

١٢٧ - وفى الوقت الذى كان فيه هذان الرجلان يعملان ، ويجاهدان كل بطريقته ، فالوثر بطريقته السلبية التى خالطها العنف ، وزونجلى بطريقة الصراع والمنازلة ، حتى لقد مات فيه .

فى هذا الوقت كان رجل آخر ظهر فى فرنسا وهو كلفن ١٥٠٩ - ١٥٦٤

قد ولد بفرنسا ، ونشأ بها ، وتثقف ثقافة قانونية ، ولسكنه مال بعد تخرجه في القانون إلى الدراسات الدينية ، وقد كانت حركة لوثر قد ذاعت وشاعت في ربوع أوروبا ، وما إن أعلن آراءه ، حتى اضطر إلى الفرار بعقيدته إلى جنيف في سويسرا ، وهناك ألف وكتب ، وأخذ يعمل على نشر مبادئ المذهب البروتستنتي ، وينظمها بعد موت لوثر ، فنظيمها على الشكل الأخير يرجع إلى كلفن أكثر مما يرجع إلى أى رجل آخر ، وإن كان باذر البذرة سواء ، بل إن بذور ذلك المذهب قد كانت أقدم تاريخاً من لوثر نفسه ، وقد نوهنا إلى بعض هذا في الكلام في المجامع .

ويرى كلفن أن الكنيسة يجب أن تحكم نفسها بنفسها ، وعلى الحاكم المدني مساعدتها ومعاونتها وحمايتها ، وذلك ليكون السلطان الديني غير خاضع لحكم الحكام ، وهو يرى أن المسيح لا يحضر لا بشخصه ، ولا بروحه في العشاء الرباني ، ويعتبر تناول العناصر المادية رمزاً للإيمان . ويقول كما يقرر صاحب كتاب الأصول والفروع في العشاء الرباني : « يشير العشاء الرباني أيضاً إلى مجيء المسيح ، كما يشير إلى موته ، فيكون تذكراً للماضي والمستقبل ، فالعبرة في العشاء الرباني بالذكرى ، لا حضور المسيح مادياً أو روحياً . »

إنشاء كنائس
للمصلحين

١٢٨ — كانت جهود دهنر ولاه القادة ، وأتباعهم ، وغيوب الكنيسة ، وسوء حالها وحال القوامين عليها ، وشدة ضغطهم سبباً في ذبوع الآراء التي تخالف رأي الكنيسة ، وقد ابتدأت الحركة بطلب إصلاح الكنيسة على أن يقوم بالإصلاح رجال الكنيسة أنفسهم ، ولكنهم أنغضوا رموسهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً ، ورفضوا كل دعوة للإصلاح ، وقابلوا أصحابها بقرارات الحرمان أحياناً كثيرة ، والإهمال أحياناً قليلة . فلما استئشس مريدو الإصلاح من أن يقوم الكنسيون بإصلاح حالهم ، وأن يرعوا الديانة حق رعايتها اتجهوا إلى الحكام طالبين أن يتدخلوا لإصلاح الكنيسة ، كما حاول

لوثر ، فقد أعطى الحكام حق الهيمنة على الكنيسة ليصلحوها ، ولكن
الحكام تقاعسوا ، ومنهم من لم يحاول إصلاح الكنيسة ، بل حاول القضاء
على طلاب إصلاحها ، وأنزل بهم اضطهادات وبلايا وشدائد ومذابح ،
كما حدث لبروتستنت فرنسا ؛ وكان ذلك إماتعصبا للكنيسة ، وإما مجاملة .
وإما كراهة للمصلحين . لأن منهم من كانت لهم آراء في إصلاح نظم الحكم
بحوار آرائهم في إصلاح الكنيسة ، وقد كان الحكم استبداديا مطلقا ،
بلا نظام يقيد الحاكم ، ويلزم المحكوم . فلما يئس طلاب الإصلاح
من الحكام كما يئسوا من رجال الكنيسة اتجهوا إلى أن يجعلوا لآرائهم
جماعة ، ووحدة دينية منفصلة عن الكنيسة وآرائها غير خاضعة للكنيسة ،
ورافضة كل ما لها من سلطان ، وأنشئوا لهم كنائس ليست معترفة لكنيسة
روما بأى سلطان ؛ وسلطة رجال الدين فيها محدودة ، ولرجال الدين
من الحقوق ماقرروا من مبادئ ، وسميت كنائسهم كنائس إنجيلية^(١)
أى أنها لا تخضع إلا لحكم الكتاب المقدس يقيد بأحكامه رجل الدين
أمام رجل الشعب ، وجميعهم مسئول أمام ذلك الكتاب ، وليس لرئيس
الكنيسة خلافة تجعل كلامه مقدسا ، مساويا لأحكام الكتاب المقدس
في الرتبة والاعتبار .

وقد انتشر المذهب الجديد فى ألمانيا والدانمرك وأسوج والنروج
وهولندا وإنجلترا ، وأمريكا الشمالية وسويسرا ، وإن لم تضر كلها على
هذا المذهب .

١٣٩ — والآن نلخص المبادئ التى أتى بها ذلك المذهب الجديد ، ونكتفى
بذكر أصولها التى ترجع إليها غيرهما من الفروع ، وأعظم تلك الأصول شأنا:
(١) جعل الخضوع التام الواجب على المسيحى لنصوص الكتاب المقدس

مبادئ الإصلاح

(١) وتسمى الكنائس الأخرى التى تجعل لرئيس الكنيسة سلطانا يعتبر فيه خالفة
المسيح الكنائس التقليدية ، وهى كنيسة الكاثوليك ، والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية
والكنيسة الأرثوذكسية المرقسية ، وهى كنيسة القبط وغير ذلك .

لكل مسيحي حتى
تفسير الكتاب
المقدس

وحدها (١) وجعله الحكم وحده الذي لا ترد حكومته ، ولا ترفض
أوامره ، وقياس كل أوامر الكنيسة القديمة وقرارات المجامع على
ما نص عليه في ذلك الكتاب ، فما وافقه قبل على أن الكتاب قد ورد
به ، وما خالفه رفض ، ولو كان قد صدر عن أكبر رجال الكنيسة
شأناً في الماضي أو الحاضر ، ولذلك يقول صاحب كتاب سوسنة سليمان
في ذلك : « انهم جميعاً متفقون في المعتقدات على مجرد ما في الكتاب
المقدس فقط ، فلا يخضعون لشيء من التقاليد التي لا يوجد لها
فيه رسم أصلاً ، ولا الى أقوال أحد من الآباء أو المجامع إلا إذا كان
موافقاً لنصوصه لفظاً ومعنى ، أما تفاسير الآيات الغامضة والتي لم يوضحها
الوحي الالهي ، فلا يمارون أحداً فيها إلا إذا كان التفسير يتنافى ما كان
معناه واضحاً في غيرها من تعاليم الكتاب.

(١) الكنيسة الكاثوليكية ، والكنيسة الشرقية وغيرها من الكنائس التقليدية
لا يعتبرون الكتاب المقدس وحده هو المصدر للدين المسيحي ، بل يعتبرون معه الرسائل
غير المسطورة في ذلك الكتاب وتعاليم المسيح التي نقلت الى البابوات خلفاء عن سلف
مصدراً أيضاً ، ويسمون ذلك المصادر التقليدية . ويقول في ذلك صاحب كتاب
تاريخ الكنيسة الذي ترجمه يوسف البستاني في ذكر قرارات المجمع الترنديني : « ان المجمع
الترنديني المقدس الملتزم بتدبير الروح القدس والمصدر فيه صفات الكرسي الرسولي لاعتباره أن
حقائق الايمان ورسوم الآداب متضمنة في الصحف المكتوبة وفي التقليدات المكتوبة ، وهي
المنقولة عن ثم يسوع بواسطة الرسل ، أو المنزلة على الرسل أنفسهم بالروح القدس .
وقد اتصلت اليها تسليماً افتناء بأثر الآباء الأرثوذكسيين قد قبل جميع أسفار المهديين
القديم والجديد ، ثم التقليدات أيضاً المتعلقة بالاجامات والآداب بما أنها بارزة من ثم
يسوع المسيح ، أو ملقنة من الروح القدس ، ومحفوظة في الكنيسة بالخلافة المتواصلة
ويعتقها بنفس الاحكام والاحترام الذي تعتق به الكتب المقدسة » .

فهم لا يعترفون بسلطان لغير الكتاب وقد كان تحكيم الكتاب وحده سبباً في جعل رجل الدين غير مطاع إلا فيما ورد في الكتاب . وقد كان جعل سلطان الكتاب شاملاً لرجل الدين ، ولرجل الشعب سبباً في أن حق التفسير والفهم لم يعد مقصوراً على رجال الدين ، فأزيل ذلك الحجاب الذي أقيم بين المسيحي وبين كتابه . وأقامة رجال الدين ليحتجزوا حق تفسير الكتاب لأنفسهم ، وبذلك يكون الدين ما تنطبق به أقواهم وليس لأحد أن يعقب على قولهم ، لأن باب التفسير قد أقفل دون غيرهم فلا يستطيعون إزالة رتاجه ، ولا فتح أغلافه ، فألغى المذهب الجديد ذلك الحجاب وفتح باب التفسير لكل مثقف ذي فهم ، وإذا كان ثمة نص لم يفهم توقفوا عن فهمه ، فإن أبدى رجل الدين رأياً في فهمه قبلوه إلا إذا خالف نصاً ظاهراً ، لا مجال للتأويل فيه .

(ب) ليس لسكنائسهم من يترأس عليها رياسة عامة . بل لكل كنيسة رياسة خاصة بها ، والرياسة الكنسية التي تستمد الخلافة من أحد الحواريين أو من المسيح نفسه لا وجود لها عندهم ، بل إن الكنيسة في كل مكان ليس لها إلا سلطان الوعظ والارشاد ، والقيام على تأدية الفروض والتكاليف الدينية ، وبيان الدين لمن لا يستطيع معرفته من تلقاء نفسه ، ولم يكن عنده من الثقافة ما يمكنه من ذلك

عدم الرياسة في الدين

(ج) وإذا كانت الكنيسة ليس لها سلطان إلا البيان لمن لا يستطيع بياناً والارشاد لمن لا يستطيع معرفة أوامر الدين من تلقاء نفسه ، فليس لها سلطان في محو الذنب ، أو ستره أو تلقى الاعتراف بالذنوب ومسحها سواء أكانت تلك هي المسحة الأخيرة عند الاحتضار ، أم كانت قبل ذلك ، فكل ذلك ليس لها فيه سلطان ، لأنه من عمل الديان . وقد علمت أن صكوك الغفران ، وحق الكنيسة فيه كانت الثقاب التي اندلعت منه الثورة على الكنيسة ،

ليس لرجل الدين الغفران

وتبعها تقصى عيوبها ، وتتبع نقائصها . وقد ذكرنا ببعض التفصيل ما كانت تفعله الكنيسة ، وبيننا أنها غالت فيما زعمته لنفسها في ذلك من حق ، والأساس في رفض حق الكنيسة في هذا أن كل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكما أن ذلك الأساس أدى إلى سلب الكنيسة ما زعمته لنفسها من حق الغفران أدى إلى أمر آخر ، وهو منع الصلاة لأجل الموتي ، واعتبار أن ذلك لا يفيدهم لأنه ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سبحانه عليه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأدى أيضاً إلى أن طلب شفاعة القديسين لا قيمة له ؛ لأنه لا يغير عمل الشخص من طالح إلى صالح ، وفي الجملة إنهم اعتبروا غفران الذنوب يرجع إلى عمل الشخص وعفو الإله ، وتوبة العاصي وندمه على ما فات ولومة نفسه على ما كان ، وكل قول يجعل غفران الذنب أساسه غير ذلك رفضوه ، ولم يلتفتوا إليه .

عدم الصلاة بلغة
غير مفهومة

د - ولقد كان ذلك المبدأ الذى يجعل الإنسان يدين بعمله وحده ، ومبدأ أن لا سلطان للكنيسة على القلب والعادة كان هذان المبدأان سبباً في أن رفض أولئك المسيحيون الصلاة بلغة غير مفهومة للمتعبد ، لأن الصلاة دعاء من العابد للمعبود ، وانصراف القلب إليه ، والقيام بالخضوع الكامل له ، والنطق بما يدل على الخضوع والاتجاه إلى المعبود ، فوجب أن تكون بالفاظ يفهمها العابد ليريد معانيها ويقصد مراميها ، وقد كانت صلاة القسيس بلغة لا يفهمها المصلون مقبولة لدى الكاثوليك ، لأن أساس ذلك أن عبادة القسيس عبادة لمن هم تحت سلطانه .

رايهم في العشاء
الرباني .

هـ - انتهى البروتستنت بالنسبة للعشاء الرباني إلى أنه تذكاري بفداء المسيح للخطيئة التي ارتكبها آدم ، وتحملت الخليقة من بعد وزرها ، وتذكاري لحبيته ليدين الناس ، فهو تذكاري للماضي والمستقبل كما جاء في بعض الرسائل ، وهم ينكرون أن يتحول الخبز إلى جسد المسيح ، والخر إلى دمه ، والكنيسة قد أصرت على ذلك إصراراً ، وهذا قرارها في المجمع الترنديني في ذلك الشأن ، فهي تقول

بلسان أعضائه : « قد اعتقدت كنيسة الله دائماً بأنه بعد التقديس يوجد جسد ربنا الحقيقي ودمه الحقيقي مع نفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر ، وأن كلا من الشكاين يحتوى ما يحتويه كلاهما ، لأن يسوع المسيح هو بكامله تحت شكل الخبز ، وتحت أصغر أجزاء هذا الشكل ، كما أنه هو كله أيضاً تحت شكل الخمر وجميع أجزائه ، وقد اعتقدت الكنيسة أيضاً اعتقاداً ثابتاً بأنه بتقديس الخبز والخمر يستحيل كامل جوهر الخبز إلى جوهر جسد ربنا ، وكامل جوهر الخمر إلى جوهر دمه تعالى ، وهذا التغيير قد دعى بكل صواب ، فيلتزم إذا جميع المؤمنين بأن يعدوا هذا السر المقدس العبادة المستوجبة للآله الحقيقي ، لأننا نعتقد بأنه يوجد فيه الله نفسه الذى عبده الملائكة عن أمره تعالى ، حينما أتى على العالم ، وهو نفسه الذى سجدت له المجوس خاربين على أقدامه ، وله نفسه سجدت له الرسل فى الجليل ، .

هذه عقيدة الكنيسة فى العشاء الربانى ، لم يستسغها لوثر وأشياعه ، وخلفاؤه من بعده ، وانتهى أمرهم إلى أن رفضوا ذلك التحول الذى تفرضه الكنيسة ، وتلزم به ، وإن كان بعيداً عن المعروف المألوف ، وبعد أن رفضوا ذلك قر قرارهم الأخير على اعتبار العشاء الربانى تذكارا بالفداء وتذكارا للمجىء . وفى ذلك عظة واستبصار .

و — أنكر أولئك المصلحون لزوم الرهينة التى يأخذ رجال الدين أنفسهم بها ويعتبرونها شريعة لازمة ، يفقد رجل الدين صفته الكهنوتية إن تخلى عنها ولقد رأوا ما أدى إليه ذلك الخطر من كبت للجسد الإنسانى ، وتعذيب له من غير ضرورة ، ولانص من الكتب قديمها ، وجديدها يفيد ذلك ، بل لقد رأوا ما أدى إليه ذلك الكبت من انفجار غريزة الإنسان فى رجل الدين فانطلق يكرع اللذة من شقتها الحرام بعد أن حرم على نفسه الحلال ، وطقق يغترف من ورد متعكر بالآثام ، مرنق بالمفاسد ، وترك المنهل العذب الذى حللته

أنكار الرهينة

الشرائع ، ويتفق مع ناموس الاجتماع الإنساني .

ز — منع البرتستنت اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها ،
معتقدين أن ذلك قد نهى عنه في التوراة ، فقد جاء في سفر التثنية :
لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، ولا صورة ما مما في السماء من فوق ،
وما في الأرض من أسفل ، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهم
ولا تعبدهم ، لأنى أنا الرب إلهك غيور ، افترقد ذنوب الآباء في الأبناء
في الجيل الثالث والرابع من مبغضى ، وراصنع إحسانا إلى ألوف من محبي ،
وحافظي وصاياي .

ولا شك أن مانته عنه التوراة يجب الأخذ به مادام الجميع يؤمنون
بالتوراة ، وكتب العهد الجديد ، وما دام لم يرد عن المسيح أو عن الرسل
ما يبطل ما جاء في التوراة .

ولقد أثبت الأستاذ أمين الخولى بالسند التاريخي أن ذلك التحريم
قد قبسه النصارى المصلحون من نور الإسلام .

١٢٠ — هذه أعظم المسائل التي خالف بها المصلحون في المسيحية ما عليه
الكنيسة ، وهي لاشك خلع سلطان الكنيسة على النفوس ، وقضاء على
سلطان المجامع . وإذا كان للحوادث منطق تسير عليه ، فهل لنا أن نستنبط
منطق تلك الحوادث ، وما كان عساه يكشف عنه لو سار في طريقه إلى أقصى
مداه ؟ لقد علمت في سياقنا التاريخي الذي بيناه عن أدوار المسيحية أن ذلك
السياق يعلن في عبارته وفي فحواها أن تلك الديانة كانت ديانة توحيد ، حتى
جاءت المجامع ، فقررت ألوهية غير الله ، وطردت من حظيرة المسيحية
المستمسكين بعروة التوحيد الذين رفضوا دعوى ألوهية المسيح ، وناصرتهم
الشعوب المسيحية في ذلك الأبان ، فاذا كان المصلحون قد قرروا أن يأخذوا
مذهبهم الديني من الكتب ، وقرروا أن يرفضوا سلطان المجامع والكنيسة
معا ، فإن المنطق الذي يسرون عليه كان يوجب عليهم أن يرفضوا أقوال

المصلحون لم يسيروا
في منطقتهم إلى أقصى
مداه

المجامع القديمة ، ومنها ألوهية المسيح ، وألوهية الروح القدس ، فلقد قرر المجمع النيقى ألوهية المسيح . وقرر المجمع القسطنطينى ألوهية الروح القدس ، ولقد كنا نود أن يدرسوا قرارات هذه المجامع ، وينظروا إلى سندها وقوته . فان لم يروا السند قويا رفضوا ذلك القرار ، ولكنهم لم يسيروا فى منطقهم إلى أقصى مداه ، فرفضوا آراء الكنيسة فى أمور ، أعظمها شأنًا ما بيناه ، ولم يتجهوا إلى لب العقيدة ، وهو لم يتجاوز أنه قرار مجمع ، فيدرسوه من جديد ، على أساس ما فتحوه لأنفسهم من نور مبصر ، وهو أن يكون لكل شخص له قدرة على فهم الكتاب حق فى تفسيره ، واستخراج الأوامر والنواهي منه من غير أن يتخذوا الأحبار والقسيسين وسائط فى فهمه ، ويحكموهم بذلك فى ضمائرهم ، واعتقاداتهم .

١٣١ — ولكننا وقد يثسنا من أن يسير البروتستانت فى طريقهم إلى أقصى مداه ، وجدنا العقول المسيحية قد تنهت ، والدراسة العلمية والفلسفية قد سارت ، ونور الإسلام قد انبج ، فوجدنا علماء كثيرين قد صرحوا فى قوة بأن المسيح لم يكن إلا رسولا ، وأنه لم يكن أكثر من بشر ، وقد قبسوا ذلك من الأناجيل نفسها ، فهذا رينان قد جهر بذلك فى قوة وجراءة ، ولم يمنعه حرمان الكنيسة له من الأصرار على رأيه والذود عنه ، وهذا تولستوى ينكر على المسيحيين ألوهية المسيح ، وتنتهى نتائج بحثه إلى أن بولس لم يفهم تعليم المسيح ، بل طمسه ، والكنيسة زادت تعليم المسيح بالنسبة للاعتقاد غموضا وإخفاء ، وترك الآن الكلمة لذلك الفيلسوف ، فهو يقول : إنه ينبغى لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقى ، كما كان يفهمه هو أن نبحت فى تلك التفسيرات والشروح الطويلة الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى ، حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام ، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح ، بل حمله على محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد

عقول مسيحية
تكرار ألوهية المسيح

الفريسيين ، وتعاليم العهد القديم ، وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم ،
أو رسول الجدل والمنازعات الدينية ، وكان يميل إلى المظاهرات الخارجية
الدينية كالختان وغيره ، فادخل أمياله هذه على الدين المسيحى فافسده ، ومن
عهد بولس ظهر التلبود المعروف بتعاليم الكنائس ، وأما تعليم المسيح
الأصلى الحقيقى ، فحسر صفته الإلهية الكالية ، بل أصبح إحدى حلقات
سلسلة الوحى التى أولها منذ ابتداء العالم ، وآخرها فى عصرنا الحالى ،
والمستمسكة بها جميع الكنائس ، وإن أولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع
آلها ، دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعواهم على أقوال
وردت فى خمسة أسفار موسى ، والزبور ، وأعمال الرسل ، ورسائلهم ، وتأليف
آباء الكنيسة ، مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله .

هو إذن ينكر ألوهية المسيح ، وينكر ألوهية روح القدس ، ويعتقد
بأن الله واحد أحد فرد صمد . وينكر أن تكون كتب النصارى كتبت بالهام
ويعلن فى جرأة أنها حرفت وعراها التغير والتبديل . فيقول فى صراحة
المستمسك بالعروة الوثقى : « أن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقدون جميعهم
بالوحى الإلهى ، فالمسلمون يعتقدون بنبو موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون
كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانة النصرانية ، وهم
يعتقدون بأن محمدا خاتم الأنبياء ، وأنه قد أوضح فى قرآنه تعاليم موسى
وعيسى الحقيقية ، كما قالها ، دون زيادة ولا نقص ، وأن كل مسلم أمامه
القرآن يقرؤه ، ويتمسك به ويسير بموجب أحكامه ، ولا يعترف بغيره
من الكتب مهما اشتهر واضعوها بالتقوى والصلاح ، ويسمى المسلمون
ديانتهم بالمحمدية ، لأن محمدا وضعها ، بخلاف الكنيسة المسيحية التى تسير
الآن بموجب تأليف الآباء الذين يدعون بأن ما كتبوه هو من الروح القدس ،
فكان الأحرى بالمسيحيين أن يسموا كنيستهم بالروحانية القدسية أولى من
تسميتها بالمسيحية . »

خاتمة :

١٣٣ — قد ظهر إذن مسيحيون يدعون إلى التوحيد ، وإنك لترى بريق الإسلام يلمع من بين السطور التي دونوها ، والأقوال التي نشروها ، ولكن قد طردتهم المسيحية الحاضرة من حظيرتها كما فعلت الجامع من قبل ، ولقد كان الأمر لا يسترعى النظر لو كان مقصوراً على العلماء . بل إنك لترى المسيحيين الذين تجادلهم أو تخالطهم بالمودعة إن استثنت رجال الدين منهم يصرحون في بهرة المجالس ، وفي جهر من غير إسرار بأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا المسيح إلا رجلاً عظيماً رسولاً من عند الله ، وليس هو الله . ولا ابن الله وليس ذا صلة بالآلوهية إلا صلة الرسول بمن أرسله . فهل لنا أن نعتقد أن شيوع هذا على السنة أو تلك المثقفين يؤدي إلى إصلاح كامل للعقيدة ، يكون شاملاً للأصل ، ولا يكون مقتصرًا على الفرع كما فعل الإصلاح السابق واقتصر عليه .

إن الطريق لهذا أن يتجه أولئك المثقفون إلى دراسة دينهم ، وأن يتجه الذين يحاولون إرشادهم إلى بيان الأدوار التاريخية التي مرت على دينهم ، وإلى ما أحدثته الجامع من أحداث ، وكل حدث في الدين هو بدعة فيه ، فإن دراسة تلك الأدوار تربهم الحقائق عارية ، وتكشفها لهم غير مستورة برسوم وطقوس كنسية أو غير كنسية ، وقد حاولنا في أثناء بحثنا أن نبين أن ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس فكرتان عرضتا على العقل المسيحي ، ولم تكونا في المسيحية الأولى ، وذكرنا السند التاريخي في ذلك ، وأنه لمسيحي خالص ، ولما بهذه المحاولة نريد أن ندعو الذين يهمهم رد العالم المسيحي إلى التوحيد إلى العناية بدراسة تاريخ المسيحية وإعلانه لأهلها ، ونريد أن ندعو الذين يريدون نشر الإسلام بين ربوع المسيحيين إلى إعلان ذلك التاريخ ، فانهم إن دخلوا في التوحيد ، دخلوا في الإسلام بايسر بمجهود لأن الخطوة التالية ، لا تحتاج إلى أكثر من الإعلام والحمد لله رب العالمين .

ما يشتمل عليه الكتاب

٣ - مقدمة الطبعة الثانية ، ٥ - مقدمة الطبعة الأولى ، ٧ - التمهيد .

٩ - المسيحية في القرآن الكريم

- ١٠ - ينص القرآن على أن التوحيد أصل المسيحية ، ١٠ - دعوة المسيح عليه السلام ، ١١ - شخصية المسيح ، الحمل بمريم وولادتها ، ١٥ - الحمل بالمسيح وولادته ، ١٥ - الحكمة في كون المسيح ولد من غير أب ، ١٦ - معجزات المسيح وبعثته ، ١٨ - الحكمة في كون معجزاته عليه السلام من ذلك النوع الروحي وما يقوله العلماء في ذلك ، ١٩ - رأينا في هذا المقام ، ٢٠ - تلقى اليهود لدعوته ، ٢١ - مناوأتهم له وكيدهم ، ٢٢ - نهاية المسيح في الدنيا والمسيح بعد نجاته ، ٢٣ - موازنة بين المسيح في القرآن والمسيح في المسيحية الحاضرة .

٢٧ - المسيحية بعد المسيح

- ٢٧ - ما نزل بالمسيحيين من اضطهادات ، ٣٠ - أثر هذه الاضطهادات في الديانة ، ٣١ - الفلسفة الرومانية والمسيحية ، ٣٣ - الأفلاطونية الحديثة والمسيحية ، ٣٥ - ما قد يستنبط من التوافق بينهما ، ٣٥ - رأى بعض المستشرقين في ذلك .

٣٨ - مصادر المسيحية بعد المسيح

- ٣٨ - الكتب المقدسة عندهم والأنجيل وتعددتها في عصور المسيحية الأولى ، واختيار المجامع أربعة منها ، ٤٠ - الأنجيل لم يعلمها المسيح ولم تنزل عليه ، انجيل متى ، ٤١ - انجيل متى كتب بالعبرية ، ولم يعرف إلا باليونانية والمترجم مجهول ، ٤٣ - أثر جهل تاريخ التدوين والمترجم ، ٤٤ - انجيل مرقس ، ٤٥ - اللغة التي كتب بها وتاريخ تدوينه والاختلاف فيه وفي الكاتب ، ٤٦ - انجيل لوقا ، ٤٧ - من كتب لهم انجيل لوقا ولغته وبعض اختلاف علماء

النصرانية حوله ، ٤٨ - إنجيل يوحنا ، ٤٩ - طعن بعض علماء المسيحيين في نسبته ، ٥٢ - تاريخ تدوين هذا الانجيل ، وسبب تدوينه ، ٥٣ - ما يستنبط من سبب كتابته ، ٥٤ - الأناجيل لا تنسب لعيسى عليه السلام ، بل تنسب إلى كاتبها ، انجيل عيسى ، ٥٥ - أقوال علماء النصرانية في إنجيل عيسى .

٥٦ - إنجيل برنابا ، ٥٧ - أخبار برنابا من سفر أعمال الرسل

٥٩ - هل برنابا من الحواريين الأثني عشر ، ٦٠ - أقدم نسخة عرفت لإنجيل برنابا ، ٦١ - الكلام في صحة نسبة هذا الانجيل ، ٦٢ - ترجيح صدق النسبة في هذا الانجيل ، ٦٤ - قيمة انجيل برنابا من حيث ما اشتمل عليه ، مخالفة لإنجيل برنابا ما عليه المسيحيون .

٦٧ - رسائل الرسل

٦٨ - عدد الرسائل وكاتبوها ، ٦٩ - موجز عن أخبار كاتبها ، ترجمة بطرس ، ترجمة يعقوب ، ترجمة يهوذا ، ٧٠ - ترجمة مطولة لبولس ، ٧٤ - صفات بولس ، ٧٥ - كتب العهد القديم والأناجيل والرسائل كتبت بالهام من الروح القدس .

٧٦ - نظرة فاحصة في الكتب

٧٧ - ما يجب أن يكون في الكتاب الديني من صفات ليكون حجة

٧٨ - تطبيق هذه الأوصاف على الكتب المسيحية ، سفر أعمال الرسل هو المصدر الوحيد لأخبار الرسل ، ٧٩ - مناقشة ادعاء الإلهام في سفر الأعمال ومناقشة سنده ، ٨١ - لوقا صاحب سفر الأعمال ، ومناقشة سنده ، ٨١ - لوقا صاحب سفر الأعمال لم يكن ملهما ، أو لم يقم دليل على إلهامه ، ٨٢ - دعوى الإلهام لم تكن محل إجماع المسيحيين ، ٨٣ - شك بعض المسيحيين في دعوى الإلهام ، لا دليل على الإلهام ، ٨٤ - التضارب بين كتب العهد الجديد

٨٩ - التضارب بينها مبطل لادعاء الإلهام ، ٩٠ - انقطاع السند في نسبتها لكاتبها .

٩١ - موازنة قس بين أحاديث الرسول وكتبهم من حيث الرواية ، ٩٢ - بيان ما في كلامه من زيف ، ٩٦ - نظرة في الوحي في الاسلام والوحي في المسيحية .

٩٨ - النصرانية كما هي عند النصارى ،

٩٨ - العقيدة ، ٩٩ - عقيدة النصارى ، ٩٩ - التوراة والتثليث ، ١٠١ - الابن لا يعنى به الولادة البشرية ، ١٠٢ - الثالث أشخاص متغايرة وإن كان وجودها متلازما ، ١٠٣ - الجمع بين التثليث والوحدانية ولماذا يحاولون ذلك الجمع .
١٠٦ - صلب المسيح فداء عن الخليقة ، ١٠٩ - المسيح يدين ويحاسب ،
١١٠ - شعار الصليب ، ١١١ - العبادات ، ١١٤ - من شعار المسيحية .
١١٧ - منزلة شرائع التوراة في المسيحية ، ١١٩ - تحليل لحم الخنزير مع تحريره في التوراة .

١٢٠ - المجمع المسيحية

١٢١ - المجمع العامة والمجمع الخاصة ، ١٢٢ - مجمع نيقية ، سبب انعقاده ،
١٢٣ - الخلاف الخاص الذي انعقد لأجله . كلام أريوس ، ١٢٤ - انتشار رأى أريوس . تدخل قسطنطين وجمع مجمع نيقية ، ١٢٥ - عدد المجتمعين ونحلهم وموقف قسطنطين وانحيازه لرأى مؤلفى المسيح وجمعه المجمع منهم وخدم مع أنهم لم يكونوا السكثرة ، ١٢٦ - قرارات المجمع . النقد الموجه لإلهيا ،
١٢٩ - تلقى المسيحيين لقرارات المجمع ، ١٣٠ - مجمع صوريرفرض بالإجماع قرار مجمع نيقية الخاص بالوهية المسيح . ما يستنبط من هذا ، ١٣١ - نشاط الموحدين ،
١٣٢ - المجمع القسطنطيني الأول . سببه ، ١٣٣ - عدد المجتمعين بطريرك الاسكندرية يقرر ألوهية الروح القدس ويتبعه المجتمعون . زيادة هذا على ما قرره مجمع نيقية ، ١٣٥ - مجمع أفسس الأول وسببه . النسطوريون وآراءهم ،
١٣٦ - قرار المجمع والاحتجاج عليه . انتشار النسطورية في الشرق .
١٣٦ - مجمع خلكدونية ، ١٣٧ - الخلاف بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة القسطنطينية ، ١٣٩ - الانشقاق ومداة ، ١٤١ - المجمع الباقية . المجمع القسطنطيني

. الثاني وسبب انعقاده ، ١٤٢ - المارونية . مجمع القسطنطينية الثالث وسببه .
١٤٣ - مجمع يقرر تحريم اتخاذ الصور . صلته بالإسلام ، ١٤٤ - انفصال
الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية وسببه ، ١٤٦ - محاولة التقريب بين
هاتين الكنيستين .

١٤٧ - الفرق المسيحية

١٤٨ - الفرق التي ظهرت قبل عصر التثليث . فرقة أريوس ، ١٤٩ - أصحاب
بولس الشمشاطي ، ١٥٠ - دخول الوثنية على التوحيد ، ١٥١ - اتباع
مرقبون ، البربرانية . ضياع التوحيد بسبب تحريق الكتب .
١٥٣ - الفرق القديمة في عهد التثليث ، ١٥٤ - فرقة مقدنيوس ،
١٥٥ - النسطوريون ، ١٥٧ - اليعقوبيون ، ١٨٥ - المارونيون ، ١٥٩ - الكنيسة
الشرقية والكنيسة الغربية وأساس انقسامهما ، ١٦٢ بطاركة الكنيسة الشرقية ،
١٦٣ - الإسلام يظل الكنيسة الشرقية بالحرية الدينية ، ١٦٥ - الإصلاح :
أسبابه شدة الكنيسة على الناس والعلماء ، ١٦٦ - فرض سلطانها على الملوك ،
١٦٧ - قرارات الحرمان . فرض إتاوات ، ١٦٨ - استبداد الكنيسة بفهم
الكتب ، الاستحالة والغفران ، ١٧١ - سلوك رجال الدين الشخصي ،
١٧٣ - دعوة رجال الدين إلى الإصلاح ، ١٧٤ - ابتداء الإصلاح من غيرهم ،
١٧٥ - الدعوة الهادئة ، ١٧٦ - النقد العنيف ، ١٧٨ - ثورة لوثر على الكنيسة ،
١٧٩ - لوثر لم يرد هدم الكنيسة ، ١٨٠ - زونجلي وأعماله ، ١٨٠ - كلفن
وأثره في الإصلاح ، ١٨١ - إنشاء كنائس المصلحين ، ١٨٢ - أهم مبادئ
الإصلاح (أ) لكل مسيحي يفهم حق تفسير الكتاب المقدس .

١٨٤ - (ب) عدم الرياسة الدينية (ح) ليس لرجل حق الغفران ،
١٨١ - (د) عدم الصلاة بلبغة غير مفهومة (هـ) رأيهم في العشاء الرباني ،
١٦٦ - (و) إنكار الرهبنة ، ١٨٧ - عدم اتخاذ الصور ، ١٨٧ - المصلحون لم يسيروا
في منطقتهم إلى أقصى مداه ، ١٨٨ - عقول مسيحية تنكر ألوهية المسيح ، ١٩٠ - الخاتمة